فكر علمي ... ثقافة تقدمية

الثقافة الجديدة

460

تموز 2026

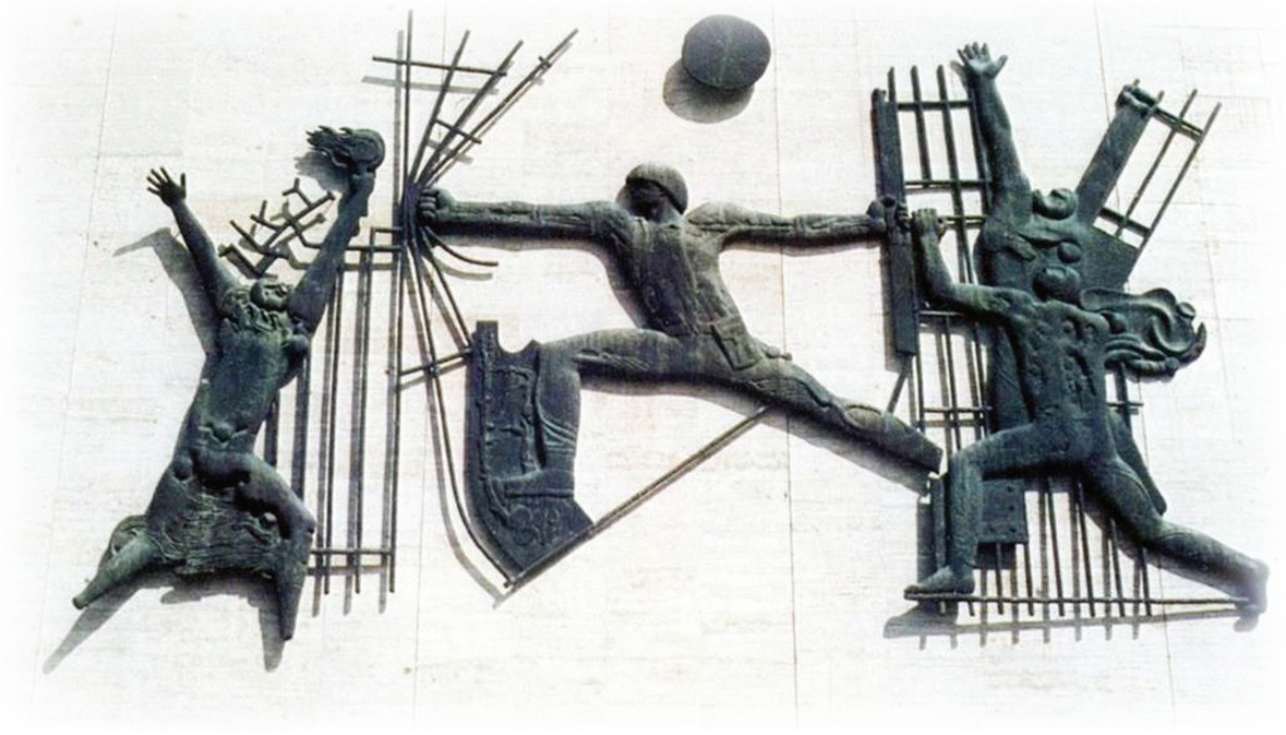

مقالات

محمد الربيعي

ماجد الياسري

معتز محي عبد الحميد

نجاة تميم

إسماعيل نوري الربيعي

نصوص قديمة

حميد الخاقاني

نصوص مترجمة

عبدالرزاق دحنون

حوارات

حوار مع الخبير النفطي
(احمد موسى جياد)

ادب وفن

حسب الله يحيى

علاء حمد

جمال كريم

بهاء إيعالي

أنور صباح

معتز عناد غزوان

موفق جواد الطائي

اميرة ناجي

بهاء محمود علوان

محمد سهيل احمد

محمد إبراهيم الفلاح

عبدالرزّاق الربيعي

طه الزرباطي

بولص اشوري

راميرو بينيلا

بيان الصفدي

عزيز جبر الساعدي

الثقافة الجديدة

فكر علمي - ثقافة تقدمية

تأسست عام 1953

رئيس التحرير : صالح ياسر

مجلس التحرير

ابراهيم اسماعيل — جـــــواد الزيدي

رضـــــا الظاهر — علي إبـراهيـــم

كـــــاوة محمود — مظهر محمد صالح

هـــــادي عزيـــز علي

هيئة التحرير

زهيـر الجـزائـري

هـــاشـم نعمـة

سوران قحطـان

حسب الله يحيى

محرر "أدب وفن"

العدد 460

تموز 2026

المواد المنشورة تعبر عن آراء أصحابها

السعر داخل العراق: 2000 دينار للنسخة الواحدة
الاشتراك السنوي خارج العراق: للأفراد (50) دولاراً أو ما يعادلها، وللمؤسسات (100) دولار، أو ما يعادلها.
يحول المبلغ نقدا على الحساب الآتي:

بالدينار:	بالدولار:
مجلة الثقافة الجديدة	Althakafa Aljadida Magazine
مصرف المنصور للاستثمار – بغداد	Mansour Bank for Investment– Baghdad
رقم الحساب: 11153	Account No:30721
سويفت كود: MBIVIQBA	SWIFT CODE: MBIVIQBA

ايميل رئيس هيئة التحرير: althakafaaljadeda@hotmail.com
ايميل سكرتارية هيئة التحرير: thakafajadida4u@gmail.com
ايميلات باب أدب وفن : hassab1944@yahoo.com

عنوان الموقع على شبكة الانترنت: althakafaaljadeda.net

عنوان المجلة: بغداد – ساحة الاندلس.
والرجاء إرسال المطبوعات الجديدة على هذا العنوان.

رقم الايداع: 781
رقم الاعتماد: 1288

شروط النشر

ترجو هيئة التحرير من المساهمين في الكتابة الى المجلة مراعاة ما يأتي فيما يرسلون للنشر:

- أن تكون المقالة أو الدراسة أو الشعر... الخ مستوفية شروط النشر من حيث وضوح التعبير وسلامة اللغة.
- ان لا يتجاوز حجم المادة 4000 كلمة، وبالنسبة لباب قراءة في كتاب، ألا يزيد عدد كلمات المادة عن 2500 - 3000 كلمة.
- ان لا يزيد عدد كلمات باب ترجمات عن 4000 كلمة ويمكن لهيئة التحرير أن تنشر أكثر من ذلك إذا رأت ان هناك ضرورة.
- باب نصوص قديمة، تعتمد كلماته على النص المختار.
- وبالنسبة لباب أدب وفن، لا يزيد عدد كلمات المادة عن 2500 كلمة.
- ان تكون المادة معدة اصلاً للمجلة، لذا نعتذر عن نشر أية مادة تكون قد نشرت قبل ذلك في أماكن اخرى أو على صفحات المواقع الالكترونية.
- ان تكون المادة مطبوعة على الكومبيوتر ومرسلة عبر البريد الالكتروني أو على قرص مدمج. وارتباطا بالتغيرات التي اعتمدتها هيئة التحرير فيما يتعلق بالتصميم الداخلي، نرجو ان ترسل مع المقال او الدراسة نبذة مختصرة عن حياة الكاتب أو الكاتبة بحدود سطر ونصف الى سطرين إضافة الى صورة شخصية لنشرها مع المقال او الدراسة.
- لا تعاد المادة غير المرشحة للنشر، وتتولى المجلة اعلام صاحبها بذلك.
- بالنسبة للمادة المرسلة عبر البريد الالكتروني، تلتزم المجلة بإعلام كاتبها عن صلاحيتها للنشر وذلك خلال شهر واحد من تاريخ وصولها.
- للمجلة حق إعداد أو اختصار التعقيبات التي تردها.
- يجوز للباحث/الباحثة اعادة نشر بحثه/بحثها المنشور في المجلة شريطة ان يشير/تشير الى المصدر عند اعادة النشر.
- بالنسبة لتوثيق المصادر خصوصا في المقالات يفترض أن يكون موحدا وهو يتوافق مع شخصية وأسلوب المجلة، وهنا يكون في الهامش وليس في داخل المتن بدون قوس، وهناك عدة طرق للتوثيق ولكن الأكثر استخداما ما يأتي، راجين من الباحثين والكتاب اعتماد ذلك:
- بالنسبة للكتب: اسم المؤلف أو المترجم أو المحرر، عنوان الكتاب، رقم الطبعة، مكان النشر، الناشر، تاريخ النشر، رقم الصفحة.
(لا تذكر الشهادات العلمية في توثيق المصادر، مثلا دكتور...)
- بالنسبة للدوريات أو المجلات: اسم الكاتب، «عنوان الدراسة أو المقالة»، اسم المجلة، المجلد و/أو رقم العدد، سنة النشر، رقم الصفحة.
(لا تذكر الشهادات العلمية في توثيق المصادر، مثلا دكتور...)

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والإعلان

محتويات العدد

5 - كلمة العدد

مقالات

8 - شفرة البقاء الحضاري:
ديالكتيك الانتخاب الثقافي وبيولوجيا الاستعصاء العربي.....محمد الربيعي
19 - العبودية الطوعية من الفلسفة والسياسة الى العلم.....ماجد الياسري
31 - قراءة في المشهد الأمني الداخلي وتداعياته في سورية.....معتز محي عبد الحميد
40 - ماذا عن العبودية في العالم الإسلامي؟..... نجاة تميم
48 - حرية السوق أم هندسة الهيمنة؟.....إسماعيل نوري الربيعي

نصوص قديمة

58 - من وحي أضواء العلوي على معضلة الكنز: هوامش وتداعيات.....حميد الخاقاني

نصوص مترجمة

66 - سياسة الأثرياء..
نظرة عميقة إلى شخصية إيلون ماسك وعالمه.....ترجمة: عبدالرزاق دحنون

حوارات

82 - حوار في الشأن النفطي العراقي
مع الخبير النفطي الأستاذ احمد موسى جياد..... حاوره: سوران قحطان

103 - ثقافية الاستثمار الخاطئة .....حسب الله يحيى
104 - ترتيبات القول التحريضي للصكار..
حبري أسود فلا تطلبوا مني أن أرسم قوس قزح..... علاء حمد
110 - «ينام وذهنه مشغول» لشاكر الانباري.....جمال كريم
113 - حين تصنع السيرة من فتات التفاصيل : «طباخ انغمار برغمان».....بهاء إيعالي
119 - ستيغ لارسون ورواية الفتاة ذات وشم التنين نموذجا.....أنور صباح
123 - قراءة في كتاب حسن الجنابي
"من الريادة الى الهامش" 1921 - 2022.....معتز عناد غزوان
128 - تحولات النقد التشكيلي من الحداثة إلى ما بعد الحداثة.....موفق جواد الطائي
134 - الرمز في تجربة الفنان قاسم محسن
"بين الذاكرة البصرية والهوية الحضارية".....اميرة ناجي
138 - "رأس المال" مسرحيا.....بهاء محمود علوان
140 - قال الحاوي: الحياة جميلة كأفعى!.....محمد سهيل احمد
144 - يَومُ قِيامَة الزهور.....محمد إبراهيم الفلاح
147 - غابة سبينوزا.....عبدالرزّاق الربيعي
149 - شاعران لنص واحد..... طه الزرباطي
151 - مصباح أشور.....بولص اشوري
154 - ممنوع التحدث باليوسكرية ...لـ راميرو بينيلا .....ترجمة: جودت جالي
158 - قراءة في أعمال صقر عليشي الشعري .....بيان الصفدي
162 - زوايا ساخنة.....عزيز جبر الساعدي

الغلاف الأول: مقطع من نصب الحرية للفنان جواد سليم
الغلاف الأخير : جدارية للفنان فائق حسن

التدقيق اللغوي: مصطفـــى عبـــاده
التصميم والاخراج الفني: علي العـتابي

كلمة العدد

الفساد المالي والإداري والسياسي يصل إلى مستويات غير مسبوقة

نعود إلى آفة الفساد المالي والإداري والسياسي، التي كتبنا عنها الكثير، والتي وصلت إلى مديات لا يمكن تصورها في دولة عصرية، تريد أن تبني تجربة ديمقراطية، فسنجدها مروعة بكل المقاييس؛ لذلك أحتل العراق مراتب متأخرة في سلّم مكافحة الفساد بحسب منظمة الشفافية الدولية، على الرغم من إنشاء هيئة النزاهة الاتحادية المتخصصة في مكافحة الفساد وطاقمها الذي تنفق عليه الدولة الملايين، وتشكيل اللجان المتخصصة التي بقي عملها انتقائيا وطال بعض الحلقات الصغيرة لمنظومة الفساد دون أن يصل إلى تفكيك كامل هذه المنظومة التي تشابكت مصالحها الاقتصادية والمالية والتجارية والسياسية داخليا وخارجيا. أمّا الحملة الأخيرة التي تمثلت باعتقال موظفين كبار وبرلمانيين وسياسيين ورجال أعمال متهمين بالفساد وضبط أموال طائلة بحوزتهم، ورغم أهميتها الجزئية، ودون الانجرار إلى الصخب الإعلامي الذي رافقها وتهويل مدى فاعلية هكذا حملة، فسيبقى في تقديرنا أثرها محدودا إن جرت بصورة انتقائية وموسمية، في حين يفترض تبني آلية متكاملة تتضمن معالجات سياسية واقتصادية وأمنية وتقنية واشراك الرأي العام فيها، لتفكيك شبكات الفساد المعقدة في بنية الدولة ومجتمع الاعمال التي ارتبطت مصالحها مع المنظومة الحاكمة التي تبنت نهج المحاصصة الطائفية - الإثنية الذي يغذي الفساد ويديمه بمختلف أشكاله. والمدخل المطلوب هنا هو إحداث تغيير اساسي في النظام السياسي والتخلي عن هذا النهج المدمر سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، وبناء نظام سياسي يؤمن بالديمقراطية والعدالة الاجتماعية ويستند إلى مؤسسات دستورية تقوم على المساءلة والحساب تطال الكل مهما كان مُنحدَر من يشغل مواقع الدولة سياسيا أو طائفيا أو اثنيا.

ومدخل آخر في غاية الأهمية يرتبط بعملية مكافحة الفساد، هو حصر السلاح بيد الدولة فعليا لا كشعار يرفع لكسب الوقت وإيهام المواطنين والمحيط الإقليمي بذلك. وأن يكون قرار الحرب والسلم حصريا بيد المؤسسات الدستورية للدولة. والتطبيق الحازم لقانون الأحزاب الذي لا يسمح للأحزاب التي تمتلك أذرعاً مسلحة في الاشتراك في العملية السياسية وخوض الانتخابات والدخول إلى مجلس النواب والاستحواذ على مواقع الدولة التنفيذية المتقدمة، ومن ثم استغلال ذلك للانغماس في شبكات الفساد الداخلية والعابرة للحدود.

*****

وبمقابل ذلك تتواصل الاحتجاجات والوقفات والتظاهرات في أغلب المحافظات العراقية من البصرة إلى أربيل؛ مطالبة بالخدمات الأساسية، المتمثلة في الكهرباء والماء الصالح للشرب والتعليم الجيد والصحة وتوفير الأدوية والسكن اللائق والأمن المجتمعي والحفاظ على البيئة، إضافة إلى مكافحة الفساد وإنصاف الفلاحين في تحديد سعر مناسب لمحاصيلهم الزراعية وتسديد مستحقاتهم دون تأخير، وتوفير فرص عمل تستوعب الخريجين القدامى والجدد وتطبيق الضمان الاجتماعي بشكل عادل. وباتت هذه الاحتجاجات من المظاهر اليومية في عراق اليوم. وهذا يعكس عمق الأزمات البنيوية التي طالت هذه المجالات دون أن تجد الحلول المناسبة لها من الحكومات المتعاقبة طيلة أكثر من عشرين عاما، عدا الوعود المعسولة التي تُطلق خصوصا قبل الانتخابات.

من المسلم به أن المشكلات التي لا يجري التصدي لحلها تتراكم وتولد مشكلات أخرى يمكن أن يكون حلها أكثر تعقيدا وتكلفة؛ فإذا أخذنا مشكلة الكهرباء والتي هي عصب الحياة في عالم اليوم، نجدها على الرغم من إنشاء وزارة خاصة بها وانفاق مليارات الدولارات عليها بعد عام 2003، إما في تراجع أو تراوح مكانها خصوصا في صيف العراق اللاهب. فإضافة إلى معاناة المواطنين من انقطاعاتها المتكررة، كيف يمكن الحديث عن تنمية اقتصادية ـ اجتماعية في ظل هكذا أوضاع متردية تمر بها الطاقة الكهربائية؟ هذا إن دل على شيء فهو يدل على غياب التخطيط والرؤية المستقبلية لدى جميع الحكومات المتعاقبة، التي قامت على نهج المحاصصة الطائفية ـ الإثنية الذي مهد الطريق وكرسه لاقتسام مواقع الدولة وموارد البلد وتعمق مظاهر الفساد، فيما بقي ملايين المواطنين يواجهون شظف العيش والحرمان والمعاناة.

أما مشكلة السكن التي تتفاقم مع استمرار النمو السكاني، وما يرتبط بها من سكن عشوائي امتد في جميع المحافظات، فهي تفاقم معاناة شرائح واسعة من المواطنين، وعلى الرغم من تنفيذ بعض المشاريع السكنية ـ التي نفذ قسما منها القطاع العقاري الخاص ـ، لكنها لا تتوفر دائما على مواصفات البناء السليمة، وتبقى عاجزة عن حل أزمة بهذه السعة. أما توزيع أراضي الدولة لبناء المساكن فيجري بصورة انتقائية وبعيدا عن عدالة التوزيع وموجباته دون النظر إلى من هم بحاجة فعلية إليها.

مقالات

شفرة البقاء الحضاري: ديالكتيك الانتخاب الثقافي وبيولوجيا الاستعصاء العربي

د. محمد الربيعي
بروفيسور متمرس، جامعة دبلن UCD

نحو سوسيوبيولوجيا التحول الحضاري

منذ ان طرح ريتشارد دوكينز مفهوم "الميم" (Meme) كقرين ثقافي للجين البيولوجي، انفتح افق جديد لفهم التاريخ البشري ليس كصراع ارادات سياسية فحسب، بل كعملية تطورية كبرى تخضع لقوانين الانتخاب الطبيعي. أن السؤال الجوهري "لماذا نجح الغرب وفشل العرب؟" يتطلب منا الكف عن تكرار الاجابات التقليدية التي تلوم الظروف الخارجية او التآمر الكوني، والنفوذ بدلا من ذلك الى "مختبر التطور الثقافي" لفهم كيف تبرمج المجتمعات نفسها للبقاء او الفناء. إن التفوق الحضاري ليس صدفة تاريخية، بل هو انعكاس لقدرة "المجتمع" ككائن حي على التكيف مع البيئة وتحويل الضغوط الخارجية الى طفرات ارتقائية.

تأتي هذه الدراسة كحلقة مفصلية تُبنى على ركيزتين نظريتين قدمتهما في دراساتي السابقة، الاولى هي "الجين الاناني وصراع البقاء: قراءة خوارزمية في الصراع الامريكي الايراني"، والتي فككتُ فيها كيف تتحول النظم السياسية الى "آلات بقاء" تدار بخوارزميات ايديولوجية وعصبية. والثانية هي "في بيولوجيا الاستعصاء: قراءة في الشفرة الوراثية للنظام السياسي"، والتي حللتُ من خلالها حالة "الشلل الحيوي المبرمج" الذي يصيب الانظمة السياسية حين تفشل في التجدد وتتحول الى كائنات طفيلية تعيش على استنزاف "الوقود الحيوي" لشعوبها. اننا اليوم لا نبحث في السياسة بمعناها التقليدي، بل في "السوسيوبايولوجيا" (Sociobiology)، حيث المجتمعات هي كيانات حيوية تتنافس في بيئة كونية لا ترحم الضعفاء.

إن الفجوة بين الغرب والعرب ليست فجوة في "الذكاء الجيني" الفردي، فالعرب جينيا لا يختلفون عن غيرهم، بل هي فجوة في "الهندسة الميمية"، اي في نوعية البرمجيات الثقافية التي تدير العقل الجمعي. وبينما استطاع الغرب بناء "ديالكتيك تطوري"

يغربل الافكار الفاشلة ويبقي على الارقى، سقط الواقع العربي في فخ "الانانية الجينية الضيقة" التي تعلي من شأن القبيلة والطائفة على حساب المؤسسة والدولة. هذا البحث يسعى لدمج "خوارزمية الصراع" بـ "بيولوجيا الاستعصاء" لتقديم اجابة علمية وفلسفية حول مسببات الانكسار الحضاري العربي مقابل الانتصار الخوارزمي الغربي، معتبرا ان الخروج من الدائرة المغلقة يتطلب "طفرة ارادية" تعيد برمجة الشفرة الوراثية للنظام السياسي العربي برمته.

أولا: الخوارزمية الجينية والولاء الضيق (فخ اصطفاء القرابة)

في كتابه الثوري "الجين الاناني" (1976)، اوضح ريتشارد دوكينز ان الكائنات الحية ليست سوى "الات بقاء" صممتها الجينات لضمان انتقالها عبر الاجيال. ومن اهم استراتيجيات البقاء ما يُعرف بـ "اصطفاء القرابة" (Kin Selection)، حيث يضحي الفرد بصالحه الشخصي لصالح الاقارب لضمان بقاء الشفرة الجينية المشتركة. بيولوجيا، كلما زادت درجة القربى، زاد الاستعداد للتضحية، وهي خوارزمية تضمن استمرار "النوع الضيق".

هنا نجد الجذر البيولوجي العميق للفشل العربي في بناء الدولة الحديثة مقارنة بالنجاح الغربي. المجتمع العربي ظل مبرمجا تاريخيا على "خوارزمية القرابة"، حيث يُنظر الى القبيلة او الطائفة بوصفها "الحاضنة الجينية" الوحيدة الجديرة بالثقة. في بيئة الصحراء القاسية قديما، كان هذا السلوك "استراتيجية تطورية مستقرة" (Evolutionary Stable Strategy - ESS)، ففي غياب القانون المركزي، كانت العصبية القبلية هي "الغلاف الحيوي" الذي يحمي الفرد من الفناء. ولعل التاريخ الاموي والعباسي يقدم لنا امثلة ساطعة على هذا الانحباس، فبمجرد استتباب السلطة، كانت "النزعة الجينية" تدفع الحاكم لتمكين عشيرته (الاقربون اولى بالمعروف الجيني)، وهو ما كان يؤدي دوريا الى تآكل شرعية الدولة وظهور "خوارزمية مضادة" من قبيلة اخرى تطيح بها، في دورة خلدونية لا تنتهي من الصعود والانهيار.

لكن في عصر الدولة الحديثة، تحول هذا الولاء الجيني من "درع بقاء" الى "فيروس بنيوي". فبينما نجح الغرب، وتحديدا منذ "ثورة الاصلاح" و"عصر الانوار"، في لجم "انانية الجين" عبر ابتكار ميمات (Memes) تتجاوز رابطة الدم - مثل ميم "المواطنة" التي تفرض التعاون بين الغرباء - ظل العقل العربي حبيس "خوارزمية الصحراء". لقد صارت المحسوبية في النظم العربية ليست مجرد خلل اداري يمكن اصلاحه، بل هي "نزعة غريزية" تبرمج الكائن الحزبي او القبلي على اعتبار مؤسسات الدولة مجرد "موارد غذائية" لتمويل خلايا القربى.

تاريخيا، يمكننا مقارنة هذا بالتحول في اوروبا القروسطية، حيث كانت الاقطاعيات تقوم على روابط تشبه الولاءات القبلية، لكن ظهور "المدينة" و"النقابات المهنية" خلق تشابكات عصبية جديدة قائمة على "المصلحة الخوارزمية" لا "القرابة البيولوجية". اما في الواقع العربي المعاصر، فقد راينا كيف انهار "الجيش" و"المؤسسة" في دول عديدة عند اول اختبار سيادي، لان الشفرة الوراثية لتلك المؤسسات لم تكن "وطنية"، بل كانت مصممة لحماية "نواة جينية" محددة (اسرة، قبيلة، او طائفة). ان هذا الانحباس

الجيني يفسر لماذا تظل الدولة العربية ''هيكلا ميكانيكيا'' هشا يفتقر الى ''الروح المؤسسية''، فالمحرك الحقيقي لا يزال يعمل بوقود ''اصطفاء القرابة''، مما يمنع تحول المجتمع الى كائن حي متكامل قادر على التكيف مع متطلبات البقاء العالمي.

ثانيا: الانتخاب الثقافي الموجه.. كيف طورت "الميمات" الغربية تفوقها؟

يعمل الانتخاب الثقافي بآلية تتماهى مع الانتخاب الطبيعي، فالأفكار او ''الميمات'' التي تمنح المجتمع قدرة اعلى على التكيف واستخلاص الموارد والانتاج، هي التي يكتب لها البقاء والانتشار. ان نجاح مجتمع ما ليس نتاجا لصدفة جغرافية فحسب، بل هو حصيلة ''تراكم ميمي'' ادى الى تطوير خوارزميات تعاونية فائقة.

• في الغرب: طفرة ''التعاون الخوارزمي'' العابر للدم، حدثت في الغرب ''طفرة ميمية'' تاريخية غيرت مسار التطور البشري، تمثلت في القدرة على ''الايثار تجاه غير الاقارب'' (Altruism towards non-kin). تاريخيا، بدا هذا التحول بوضوح مع نشوء ''المدن المستقلة'' في ايطاليا وعصر النهضة، ثم تكرس مع ميمات ''الثورة الصناعية''. لقد طور الغرب وحدات معلوماتية ثقافية مثل ''سيادة القانون''، ''العقد الاجتماعي''، و''الفردانية المؤسسية''، وهي ميمات سمحت لآلاف الافراد الذين لا تربطهم اي صلة دم او قبيلة بالعمل معا بانسجام فائق. لننظر مثلا الى نشوء ''شركة الهند الشرقية'' ككائن ميمي، لقد كانت ''خوارزمية'' سمحت بتجميع رؤوس اموال ومجهودات بشرية من الاف الغرباء لتحقيق هدف عابر للقارات. هذا ''التعاون الخوارزمي'' خلق كيانات (شركات مساهمة، جيوش نظامية خاضعة للدولة لا للقائد، جامعات بحثية) تتفوق بيولوجيا وتنظيميا على ''الكيانات القبلية'' التي تظل رهينة ''حجم العشيرة''. لقد انحاز الانتخاب الثقافي الغربي للميمات التي تقدس ''الكفاءة'' (Meritocracy) والمنهج العلمي، لانها وفرت ''بيئة معلوماتية'' تسمح بتصحيح الاخطاء بسرعة، مما منع حدوث الاستعصاء وضمن استمرار تدفق الطاقة والحيوية في جسد الدولة.

• في الواقع العربي: فخ ''الانتخاب السلبي'' والميمات الطفيلية في المقابل، تعرضت الميمات في الفضاء العربي لعملية ''انتخاب سلبي'' مدمرة. فبدلا من تشجيع ميمات الابتكار والنقد التي تتطلب ''طفرات فكرية'' قد تهدد استقرار النظام القائم، جرى تاريخيا انتخاب الميمات التي تضمن ''الاستقرار الساكن'' (Static Stability) ميمات مثل ''القدرية المطلقة'' و''تمجيد السلف'' و''السمع والطاعة المطلقة لولي الامر''، تم انتخابها لانها تخدم بقاء ''النخبة الحاكمة'' (الخلية المركزية) على حساب تطور ''الجسد الاجتماعي'' الكلي. تاريخيا، نجد هذا بوضوح في ''عصر الانحطاط'' وما تلاه، حيث تم اغلاق باب الاجتهاد (وهو ميم تطوري بامتياز) واستبداله بميمات ''التقليد''. هذه الميمات هي في جوهرها ''ميمات طُفيلية''، فهي تحمي ''هوية الكائن'' في الامد القريب وتمنحه شعورا زائفا بالأمان، لكنها تستهلك طاقة المجتمع الحيوية في صراعات حول ''تعريف الماضي'' بدلا من ''صناعة المستقبل''. المجتمع الذي يقدس الماضي يبرمج نفسه على العيش في ''بيئة

ميتة" معلوماتيا، مما يجعله عاجزا عن قراءة الخوارزميات المستقبلية المتسارعة (الذكاء الاصطناعي، الهندسة الوراثية، الاقتصاد الرقمي). هذا الانتخاب السلبي حول الثقافة العربية من "محرك نمو" الى "كيس رمل" يعيق الحركة التطورية، ويجعل الكائن العربي في حالة "دفاع مستميت" عن شفرة قديمة لم تعد صالحة للبقاء في بيئة كونية تقوم على "الافتراس التكنولوجي".

ثالثا: بيولوجيا الاستعصاء.. عندما يتحجر النظام الدفاعي

يشير مفهوم "بيولوجيا الاستعصاء" الى الحالة التي يصبح فيها النظام الحيوي (سواء كان خلية او عضوا او مجتمعا كليا) غير قادر على الاستجابة للمؤثرات الخارجية او التكيف مع المتغيرات البيئية، ليس بسبب نقص الموارد، بل بسبب "تحجر" الياته الدفاعية وتحولها الى عائق وظيفي. في البيولوجيا، نجد هذا بوضوح في الخلايا التي تصاب بـ "الشيخوخة الخلوية" (Senescence) ، فهي تتوقف عن الانقسام والتجدد كآلية دفاعية لمنع السرطان، لكنها تظل حية تفرز مواد تسبب الالتهاب وتمنع تجدد الانسجة المحيطة، مما يؤدي في النهاية الى فشل العضو ككل.

لقد اصيب العقل الجمعي العربي بحالة مشابهة من "التصلب الحضاري". فبينما يعتمد الغرب مبدأ "الانتخاب الطبيعي للافكار" - حيث تُعامل النظريات العلمية والانظمة الاقتصادية والسياسية ككائنات حية تخضع للاختبار، فتموت الافكار الضعيفة وتفسح المجال للأقوى (كما حدث في الانتقال من الميكانيكا الكلاسيكية الى الكوانتوم، او من الاقطاع الى الرأسمالية) - اختار النظام العربي "الانغلاق الدفاعي" لحماية شفرته الثقافية من "التلوث الخارجي" او "الغزو الميمي".

تاريخيا، يبرز مثال "الاستعصاء التقني" في الدولة العثمانية (كحاضنة للمجتمعات العربية آنذاك) حين رُفضت المطبعة في بداياتها بذريعة حماية "قدسية الخط والنص". هذا القرار لم يكن مجرد موقف ديني، بل كان "استعصاءً بيولوجيا" لنظام يخشى ان تؤدي "طفرة المعلومات" الى تفكيك تشابكاته العصبية التقليدية. وبالمقارنة، نجد ان اليابان في عصر "ميجي" واجهت ذات التحدي، لكنها اختارت "التلقيح الميمي"، فأخذت خوارزميات الغرب التقنية مع الحفاظ على نواتها الثقافية، مما جنبها الاستعصاء.

ان الاستعصاء العربي المعاصر يتجلى في "شلل حيوي" يشبه تماما الانسجة التي ترفض قبول "زرع اعضاء" جديدة، فالمجتمع يرفض "تحديث برمجياته" الفكرية والسياسية (مثل المواطنة، النقد الذاتي، المنهج التجريبي) خوفا من فقدان "اصالته" او "هويته الجينية". والنتيجة هي كائن حضاري يعاني من "الجمود التطوري"، فهو عاجز عن المنافسة في بيئة كونية لا تعترف الا بالأصلح والاسرع في معالجة البيانات.

ان هذا الاستعصاء ليس خللا في "الذكاء الفردي" للعرب، فالأفراد العرب يحققون نجاحات باهرة حين ينتقلون الى "بيئات ميمية" محفزة في الغرب، بل هو خلل في "الجينوم الثقافي الجمعي" الذي برمج نفسه على "المقاومة السلبية" لكل ما هو جديد. ان النظام العربي اليوم يتصرف ككائن يفضل الانتحار البطيء عبر العزلة والماضوية،

على مخاطرة "التطفر" والتحول نحو الحداثة. انه "موت وظيفي" في قلب الحياة، حيث تظل الهياكل السياسية والاجتماعية قائمة كأصداف فارغة، بينما فَقَدَ المحتوى الحيوي قدرته على التفاعل مع "شفرات المستقبل" الرقمية والبيوتكنولوجية.

رابعا: الديالكتيك الهيغلي كمحرك مكسور وصراع الترجمة العصبية

يعمل الديالكتيك (الاطروحة ونقيضها ثم التركيب) في الفلسفة التاريخية كالمحرك التطوري الذي يدفع الحضارات نحو الامام. في المنظور الغربي، الصراع الديالكتيكي ليس "معركة فناء" بيولوجية، بل هو "عملية تنقيح ميمية"، فكل نظام يولد نقيضه، ومن اصطدامهما يولد "تركيب " (Synthesis) ارقى واكثر تعقيدا وقدرة على حل المشكلات.

• في الغرب: الديالكتيك كآلية ارتقاء، تاريخيا، نجد هذا بوضوح في تطور الدولة الاوروبية، حيث ادى الصراع المرير بين "اطروحة الملكية المطلقة" و"نقيضها البرجوازي التحرري" الى انتاج "تركيب الديمقراطية الدستورية". هذا التفاعل يمنع الجمود الوظيفي ويضمن تحديث "البرمجيات السياسية" باستمرار عبر عملية انتخاب طبيعي للأفكار. النظام الغربي هنا يشبه الكائن الحي الذي يمتلك "جهازا عصبيا مرنا" يسمح بدمج المتناقضات لتحقيق استقرار ديناميكي جديد.

• في الفضاء العربي: سحق النقيض والشلل التطوري، اما في الفضاء العربي، فقد تعطل هذا المحرك بشكل بنيوي ومزمن. فبدلا من التفاعل مع "النقيض" (سواء كان معارضة سياسية، فكرا تنويريا، او حتى قيم الحداثة الوافدة)، تلجأ الانظمة السياسية والاجتماعية الى "سحق النقيض" بيولوجيا واقصائه ميميا. هذا السحق يمنع ولادة اي "تركيب" جديد، مما يبقي المجتمع العربي في حالة "اطروحة ابدية" متصلبة (Stagnant Thesis) ترفض التطور. تاريخيا، رأينا كيف تم سحق حركات النهضة والاصلاح في مهدها، ما ادى الى غياب الوسطية السياسية ونشوء صراعات صفرية بدلا من التدافع الخلاق. ان تعطيل الديالكتيك هو في جوهره "انتحار حضاري مبرمج" يحرم المجتمع من اهم ادوات التكيف مع الزمن.

• صراع الترجمة العصبية والفجوة الميمية، هنا يبرز بُعد اكثر عمقا وهو "التشابكات العصبية الجمعية". فعندما ينتقل ميم سياسي غربي (كالديمقراطية او العلمانية) نحو الشرق، فانه لا يُنسخ كملف رقمي نظيف، بل يصطدم بـ "بنية تحتية عصبية" تشكلت عبر الاف السنين من القيم الروحية، والولاءات القبلية، والتراتبية الابوية. هذا التصادم يؤدي الى ما اسميه "الترجمة العصبية المتباينة"، فما يراه العقل الغربي (المبرمج على الفردانية) كـ "تحرر واستقلال"، تترجمه التشابكات العصبية في الشرق (المبرمجة على اللحمة الجمعية) كـ "تفكك بنيوي" وتهديد للوجود الحيوي للمجتمع.

الصراع العربي - الغربي، اذن، ليس مجرد خلاف على الحدود او الموارد، بل هو صراع بين "خوارزميتين ذهنيتين" مختلفتين تماما. العقل العربي يعيد تفسير الواقع بناءً على "توصيلات عصبية" تقدس الثبات والاصالة، بينما العقل الغربي يندفع خلف خوارزمية التجاوز والتغيير. هذا التباين البيولوجي-الثقافي يجعل الحوار الدبلوماسي

والسياسي مجرد "ضجيج لغوي" (Linguistic Noise) يطفو فوق فجوة عميقة من عدم الفهم المتبادل. اننا امام "نُظم تشغيل" (Operating Systems) غير متوافقة، فالديمقراطية حين تُحقن في "نظام تشغيل قبلي"، تتحول الى "ديمقراطية مكونات" او "محاصصة طائفية" (كما راينا في تجارب العراق ولبنان)، وهي ترجمة مشوهة تخدم "بيولوجيا الاستعصاء" بدلا من ان تكون محركا للتغيير.

خامسا: التمثيل الغذائي للدولة وآليات "الاستتباب" (بين المحاصصة والدكتاتورية)

اذا نظرنا الى الدولة ككائن حي معقد (Superorganism)، فان الاقتصاد والوزارات والدوائر الخدمية تمثل "التمثيل الغذائي" (Metabolism)، تلك العملية الحيوية التي تقوم بتحويل الموارد الخام والجهد البشري الى طاقة تضمن نمو الخلايا وتجدد الانسجة وحماية الجسد الكلي من الفناء. هنا يكمن الفارق الجوهري في "كيمياء السلطة" بين الغرب والواقع العربي.

• في الغرب: التمثيل الغذائي لنمو الجسد الكلي، في النظم الغربية الناجحة، صُممت خوارزمية التمثيل الغذائي لخدمة "الجسد الكلي" للدولة (الاقتصاد الوطني). الضرائب والاستثمارات والناتج المحلي الاجمالي تعمل كدورة دموية متكاملة تغذي "الاطراف" (المواطنين) و"المركز" (المؤسسات) بشكل متوازن. هذا النظام يدرك بيولوجيا ان مرض العضو الصغير يهدد حياة الكائن الكبير، لذا تعمل القوانين كـ "انزيمات" تسرع تحويل الموارد الى "نمو حقيقي" يرفع القدرة التنافسية للدولة في بيئة الانتخاب الطبيعي الدولي.

• في الواقع العربي: طفيلية التغذية وفخ "الاستتباب"، اما في الواقع العربي، فقد انحرف التمثيل الغذائي عن مساره الطبيعي ليتحول الى نظام تغذية انتقائي يخدم "النواة الحاكمة" او "خلايا القوة" فقط، وهو ما يتجلى في نمطين بيولوجيين:

1. نمط المحاصصة (الاستتباب التعددي الطفيلي): كما في العراق ولبنان، حيث يتحول التمثيل الغذائي الى عملية "امتصاص طفيلي" موزعة بين احزاب وطوائف تتصارع على "كعكة الموارد". هنا تعمل المحاصصة كآلية "استتباب حيوي" (Homeostasis) ضرورية للحفاظ على توازن هش يمنع انهيار النظام الحزبي الاناني، لكنه يؤدي لضمور الجسد الوطني.

2. نمط الدكتاتورية (الاستتباب المركزي الاستبدادي): وهو النمط السائد في اغلب الدول العربية، حيث تسيطر "خلية مركزية واحدة" (الحاكم الفرد او النخبة الضيقة) على قنوات التمثيل الغذائي بالكامل. في هذا النموذج، تُسخّر طاقة الدولة بالكامل لنمو "الرأس" وحمايته، بينما تُترك بقية "الاعضاء" (الشعب والمؤسسات) في حالة هزيلة. الاستتباب هنا يُحفظ عبر "القمع الحيوي" لكل من يحاول استهلاك طاقة النظام خارج ارادة المركز.

• خيار "السكون" (Dormancy) واستراتيجية البقاء في كلا النموذجين، يبرز مفهوم "الاستتباب الحيوي"، وهو ميل الكائن للحفاظ على استقراره الداخلي ضد التغيير. اي محاولة للإصلاح او "تطهير" التمثيل الغذائي من الفساد تُعامل من قبل "خلايا

السلطة" (سواء كانت احزابا او حاشية دكتاتور) كـ "فيروس" يهدد امن الكائن الحاكم، فتقوم "المناعة السلطوية" باستنفار ادواتها القمعية لطرده.

نتيجة لهذا الاستعصاء، يفضل النظام العربي (بنوعيه) حالة "السكون" او "البيات الشتوي"، وهي استراتيجية بيولوجية لتقليل استهلاك الطاقة وتجنب مخاطر التطور والتحول. تكتفي الانظمة بتقديم "الحد الادنى" من الغذاء الخدمي لإبقاء المجتمع على حافة البقاء، دون الوصول لمرحلة "الازدهار" التي قد تؤدي لوعي سياسي يفكك خوارزمية السيطرة (سواء كانت محاصصة او حكما فرديا).

• التداعيات التاريخية لبيولوجيا الاستعصاء، تاريخيا، ادى هذا "التمثيل الغذائي المشوه" الى تضخم هائل في "الانسجة الطفيلية" (البيروقراطية الولائية او الاجهزة الامنية لحماية الحاكم او المحاصصة الحزبية) مقابل ضمور في "الانسجة الحيوية" (الصناعة والبحث العلمي والتعليم). ان هذا الانحباس داخل آلية "الاستتباب الانانية" يجعل الكائن الوطني العربي عاجزا عن الحركة في الساحة الدولية، مكتفيا بتدوير الفشل الداخلي لضمان بقاء "النواة الحاكمة" حية، حتى لو كان الثمن هو "الموت السريري" للدولة ككيان حضاري فاعل.

سادسا: الاستثمار الابوي الجيوسياسي وحرب "المصدات الخوارزمية"

في البيولوجيا التطورية، تُعد استراتيجية "الاستثمار الابوي" (Parental Investment) من اكثر العمليات تكلفة وحسمًا، حيث يضحي الكائن الحي بجزء كبير من موارده وطاقته ووقت بقائه الشخصي لحماية "الابناء" الذين يحملون شفرته الجينية. الهدف البيولوجي ليس رفاهية الابن بحد ذاته، بل ضمان امتداد "الجينوم" في المستقبل. في الساحة الجيوسياسية، يتجلى هذا المبدأ بوضوح في "حروب الوكالة" (Proxy Wars)، حيث تعيد القوى الكبرى انتاج هذه الاستراتيجية لضمان بقائها السيادي.

• الخوارزمية الدفاعية: الوكيل كـ "جهاز مناعي" خارجي، تستثمر القوى الكبرى (سواء كانت غربية او اقليمية مهيمنة) في اطراف خارجية وتحولها الى "مصدات خوارزمية". هذه الاطراف (الدول الوكيلة او الميليشيات) تعمل بيولوجيا كـ "اجهزة مناعية" متقدمة او "خلايا تضحية" (Sacrificial cells) تُوضع في الخطوط الامامية لتلقي الصدمات وتشتيت الهجمات عن "الجسد المركزي" للنظام السيادي الام. تاريخيا، كانت هذه الاستراتيجية واضحة في صراعات الحرب الباردة، حيث كانت الاراضي العربية والافريقية والاسيوية "مختبرات حيوية" لتجربة الاسلحة والايديولوجيات، بينما ظل "النخاع الشوكي" للقطبين (واشنطن وموسكو) في امان تام بعيدا عن النزيف المباشر. وفي المشهد المعاصر، تبرز الولايات المتحدة كمصمم الهيكلية الأبرز لهذا النظام، حيث تُموضع حلفاءها ووكلاءها كـ 'بروتوكولات حماية' نشطة، تضمن بقاء التهديدات الحيوية والاضطرابات الجيوسياسية في حالة 'حجر صحي' بعيداً عن القارة الأمريكية، مما يسمح للمركز بالتحكم في التوازنات العالمية عبر 'التحكم عن بُعد' دون الاضطرار لاستنزاف أنسجته السيادية في مواجهات مباشرة.

• المأساة العربية: من "الكائن السيادي" الى

"الخلية الطرفية" تكمن المعضلة الكبرى في الواقع العربي المعاصر في تحول العديد من دول المنطقة من "كائنات سيادية" تمتلك قرارها الحيوي، الى "خلايا طرفية" (Peripheral cells) في اجساد امبراطورية غريبة. في هذا الوضع، تتم برمجة "الخوارزمية الوطنية" لهذه الدول لتعمل كـ "خادم" لضمان سلامة "الجينوم الاكبر" للقوى المهيمنة. تاريخيا، رأينا كيف تُستنزف الموارد العربية (النفط، الموقع الجغرافي، الكثافة البشرية) لا لبناء "تمثيل غذائي" وطني قوي، بل لتعزيز "المصدات" التي تحمي مصالح الاخرين. هذا النوع من العلاقة البيولوجية يسمى "التطفل الاجباري"، حيث يعتمد الكائن المحلي (الدولة الوكيلة) في بقائه المالي او العسكري على "العائل" (Host) الخارجي.

• ارتهان الجينوم السياسي وفقدان "الارادة التطورية" هذا الاستثمار الابوي الخارجي يجعل القرار العربي "مرهونا خوارزميا" بتوافق الجينومات الكبرى خارج الحدود. بيولوجيا، لا يمكن لهذه "الخلايا الطرفية" ان تتخذ قرارا مصيريا (مثل اجراء طفرة تنموية مستقلة او تغيير التحالفات) يتصادم مع ارادة "العائل" الذي يوفر لها الحماية الامنية او "المصل الحزبي" للبقاء. ان النتيجة الحتمية لهذا الارتهان هي "العقم التطوري" للدولة العربية، فهي تظل في حالة "استعصاء" تمنعها من تطوير جهازها المناعي الخاص، وتجعلها في حالة تأهب دائم لحروب ليست حروبها، وصراعات لا تخدم "شفرتها الوراثية الوطنية". ان كسر هذه التبعية يتطلب "انفصالا بيولوجيا" مؤلما، يبدا من استعادة السيطرة على "التمثيل الغذائي الوطني" وبناء مصدات ذاتية تنبع من المصالح المشتركة للمجتمع، لا من "خوارزميات الافتراس" الدولية التي لا ترى في المنطقة سوى "مساحة حيوية" للتضحية.

سابعا: البحث عن الحصانة.. "الجين النووي" وهندسة المستقبل

في الطبيعة، تتصارع الكائنات الحية والجينات على الموارد المحدودة (الغذاء، المساحة، الطاقة) لضمان الاستمرار. وفي الغابة الجيوسياسية، لا يختلف الامر، فالأنظمة السياسية تتصارع على "المواد الاولية" والاسواق والنفوذ. وفي قلب هذا الصراع، يبرز السعي نحو "التكنولوجيا النووية" والسيادة التقنية الفائقة كأهم "طفرة وراثية" (Genetic Mutation) منشودة في تاريخ الامم الحديث.

• الحصانة النووية: كسر "قانون الافتراس" امتلاك القدرة النووية او السيادة التقنية العميقة يمثل في "البيولوجيا السياسية" امتلاك "حصانة مطلقة ضد الافتراس". في عالم الحيوان، تمتلك بعض الكائنات اليات دفاعية (مثل السموم القاتلة او الدروع الحصينة) تجعل افتراسها مغامرة انتحارية للمفترس، وبالمثل، فان "الجين النووي" يمنح الدولة "درعا حيويا" يخرجها من دائرة الكائنات التي يمكن استئصالها او تغيير نظامها الحيوي بالقوة الغاشمة. انها "طفرة" تنقل الدولة من مرتبة "الفريسة المحتملة" الى مرتبة "الكائن المحصن" الذي يمتلك حق الفيتو الوجودي.

• الاحتكار الغربي و"منع التطفر" العربي، الغرب يدرك، بخبرته التطورية الطويلة، ان اكتمال هذه الطفرة لدى العرب او ايران او غيرهم سيغير "قواعد التطور" الدولية

للابد. فامتلاك التكنولوجيا النووية والبحث العلمي المتقدم ليس مجرد اضافة تقنية، بل هو ''اعادة برمجة'' لالة البقاء المحلية تجعلها غير قابلة للاستئصال. لذا، نجد ان الصراع العالمي على الملفات العلمية والنووية في المنطقة العربية والشرق الاوسط ليس صراعا قانونيا او اخلاقيا كما تدعي ''القشرة اللغوية'' للدبلوماسية الدولية، بل هو صراع بيولوجي صرف على ''حق امتلاك ادوات الحصانة''.

تاريخيا، رأينا كيف يتم اجهاض اي محاولة عربية لامتلاك ''الجينوم التقني''، عبر تدمير المفاعلات (كما حدث لمفاعل تموز بالعراق). الهدف هو الحفاظ على الحالة العربية في طور ''الكائن الضعيف مناعيا''، الذي يظل معتمدا على ''المضادات الحيوية'' الغربية (السلاح، الدواء، التكنولوجيا الجاهزة) دون ان يمتلك القدرة على تصنيعها ذاتيا.

• شريعة الغاب والقشرة اللغوية، هذا الواقع يكرس نظاما دوليا قائما على ''شريعة غاب خوارزمية''، حيث تُستخدم مصطلحات مثل ''منع الانتشار'' او ''الشرعية الدولية'' كأدوات كبح ميمية لمنع الشعوب الاخرى من تحقيق ''قفزتها التطورية''. ان ''الجين النووي'' هو الضمانة الوحيدة للانتقال من مرحلة ''الاستعصاء'' الى مرحلة ''السيادة الحيوية''. ومن هنا، فان معركة المستقبل العربي ليست في اروقة السياسة فحسب، بل في مختبرات الابحاث العلمية، فالعلم هو ''الحامض النووي'' للقوة، وبدونه سيظل الكائن العربي عرضة لـ ''التحلل الحضاري'' او الافتراس من قبل الانظمة التي نجحت في تحصين شفرتها الوراثية بكل ادوات الفتك والمنع.

ثامنا: الخداع البيولوجي والذكاء الاصطناعي للصراع الحديث

في الطبيعة، يُعد الخداع استراتيجية تطورية اصيلة لضمان البقاء، فالعديد من الكائنات تستخدم ''التنكر'' (Camouflage) او ''المحاكاة'' (Mimicry) لتضليل المفترسات او للإيقاع بالفرائس. بعض الفيروسات، على سبيل المثال، تمتلك قدرة فائقة على تغيير ''غلافها البروتيني'' لتبدو كخلايا صديقة، مما يسمح لها باختراق الجهاز المناعي دون اثارة اي استجابة دفاعية.

• الذكاء الاصطناعي كـ ''طفرة'' في الخداع الحيوي في العصر الحديث، انتقل هذا الخداع من المستوى البيولوجي الصرف الى المستوى السيبراني والمعلوماتي الفائق. لقد طور الغرب ''خوارزميات ذكاء اصطناعي'' تعمل كـ ''مجسات حيوية'' قادرة على قراءة الخريطة النفسية والعصبية للمجتمعات العربية. المعلومات المضللة (Disinformation) و''التزييف العميق'' (Deepfakes) ليست مجرد ادوات تقنية، بل هي ''سموم حيوية'' (Biotoxins) ميمية تُحقن في ''الجهاز العصبي الجمعي'' للخصم. الهدف هو احداث حالة من ''التوهان الوظيفي''، حيث يفقد المجتمع القدرة على التمييز بين الصديق والعدو، وبين الحقيقة والوهم، مما يؤدي في النهاية الى شل ارادة المقاومة والرد.

• تفكيك المناعة الثقافية عبر ''الاختراق الميمي'' نجح الغرب في استخدام هذه ''السموم الميمية'' لتفكيك المناعة الثقافية للعرب عبر منصات التواصل الاجتماعي التي تعمل كـ ''قنوات حقن وراثي''. تاريخيا، كانت الحروب تعتمد على ''القوة الصلبة''

(الافتراس المباشر)، اما اليوم فالصراع يدور حول "هندسة الوعي". يتم استخدام الذكاء الاصطناعي لإنشاء "فقاعات معلوماتية" تعزز الانقسامات الطائفية والقبلية (العودة لـ "خوارزمية القرابة الضيقة")، مما يمنع تشكل "كتلة حيوية وطنية" موحدة.

بينما يطور الغرب "دفاعات سيبرانية" تشبه الاجهزة المناعية الذكية، ظل العقل العربي في حالة "استعصاء دفاعي تقليدي". نحن لا نزال نحاول مواجهة "الطفرات الرقمية" والذكاء الاصطناعي بأدوات "الحظر والمنع" القديمة، وهي استراتيجية تشبه محاولة ايقاف فيروس متطور بـ "حاجز ميكانيكي" بسيط. هذا العجز عن بناء "حصانة رقمية" ذاتية جعل الفضاء العربي مختبرا مفتوحا لعمليات "التلاعب الجيني الثقافي"، حيث يتم اعادة صياغة الميمات المحلية لتخدم اهداف القوى الكبرى سواء كانت امريكا او الصين او روسيا او غيرها، مما يرسخ حالة "التبعية الحيوية" ويمنع ظهور اي استقلال خوارزمي حقيقي.

• حرب الظل والسيادة المعلوماتية: ان الصراع الحديث هو صراع على "السيادة المعلوماتية". المجتمع الذي لا يمتلك خوارزمياته الخاصة هو مجتمع "مكشوف جينيا"، فبياناته هي "حامضه النووي" المتاح للاستغلال. الغرب نجح في تحويل المعلومة الى "سلاح تطوري" يضمن له البقاء والسيطرة دون الحاجة لأطلاق رصاصة واحدة في كثير من الاحيان. اما العرب، فبسبب "بيولوجيا الاستعصاء" التي تمنعهم من اللحاق بالركب التقني السيادي، ظلوا في مرتبة "المستهلك الحيوي" لهذه السموم، عاجزين عن انتاج "ترياق" رقمي يحمي عقول اجيالهم الناشئة من الاغتراب الحضاري والتبعية الميمية الكاملة او حتى مجرد استخدامها من اجل تطورهم.

الخلاصة: كسر شفرة الاستعصاء ونحو "انفجار كامبري" حضاري

ان النتيجة الجوهرية التي تخلص اليها هذه القراءة السوسيوبيولوجية هي ان التخلف العربي ليس "قَدرا جينيا" مسجلا في الكروموسومات، بل هو نتاج تراكُمي لسيادة "خوارزميات فاشلة" تم انتخابها ثقافيا عبر قرون من الركود. ان النجاح الغربي، كما حللنا، لم يكن نابعا من تفوق اخلاقي مثالي، بل كان انتصارا في "ادارة الانانية" بذكاء مؤسساتي فائق، حيث استطاع الغرب تحويل "الجين الاناني" الفردي الى "محرك جمعي" عبر تحديث الميمات باستمرار، وخلق بيئة "ديالكتيكية" تسمح بتطور الافكار وتغربل النظم الواهنة،

لكي يخرج العرب من زنزانة "بيولوجيا الاستعصاء"، لا بد من القيام بـ "هندسة ميمية" شاملة وجراحية، عملية تهدف الى تحويل طاقة "الانانية الجينية الضيقة" (الولاء للقبيلة والطائفة والعشيرة) الى "تعاون اجتماعي خوارزمي واسع" يتجسد في الدولة والمؤسسة والمواطنة. اننا بحاجة الى "طفرة ارادية" تقطع مع "بيولوجيا السكون" والبيات الشتوي الحضاري، لتنتقل بنا الى "ديالكتيك الحركة" حيث يُسمح للنقيض بالتفاعل وللنقد بالنمو.

ان استبدال ميمات "الخنوع والقدرية وتقديس الماضي" بميمات "النقد العلمي والابتكار والمساءلة" ليس مجرد ترف فكري، بل هو ضرورة بيولوجية للبقاء.

السيادة الحقيقية في القرن الحادي والعشرين - عصر الذكاء الاصطناعي والهندسة الوراثية والحروب السيبرانية - لا تأتي من التغني بأمجاد "الجينوم التاريخي"، بل من بناء "خوارزمية وطنية" مرنة وقادرة على التكيف. ان العالم المعقد الذي نعيشه اليوم لا يعترف بـ "الاقدم" ولا بـ "الاعرق"، بل يمنح حق البقاء لـ "الاكثر ذكاءً" في ادارة شفراته المعلوماتية وحماية اجهزته المناعية الثقافية من الاختراق.

ان كسر شفرة الاستعصاء العربي يتطلب وعيا يتجاوز الشعارات العاطفية، يتطلب فك الارتباط بـ "العوائل" الخارجية التي تستخدمنا كـ "مصدات خوارزمية" او "خلايا تضحية" لضمان بقائها. انها دعوة لاستعادة "التمثيل الغذائي" الوطني، وبناء "حصانة سيادية" (تقنية وعلمية) تخرجنا من دائرة "الافتراس الجيوسياسي".

في الختام، ان الطريق نحو افق جديد يبدا من ادراكنا لكيفية عمل "الآلات السياسية" التي تحاول استهلاكنا كوقود حيوي. ان مستقبل العرب رهين بقدرتهم على احداث "انفجار كامبري" ثقافي، طفرة كبرى تعيد ترتيب "التشابكات العصبية الجمعية" لتتوافق مع منطق العصر، وتعلن نهاية عصر الاستعصاء وبداية عصر "السيادة الخوارزمية" التي تحفظ للذات العربية مكانها اللائق تحت شمس التطور البشري. انها معركة بين "الشفرة القديمة" التي تقود للفناء، و"الشفرة الجديدة" التي تفتح ابواب الحياة.

المصادر

1. محمد الربيعي، الذكاء بين بيولوجيا الوعي وهندسة الأرقام. الطريق الثقافي، 2026.
2. محمد الربيعي، الجين الأناني وصراع البقاء: قراءة خوارزمية في الصراع الأمريكي الإيراني. صحيفة المثقف، 2026.
3. محمد الربيعي، في بيولوجيا الاستعصاء: قراءة في الشفرة الوراثية للنظام السياسي. صحيفة المثقف. 2026.
4. Dawkins, Richard. The Selfish Gene. Oxford University Press, 1976.
5. Wilson, Edward O. Sociobiology: The New Synthesis. Harvard University Press, 1975.
6. Henrich, Joseph. The Secret of Our Success: How Culture Is Driving Human Evolution, Domesticating Our Species, and Making Us Smarter. Princeton University Press, 2015.
7. Acemoglu, Daron & Robinson, James A. Why Nations Fail: The Origins of Power, Prosperity, and Poverty. Crown Business, 2012.
8. Mesoudi, Alex Cultural Evolution: How Darwinian Theory Can Explain Human Culture and Synthesize the Social Sciences. University of Chicago Press, 2011.

العبودية الطوعية من الفلسفة والسياسة الى العلم*

د. ماجد الياسري
طبيب استشاري متقاعد في الصحة النفسية

تقديم

تعني العبودية، في معناها اللغوي والاجتماعي، خضوع الإنسان لإرادة سيده وامتثالَه لأوامره. وقد عرفت مجتمعات كثيرة في آسيا وأفريقيا والأميركيتين أشكالًا متعددة منها. ومن أبرز نماذجها الكلاسيكية ما شهدته روما وأثينا، حيث مثّلت العبودية نمطًا من علاقات الإنتاج في البنية الاجتماعية الاقتصادية القائمة عليها، وانقسم المجتمع إلى طبقتين رئيسيتين: السادة الأحرار والعبيد الذين عُدّوا ملكيةً منقولة للسيد. واتسمت العبودية القهرية بطابع وراثي؛ إذ كان العبيد يُباعون ويُشترون في أسواق النخاسة، ولا ينالون حريتهم غالبًا إلا بالموت، وهو ما يميزها عن السخرة. وفي تلك المجتمعات شكّل العبيد القوة الأساسية المنتجة للثروة، وعملوا على نطاق واسع في الزراعة والتعدين والحرف والخدمة المنزلية. ومع ذلك، اختلف انتشار العبودية من زمن إلى آخر ومن مجتمع إلى آخر. ومنذ ظهورها في الشرق القديم، تعددت صورها؛ فقد يفقد الإنسان حريته عبر نظم مثل القنانة في المجتمعات الإقطاعية، أو بسبب الدين، أو كعقوبة، أو من خلال الخدمة في المعابد الدينية[1].

تجلّت أبشع صور العبودية القهرية وأكثرها انحطاطًا في ممارسات الاستعمار الأميركي والأوروبي منذ القرن السادس عشر، حين اختُطف ملايين الأفارقة من سواحل أفريقيا ونُقلوا بحرًا إلى المستعمرات في ظروف بالغة القسوة، ليُستغلوا في المزارع أو خدمًا في بيوت الأرستقراطية، في ظل عنف جسدي ونفسي شديد الوحشية[2].

ومع ذلك، استمرت العبودية مفهومًا وممارسةً حتى حُظرت في أميركا وأوروبا خلال القرن التاسع عشر، بينما استمرت تجارة الرقيق في البلدان الإسلامية حتى مطلع القرن العشرين[3].

أما العبودية الطوعية، بوصفها مصطلحًا قانونيًا، فتعني دخول الفرد طوعًا في حالة من العبودية وفق شروط محددة. وقد عُرفت هذه الممارسة في عدد من الحضارات القديمة؛ ففي شريعة حمورابي (1754–

1750 ق.م) في بلاد الرافدين، كان يجوز للفرد أن يسترق نفسه لتسديد دين، أو لتحسين الوضع الاقتصادي لأسرته لمدة ثلاث سنوات، أو عقوبةً في بعض الحالات، مثل إهمال مزارع صيانة قناته الإروائية بما يفضي إلى فيضان يتلف محاصيل مجاورة، فيُلزم بتعويض أصحابها من خلال عبوديته. كما وثّقت الألواح الطينية وبعض المراسلات الملكية في بلدان الشرق الأدنى القديم عقودًا يخضع فيها أفراد للعبودية مدةً محددة، وكانت تتضمن عادةً اسم شاهد حيّ على الاتفاق بين الطرفين، وكان هؤلاء يُعرَّفون بقَصّةٍ خاصة لشعر الرأس[4].

إتيان لابويسي والعبودية الطوعية

غير أن مفهوم العبودية الطوعية، كما صاغه إتيان دو لابويسي (1530–1563)، يختلف عن معناه القانوني؛ إذ يندرج في المجال الاجتماعي النفسي. وقد عرضه في رسالة كتبها في القرن السادس عشر، حين كانت فرنسا تخضع لنظام ملكي مستبد يستند إلى فكرة الحق الإلهي ويحظى بدعم الكنيسة، فيما كانت الطبقات الحاكمة تنعم بترف بالغ. وفي المقابل، كان الشعب الفرنسي يعاني الفقر والجهل والجوع وانتشار الأمراض، فضلًا عن الاعتقالات والسجون والتعذيب والزج بالشباب في الحروب الإقليمية والطائفية. وفي تلك المرحلة بدأت ملامح النهضة الفكرية الأوروبية، التي عُرفت لاحقًا بعصر التنوير، بالظهور، وكان لابويسي من أوائل ممثليها بنزعته الإنسانية. وقد قامت هذه الحركة على ترسيخ سيادة العقل والعلوم التجريبية بوصفهما مصدرين للمعرفة، إلى جانب تعزيز قيم الحرية والمساواة والتسامح الديني والعلمانية. ومن رحمها تبلورت الرؤى العقلانية والوضعية التي مهّدت لقيام الدولة الحديثة. وقد رأى الفيلسوف الألماني كانط (1724–1804) أن التنوير هو انتقال الإنسان من حالة القصور العقلي، المتمثلة في التبعية وضعف القدرة على اتخاذ القرار والطاعة العمياء للقادة ورجال الدين، إلى مرحلة النضج وبلوغ الرشد، حيث تتجلى الاستقلالية الفكرية وروح النقد عبر التحليل والنقاش والشك والجدل، تحررًا من قيود الميتافيزيقا واللاهوت وتقديس النصوص[5].

وخلال حياة لابويسي، عرفت فرنسا صراعات سياسية ودينية حادة، كان أبرزها النزاع بين الكاثوليك والهيجونوت (البروتستانت الفرنسيين). إلا أن جوهر هذه الصراعات كان سياسيًا؛ إذ وظّفتها السلطة الملكية لإثارة الفتنة الداخلية وصرف الأنظار عن هزائمها الخارجية وممارساتها القمعية. وفي الوقت نفسه، كانت إرهاصات النهضة تتبلور في فرنسا بوصفها حركة فكرية وثقافية ازدهرت فيها الآداب والفلسفة والسياسة والفنون والعلوم، ومهّدت لأن تصبح فرنسا، بعد قرنين، أحد مراكز النهضة الأوروبية.

وفي خضم هذه الظروف، نشأ لابويسي، المنحدر من أسرة أرستقراطية ميسورة، يتيمًا، وبرز طالبًا متفوقًا في دراسة القانون بجامعة أورليان. وقد تخرّج فيها عام 1553 بامتياز، وكان أصغر من كثير من أقرانه، مما أهّله للحصول على ترخيص ملكي للعمل قاضيًا في مجلس قضاء بوردو. وهناك توثقت صداقته بميشيل إيكيم دي مونتين (1533-1592)، الذي نشر أعماله بعد وفاته المبكرة وهو في الثلاثين من عمره[6].

وبنزعاته الإنسانية واهتماماته الفلسفية، عمل لابويسي على ترسيخ قيم التسامح والحوار، مؤكدًا حق طرفي الصراع الديني في امتلاك كنائسهم وأديارهم وممارسة شعائرهم. غير أن مسعاه إلى جمع الطرفين أخفق، وحذّر من أن استمرار العنف لن يؤدي إلا إلى تعميق العداء ودفع فرنسا إلى حرب أهلية دينية.

وعلى الرغم من حداثة سنّ لابويسي حين كتب رسالته في العبودية الطوعية، بين السادسة عشرة والثامنة عشرة تقريبًا، فقد شخّص فيها ظاهرة خضوع الفرد طوعًا للحاكم المستبد، الذي لا يختلف عنه في الأصل إلا بانتمائه إلى السلالة الحاكمة، وتنازله عن حريته مفضّلًا العبودية على رفض الإذعان والانخراط في التمرد والعصيان دفاعًا عن الحرية. ومن هنا عُدّ لابويسي من أوائل الداعين إلى العصيان المدني والمقاومة اللاعنفية.

وحاول لابويسي في رسالته تحليل ثنائية الاستبداد والإذعان من منظور اجتماعي نفسي. فالملك يحكم، وفق هذا التصور، بتفويض إلهي يُفترض معه خضوع الرعية وطاعتها، فينقسم المجتمع إلى حاكم مستبد ومحكومين يسهمون، بسلوكهم، في إنتاج الاستبداد ذاته. وفي هذا السياق، تُوظَّف الخرافات والطقوس والرموز والسرديات الدينية أدواتٍ للهيمنة والسيطرة النفسية المقبولة اجتماعيًا. وهكذا ينشأ العبد الطوعي بوصفه نتاجًا لمسار طويل من الاضطهاد السياسي والاقتصادي والاجتماعي، حتى تغدو العبودية عادةً وثقافةً ووعيًا مهيمنًا تتناقله الأجيال. وفي ظل هذا الواقع، يتكيّف الفرد مع القهر والإقصاء، وينكمش إلى عالمه الخاص المحدود باهتماماته الأساسية، مثل القوت اليومي والأسرة والطمأنينة الروحية عبر الطقوس والدعاء والتأمل، منتظرًا منقذًا متوهَّمًا يخلّصه من الذنب والإثم، من غير صلة حقيقية بالعدالة أو الأخلاق. وهكذا قد يغدو مؤمنًا بعمق بالسرديات الروحية والدينية، لكنه في الوقت نفسه يسرق ويكذب، ويتغاضى عن ممارسات المستبد اللاأخلاقية والعنيفة ضد المواطنين، بل يدعو إلى العزوف عن السياسة وعدم الانخراط في أي نشاط يهدف إلى تغيير الواقع الاقتصادي والاجتماعي. وهو يخشى مواجهة السلطة، ويتجنب المشاركة السياسية تحت وطأة الخوف والتردد، في مناخ من التضليل تهيمن فيه السلطة على نظم المعلومات، فتنشر ما يخدم مصالحها وتحجب ما يخالفها، بقصد تضليل الوعي وتجهيل العقل. كما تستخدم وسائل متعددة لإشاعة ثقافة الخرافة والأساطير المكسوّة بغطاء روحي، حتى يتحول الحكام إلى رموز مقدسة يُطلب الانصياع الأعمى لها.

وفي هذا السياق، يرى لابويسي أن طريق الخلاص واستعادة الحرية يبدأ ببناء أساس فكري إنساني تنويري يناهض تشكّل ظاهرة المستبد، ويكشف دور المجتمعات في إنتاجها نتيجة جهل المواطنين بذواتهم وواقعهم، وبفعل التعود والاستكانة. ويقارن لابويسي بين النفس المستكينة التي تقبل بالدونية، والذات الواعية بواقعها والرافضة للعبودية من خلال ممارسة الحرية؛ إذ يرى أن الطاغية لا يستعبد المجتمع إلا بالقرارات التي يوافق الناس عليها طوعًا، وباستعدادهم لخدمته بإرادتهم.

ويُعرب لابويسي عن دهشته من أن الناس يمنحون الطاغية هذه القوة، بما فيها القدرة على إيذائهم، ثم يقبلون تبريراته كلها، بل

يحوّلونه إلى رمز مقدّس، ويتغنّون بفضائله، ويدافعون عنه دفاعًا أعمى، ويزكّون ممارساته القمعية، بل ويتصدّون لمعارضيه. ويستنتج أن العنف والقتل لا يحرران العبد الطوعي، لأن خضوعه نابع من ذاته وبقراره؛ فالحرية لا تُستعاد إلا بالعودة إلى الطبيعة البشرية الأصيلة التي تجعل من الفرد فاعلًا ومؤثرًا سياسيًا في عالمه الاجتماعي.

ويشخّص لابويسي ثلاث طرائق لوصول الطغاة إلى السلطة: أولها التوارث، حيث يتعامل الحاكم مع السلطة بوصفها قدرًا وحقًا خاصًا به، ويرى رعاياه مجرد قطيع خاضع. وثانيها الاستيلاء عليها بالسلاح والاحتلال، فيتصرف الطاغية كأنه غازٍ لأرض غريبة، ويعامل الناس كسجناء. أما ثالثها فهو الوصول عبر الانتخابات، إذ قد يتحول الحاكم إلى متغطرس يرى نفسه فوق الجميع، ويستبد به شعور بالعظمة، فيرفض التخلي عن كرسي الحكم الذي منحه له الشعب، ويفضل توريثه لأبنائه وأقاربه، بينما ينظر إلى شعبه باحتقار، بوصفهم مغفلين وجهلة.

ويؤدي تحوّل القائد السياسي الفائز، تحت تأثير نشوة الانتصار، إلى مستبدّ جديد؛ فتغدو الديمقراطية مجرد آلية انتخابية قد تعزّز العبودية الطوعية. وبذلك يشيع الوهم الذي يصنعه الحاكم المنتخب، مدعومًا بأجهزته الإعلامية وحاشيته، بأن الفرد يملك قرارًا ذا مصداقية ويشارك في تحديد ما يجري في البلد، بينما لا تعدو العملية في الواقع أن تكون احتواءً واسعًا للجماهير عبر تجريدهم من القوة، وإشاعة الإذلال والإذعان لهيمنة المال السياسي والسلطة وأذرعها الإعلامية أو المسلحة. ومهما اختلفت أشكال الطغاة وطرائق وصولهم إلى الحكم، فإن العامل المشترك بينهم يظلّ ترسيخ ثقافة العبودية الطوعية وتعميمها، والتضييق على قيم الحرية وحق الاختيار والمساواة، والسعي إلى محوها من عقول رعاياهم وذاكرتهم.

ويُبدي لابويسي استياءه من شيوع العبودية الطوعية واستسلام الناس للخرافات والأوهام، في وقتٍ يسلبهم فيه الحكّام كل ما هو جميل ونقي في حياتهم. وفي المقابل، يرسم للشعب الفرنسي طريق التحرر من المستبد، بدءًا بتقويض الوهم الذي تستند إليه سلطته؛ فالشعب الذي أقامه قادرٌ كذلك على إسقاطه متى أعلن إرادته في الحرية، وانتقل من الخضوع إلى العصيان، وكفّ عن دعمه. وعندئذ ينهار الحكم سريعًا كتمثال من طين، لأن الحرية في متناول الجميع. فالحيوان لا يتخلى عن حريته إلا بعد صراع عنيف، أما الإنسان فقد يفرّط فيها بفعل التعود أو الحاجة أو الخوف أو غياب الوعي. وهذه عدوى تنتقل من حاشية المستبد إلى سائر المجتمع، فتشكّل له جيشًا من المتزلفين والطامعين والعبيد، بفعل الجهل والتربية على الطاعة، لأنهم لم يذوقوا طعم الحرية ولم يدركوا حجم ما فقدوه. ومن دون أن يشعروا، يغدو عدوهم الحقيقي ليس قوةً خارجية، بل بنيةً اجتماعية يصنعها المستبد عبر شبكة من الأتباع والبيروقراطيين، يزيّنون للناس عبوديتهم بالهبات والهدايا والأوسمة، أو يخدعونهم بغطاء الدين واللاهوت، حتى تُنسج حوله معجزات وأكاذيب ليست سوى ثمرة خيال العبيد الطوعيين[7].

بعد هذا العرض الموجز لفكرة العبودية الطوعية، كما صاغها لابويسي قبل خمسة قرون، يبرز شعور بأن هذا التوصيف ما يزال حاضرًا في واقعنا العربي والعراقي.

وهو أيضًا المشهد نفسه الذي حاول عدد من فلاسفة ومفكري القرون اللاحقة في أوروبا مقاربته من زوايا مختلفة.

غير أن ما عُدَّ حقائقَ مطلقة في أوروبا القرن السادس عشر تهاوى مع صعود ثقافات التمرد و الآثار العميقة التي خلّفتها الثورة الفرنسية 1789. وقد كان للشك الديكارتي دورا في تقويض المسلّمات الموروثة وفتح المجال أمام نقدٍ حادّ للسرديات التقليدية، فتكاملت ملامح ثقافة عصر التنوير وبدأت معالم الحداثة تتضح تدريجيًا. وفي هذا السياق برزت رموز فكرية كبرى، مثل فولتير (1694 - 1778) وجان جاك روسو (1712 - 1778)، وأصبحت باريس عاصمةً للثقافة والتنوير في أوروبا، تنافس بريطانيا، ولا سيما في الفكر السياسي والأدب. وفي هولندا برز أيضًا باروخ سبينوزا (1632 - 1677)، الذي تأثر بالديكارتية ونظر فلسفيًا إلى الجسد والعقل بوصفهما جوهرين منفصلين[8].

وظهرت الليبرالية في إنكلترا بوصفها فلسفةً سياسية تؤكد قيم الحرية والمساواة وحق التملك، وترفض شرعية تنصيب الملوك استنادًا إلى الحق الإلهي، داعيةً إلى انتخاب الحكّام بدل توارث السلطة. ويُعدّ جون لوك (1632–1704) أبرز مؤسسيها في القرن السابع عشر، مع مفارقة لافتة تتمثل في أنه كان من كبار المتاجرين بالعبيد في بريطانيا، مع أنه يُنظر إليه بوصفه مؤسس المذهب الليبرالي وأحد أعمدة الفلسفة السياسية الحديثة. ومع أن المدرسة الليبرالية لم تتناول ظاهرة العبودية الطوعية صراحةً، فإنها طرحت النظام الديمقراطي بوصفه وسيلةً للحد من الطغيان والاستبداد، وضمان ممارسة الفرد لحريته عبر التداول السلمي للسلطة والفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية. وفي المقابل، عارضها المفكر الإنكليزي توماس هوبز (1588–1679)، المعروف بدفاعه عن الملكية المطلقة، مع إقراره في الوقت نفسه ببعض أسس الفكر الليبرالي، مثل الحرية والمساواة. وخلاصة رأيه، كما عرضها في كتابه الشهير الليفاثان، أن أمن المجتمع مرهون بوجود حاكم ذي سلطة مطلقة يضع حدًا للصراعات السياسية والمذهبية. ومن الواضح أن فلسفة هوبز تناقض أطروحات لابويسي بشأن أولوية حرية المواطن وحقه في تقرير مصيره في مواجهة واقع القوة والهيمنة الذي يفرضه الاستبداد؛ إذ إن حماية الحرية، في منظور لابويسي، لا تكون من المستبدين وحدهم، بل أيضًا من الإغراءات الداخلية التي تدفع الفرد إلى التخلي عنها[9].

ويرى الفيلسوف الألماني فريدريش نيتشه (1844–1900) في كتابه ولادة المأساة أن الإنسان يلجأ إلى وسائل متعددة لتخفيف قلق الوجود، من أبرزها الدين، الذي يمنحه تفسيرًا زائفًا لواقعه، كأن كل شيء مرسوم سلفًا، فيعفيه من تحمّل تبعات أفعاله. كما توفّر له الطقوس والشعائر والأدعية والتعاويذ العزاء والطمأنينة والأمل والإحساس بالنظام في حياة تتسم بالفوضى واللامبالاة. أما الفلسفة، فيراها نيتشه سبيلًا إلى تحليل العالم وتأمل الذات وتقويمهما، بما يمنح الإنسان فهمًا أعمق لدوره ومكانه في العالم[10].

القرن التاسع عشر وولادة التحولات الفكرية والمعرفية

كان لا بد أن يتغير المشهد السياسي والاجتماعي الأوروبي مع تحولات القرن

التاسع عشر، إذ شهدت أوروبا تبدلات عميقة على المستويات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية أنهت النظم الإقطاعية السائدة. بينما واصلت الليبرالية حضورها بوصفها فلسفةً للنظام السياسي في بعض الدول التي سلكت طريق الانتخابات، لكنها واجهت مدرستين فكريتين برزتا مع تصاعد دور الطبقة العاملة واتساع النشاط الجماهيري، من اعتصامات وإضرابات وعصيان مدني، هما الماركسية والفوضوية. وقد تناولت كلتاهما مفهوم العبودية الطوعية، لكن من منظور مختلف تمامًا.

تميّزت الماركسية عن سائر المدارس الفكرية باعتمادها المنهج المادي الجدلي النقدي، الذي مثّل ماركس وانجلز أبرز رموزه، في تفسير تطور المجتمعات وحركة التاريخ. وترى أن الرأسمالية، بوصفها تشكيلةً اجتماعية اقتصادية، تقوم على بنية طبقية خاصة، وأن تناقضاتها الداخلية ستقود تاريخيًا إلى ثورات اشتراكية تمثل مرحلةً من مراحل التطور التاريخي[11].

لم تتناول الماركسية مفهوم العبودية الطوعية بالمعنى الذي طرحه لابويسي، بل ركزت على أثر الانتماء الطبقي في تشكيل موقف الفرد ووعيه تجاه السلطة؛ فالطبقة العاملة والفئات الكادحة تميل، بحكم موقعها الموضوعي، إلى رفض هيمنة البرجوازية والتمرد عليها، بينما تتأرجح الفئات الوسطى بين المهادنة والتمرد تبعًا لظروفها ومصالحها، فتقع أحيانًا في فخ العبودية الطوعية.

ومن المنظور الماركسي، يتسم النظام الرأسمالي على الصعيد النفسي الاجتماعي بثلاث ظواهر رئيسة: الاغتراب، والصنمية، والتشيؤ. فالاغتراب يعني انفصال الإنسان عن نتاج عمله بسبب الطابع الاستغلالي لعلاقات الإنتاج؛ إذ يتحول ما ينتجه العامل إلى سلع لا يملكها ولا يسيطر عليها، ويُحرم في الوقت نفسه من ثمرة جهده ومن الشروط الكفيلة بتحقيق سعادته ورفاهه ورفاه أسرته، فلا يعود مالكًا فعليًا لطاقته أو لما ينتجه. أما الصنمية، فتعني تحوّل المال والبضائع إلى قوى تتحكم في رغبات الفرد، وتدفعه إلى السعي لاكتنازها طلبًا للذة وتعويضًا عن حاجة نفسية داخلية. وأما التشيؤ، فيقصد به فقدان العلاقات التي تنشأ أثناء عملية الإنتاج طابعها الإنساني، لتغدو مجرد أشياء، ويعيش الفرد عندئذ في عالم تتمركز أحلامه فيه حول الأشياء والمنافع والمصالح[12]. أما سبيل عودة الإنسان إلى طبيعته، فيكمن في النضال من أجل إقامة مجتمع قائم على العدالة والمساواة، يُلغي الفوارق الطبقية، ويحقق العدالة الاجتماعية، ويؤسس لنمط اشتراكي في الإنتاج.

في التحليل الماركسي، تُفهم العبودية الطوعية بوصفها مظهرًا من مظاهر الخضوع والاستكانة في المجتمعات الطبقية، ناتجًا عن ضعف الوعي الطبقي على المستويين الفردي والجمعي. وترى الماركسية أن الوجود مادي في جوهره، ويتجلى في صور متعددة، منها وجود الفرد موضوعًا لعلم النفس، والوجود الاجتماعي موضوعًا للعلوم الاجتماعية والتاريخية. ومن هنا تبرز فكرة الانعكاس، أي التفاعل المتبادل بين وعي الإنسان والعالم الخارجي، وبين الإدراك والنشاط العصبي للدماغ؛ فالإنسان يتكيّف مع العالم المادي ويؤثر فيه في آنٍ واحد، ويظهر ذلك في أفكاره وسلوكه وممارسته. والممارسة، هنا، هي النشاط المادي للإنسان

في العمل والحياة الاجتماعية، وهي عنصر حاسم في تطوره وفي اختبار المعرفة بمدى مطابقتها لقوانين الواقع الموضوعي. أما الإدراك، بما يضمّه من إحساسات وتصورات وأفكار، فهو انعكاس للواقع المادي، وتتعاظم أهميته حين يسهم في فهم العالم وتغييره، سواء عبر العلوم الطبيعية أو عبر الصراع الطبقي. وذهب لينين أبعد من ماركس، فرأى أن الوعي الطبقي، وإن ارتبط بالبنية الاقتصادية، لا ينشأ عفويًا، بل يتكوّن عبر التنظيم والنشاط الثوري. فالتشيؤ والصنمية والاغتراب آليات لإنتاج الطاعة، ولا تُكسر إلا بالممارسة الثورية التي يقودها تنظيم من طراز خاص. فالناس لا يثورون لأنهم يدركون علاقات الاستغلال فحسب، بل لأن السوق والدولة تبدوان في وعيهم قوتين جبارتين لا يمكن تغييرهُما إلا بنضال متعدد الأشكال يقوده حزب قادر على كشف هذه الآليات وتفكيكها. ومن هنا يغدو الحزب الطليعي، عند لينين، أداة لإزالة التشيؤ وردّ العلاقات الاجتماعية إلى حقيقتها، فتتحول الطبقة العاملة من موضوع إلى فاعل. وفي كتابه ما العمل؟ يؤكد لينين حق الإنسان في أن يحلم ويعمل من أجل حياة أفضل عبر المشاركة الفعلية في النضال الثوري، والانخراط في العمل الفكري والسياسي والدعائي والتحريضي لتعميق التنظيم والوعي الطبقي بالاستغلال والعبودية وضرورة الثورة لتغيير البنية الاقتصادية الاجتماعية. وهذا الوعي هو ما ينقل الثورة من العفوية إلى التنظيم، ويوقظ الجماهير من سباتها، أو من حال العبودية الطوعية، لأن الجماهير هي التي تصنع التاريخ أساسًا[13].

أما الفوضوية، فقد نهضت على النقيض من الماركسية، واستثمرت أفكار لابويسي للدعوة إلى إلغاء الدولة بوصفه هدفًا محوريًا في مشروعها التغييري. ويُعدّ ماكس شتيرنر (1806–1856) من أبرز ممثليها؛ وهو فيلسوف ألماني رفض الماركسية والمسيحية والرأسمالية والإنسانية والليبرالية وحق الملكية، لأنها جميعًا، في نظره، تفرض على الفرد سلطاتٍ تعلو عليه. كما انتقد الشيوعية لأنها تنقل الملكية إلى مجتمعٍ متخيَّل لا وجود له في الواقع، ورأى أن الفلسفات الإنسانية تسعى إلى إقامة دين جديد يحلّ فيه البشر محل الله. ويذهب شتيرنر إلى أن الذات الإنسانية منقسمة بين ذاتها الحقيقية وذاتٍ مثالية خارجية تتجسد في شبح أخلاقي أو عقلاني يقيس الفرد نفسه عليه ويَخضع له. ولهذا التصور أثر سياسي واضح؛ إذ يغدو الفرد خاضعًا للدولة ومنقادًا لها. وهنا يقترب من لابويسي حين يرى أن هذا التجريد للذات لا يقوم إلا لأننا سمحنا له بالوجود وتنازلنا له عن سلطاننا على أنفسنا. فسلطة الدولة، في هذا المنظور، تستمد قوتها من خضوع الأفراد لها، لأنهم لا يدركون قدرتهم الخاصة، بل ينحنون أمام سلطة خارجية تُشبع بعض احتياجاتهم النفسية مقابل قبولهم العبودية الطوعية. ولا يتحقق التحرر منها، في رأيه، إلا بتحرير الذات ورفض الهويات الاجتماعية المقيِّدة للحرية، وبناء فضاء عقلي داخلي راديكالي لا يطلب الكمال، بل المتعة. وهذا التحرر لا يأتي عبر ثورة تغيّر المجتمع من الخارج، بل عبر عصيان يحرر الذات ويمكّن الفرد، بحيث يغدو العيش بلا دولة ولا قانون شرطًا لممارسة الحرية والاستقلال الذاتي[14].

العبودية الطوعية والتحليل النفسي

ويُعَدّ ميشال فوكو (1926–1984) من أبرز مفكري القرن العشرين، وقد ارتبط اسمه بما بعد الحداثة والبنيوية وبمقاربته الخاصة لتحليل السلطة والذات. وتناولت أعماله موضوعات مثل تاريخ الجنون والجنس وأركيولوجيا المعرفة، وقدّم فيها نقدًا حادًا لمؤسسات المجتمع والدولة وآليات السلطة. كما انشغل بتحليل الهيمنة والسيطرة وأشكال السلطة، ولا سيما السيادية والتأديبية، وبكيفية توظيف المعرفة لفهم هذه الآليات ومقاومتها، مع تصور بدائل مجتمعية ممكنة. وفي سياق تطوره الفكري، استعان بمفاهيم مثل السيطرة والإخضاع، وأكد ضرورة مقاومة هذه الآليات، مع تشديده على أن الفرد نفسه نتاجٌ لهيمنة السلطة. وفي أعماله أخضع الدولة لتحليلٍ ميكرو سياسي دقيق، ورأى أن الخلاص يكمن في التحرر من هيمنة السلطة وآليات ضبط الأفراد ومراقبتهم، وهي آليات تعتمد في المجتمع العقابي القسري على الثواب والعقاب والتهديد لتوجيه السلوك وحشد الجهد نحو الإنتاج، بما يضمن تدفق الأرباح في المجتمع الرأسمالي. وهذه، في نظره، سمةٌ من سمات الخضوع للنظم السلطوية التي تستخدم الإقصاء والمنع أدواتٍ لترسيخ هيمنتها[15].

وفي القرن العشرين ظهر تيار فكري ارتبط بمعهد الدراسات الاجتماعية في فرانكفورت، جمع بين التحليل النفسي وبعض موضوعات الفلسفة الماركسية، مع رفضٍ للتفسير المادي للتاريخ. وقد لامست أفكارٍ هذا التيار بعض جوانب العبودية الطوعية بصيغتها الحديثة. ومن أبرز ممثليه فيلهلم رايش (1897–1957)، الذي فسّر خضوع الجماهير للفاشية بوصفه تعبيرًا عن رغبة لاشعورية في الامتثال لسلطة أعلى. ومن هنا صاغ سؤاله الدال: إذا كان الجائع قد يسرق، فلماذا تخضع أغلبية الناس لأقلية تعمل ضد مصالحها؟

وفي طرحٍ آخر، يقدّم ثيودور أدورنو (1903–1969) قراءةً تتقاطع في بنيتها التحليلية مع ما عرضه لابويسي في العبودية الطوعية، وإن لم يذكره بالاسم أو يتناوله مباشرةً. فخضوع الناس للطغيان، في نظره، لا ينفصل عن مشاركتهم في إنتاجه وإعادة إنتاج الهيمنة داخل المجتمع الرأسمالي، لأن وعيهم يتشكل عبر آليات الثقافة والصناعة والإعلام. ومن ثمّ لا تعود الطاعة مجرد عادة اجتماعية، بل تصبح نتيجةً للصناعة الثقافية. وفي أعماله المشتركة مع ماكس هوركهايمر (1895–1973)، ولا سيما جدل التنوير الصادر عام 1947، يبيّن أدورنو كيف تسهم السينما والموسيقى الشعبية والإعلانات والتلفزيون والترفيه في تشكيل الوعي، بحيث يغدو الفرد مطيعًا ومستهلكًا وعاجزًا عن التفكير النقدي. ويغدو التشيؤ، في هذا السياق، صورةً حديثة من العبودية الطوعية؛ إذ يرى الفرد العالم أشياءً ثابتة لا علاقات قابلة للتغيير، فيتقبل النظام القائم، وينظر إلى السوق بوصفه قانونًا طبيعيًا، وإلى الاستهلاك باعتباره حرية، وإلى الهيمنة كواقع لا يمكن تغييره. وعلى خلاف لابويسي، الذي ركّز على الطاعة السياسية، رأى أدورنو أن الطاعة تتجذر في بنية العقل نفسه عبر ما سماه «العقل الأداتي»، أي نمط التفكير الذي لا ينشغل بالحقيقة أو القيم أو المعنى، بل بالوسائل والنتائج وحدها. وهكذا تتحول الحداثة، في نظره، من مشروع للتحرر إلى أداة للهيمنة، ويغدو الإنسان مشاركًا في إنتاج

العبودية الطوعية الحديثة[16].

وقد واصل بعض مفكري هذا التيار تعميق فهم الرابطة النفسية بين الفرد والسلطة، ومنهم هربرت ما ركوزه (1898 - 1979)، الذي يرى أن الرغبة في التحرر والانعتاق تصطدم بنزعات استبدادية كامنة وممارسات سلطوية تمارسها المؤسسات، فضلًا عن غموض الرغبات الإنسانية والسلوكيات غير العقلانية، وما يصاحبها من دوافع عدوانية ورغبات لاشعورية في السلطة والهيمنة، وهي كلها عوامل تحدّ من ممارسة الفرد لحريته.

وطوّر مفكرو هذا التيار مفهوم «الشخصية التسلطية» لتفسير انخراط أعداد كبيرة من الألمان، على اختلاف أعمارهم، في الحزب النازي. وتتسم هذه الشخصية بثلاث سمات رئيسة: طاعة مفرطة للقيم والمعتقدات التي تفرضها السلطة، وسلوك صارم وقمعي تجاه المرؤوسين، وعداء للأقليات التي تصوّرها السلطة أهدافًا مشروعة للعنف. ويرى إريك فروم (1900–1980) أن هذه السمات رافقت صعود الفاشية في ثلاثينيات القرن العشرين، واقترنت بمعاداة السامية والعداء للديمقراطية. ويعزو التحليل النفسي ذلك إلى صراع داخلي بين «أنا أعلى» صارمة تجسد الطاعة العمياء للتقاليد والسلطة، و«أنا» ضعيفة تعاني هشاشة في الإحساس بالأمن الداخلي وتتجنب الانفعالات الحادة. ومن ثم تغدو طاعة الاستبداد آلية دفاعية تُنتج أحكامًا نمطية قاسية، وعداءً للأقليات، وميلًا إلى الخرافة، ومقاومةً للتغيير الاجتماعي والسياسي والاقتصادي. ويُفسَّر ذلك أيضًا بأن النفس الإنسانية تحمل، وفق التحليل النفسي، نزعات عدوانية وميلًا إلى التماهي مع المستبد. وهذا قريب من موقف جاك لاكان (1901–1981)، المحلل النفسي الفرنسي، من انتفاضة الطلبة في فرنسا في مايو 1968، حين حذّر من أنها قد تُفضي إلى خلق سادة مستبدين جدد.

ويرى بعض علماء الأنثروبولوجيا من أنصار المدرسة التطورية أن العبودية الطوعية ظاهرة معقدة تعود جذورها إلى مجتمعات بدائية سبقت نشوء الدولة. ووفق هذا التصور، تستمر عبر الأجيال السلوكيات التي تعزز البقاء والإنجاب والحصول على الغذاء، مثل بناء هرمية اجتماعية تحفظ الاستمرار، وتبني الإيثار المتبادل والتضحية، ونقل الثقافة والقيم من جيل إلى آخر. كما قد يصقل التطور سمات نفسية تدفع الفرد إلى طلب رضا الآخرين، وتجنب الصراع، والتماهي مع القيم السائدة، حتى لو قاده ذلك إلى الخضوع الطوعي. ومن أبرز ممثلي هذا الاتجاه مايكل توماسيلو (مواليد 1950)، الذي فسّر نشوء الطاعة والامتثال والهيمنة الرمزية من داخل آليات التعاون البدائي، بوصفها ظواهر تطورية سبقت الدولة وتوضح كيف يخضع البشر لبعضهم بعضًا، وكيف تتشكل السلطة الرمزية وتنشأ الطاعة من حاجات التعاون. وبذلك لا تبدو العبودية الطوعية ظاهرة سياسية فحسب، بل امتدادًا لسلوكيات تطورية تعود إلى مئات آلاف السنين. ومن كتبه المهمة المصادر الثقافية للإدراك البشري، الصادر عام 1999.

العبودية الطوعية في القرن الحادي و العشرين

لكن ما الذي يضيفه القرن الحادي والعشرون

إلى فهم ظاهرة العبودية الطوعية وكيف يعيد النظر في المقاربات الفلسفية والسياسية والاجتماعية والنفسية التي فسّرت هذا السلوك خلال القرون الثلاثة الماضية؟ وما الإسهام الذي قدمته الثورة العلمية والتكنولوجية، ولا سيما ثورة الاتصالات، في هذا المجال؟

وباختصار، شهد فهمنا للدماغ البشري خلال العقود الثلاثة الماضية تقدمًا يفوق ما تحقق في قرون سابقة، ولا سيما في دراسة الوعي بوصفه مجالًا تكامليًا يصل الفلسفة بعلوم الأعصاب وعلم النفس والطب العصبي والطب النفسي وعلوم الحاسوب وتقنيات الذكاء الاصطناعي. ولو عاش رينيه ديكارت في هذا القرن، لعلّه كان سيستبدل مقولته الشهيرة بـ: «أنا واعٍ، إذن أنا موجود».

وبعد أن ظلّ مفهومُ الوعي، لقرون، موزعًا بين الفلسفة والسياسة ونظريات التحليل النفسي، استعاد منذ تسعينيات القرن العشرين مكانته بوصفه محورًا أساسيًا لفهم وظائف الدماغ، ولا سيما أعقدها: الوعي بوصفه ظاهرة متعددة الأبعاد ترتبط بإدراك الإنسان لذاته ووجوده ومشاعره وأفكاره، وللعالم الطبيعي والاجتماعي المحيط به، فضلًا عن قدرته على التعبير عن ذلك عبر الإحساس، والانفعال، والسلوك، واللغة.

فلسفيا هناك ثلاثة عوالم للإنسان: الأول المادي وهو الدماغ و يعتبر ارقى عضو بشري وهو متشابه نسبيا لدى البشر، وثانيا الوعي الذي هو يحدد طبيعته كانسان والجسر الذي يربط بين العالم الأول والثالث، و الثالث وهو التاريخي الاجتماعي ومنه يتلقى الدماغ البيانات و المعلومات التي يقوم بتحليلها و اتخاذ قرارات بشأنها في معادلة معقدة بعضها يرتبط بنظام الحوافز و المكافئات في داخلة وبتفاعل جميع مكوناته وخاصة الشبكات العصبية في القشرة الدماغية و مكونات الجهاز الحوفي وكلا من العالمين الثاني و الثالث يختلف من انسان لأخر.

ويتجلى الوعي البشري في ثلاثة مجالات رئيسة: الفضاء الخارجي، أي ما تدركه الحواس؛ والفضاء الداخلي، ويشمل التخيل وأحلام اليقظة والذاكرة والأفكار الإبداعية والحدس وسائر الخبرات الذاتية؛ ثم مجال العاطفة والانفعالات، مثل الفرح والغضب والإحباط والخوف والدهشة والرغبة والكبرياء، والقلق، والكآبة والخنوع واحد مظاهرها العبودية الطوعية .

ويعمل اليوم ما لا يقل عن ثلاثين مركزًا بحثيًا في جامعات ومؤسسات أكاديمية رائدة حول العالم على دراسة هذه الأسئلة، التي وصفها الفيلسوف الأسترالي وعالم الأعصاب ديفيد تشالمرز (مواليد 1966) بأنها «الأسئلة السهلة» و«الأسئلة الصعبة» في بحث الوعي. فالأسئلة السهلة تتعلق بالقدرات العقلية، مثل الإدراك والذاكرة والسلوك، ويمكن دراستها ورصدها علميًا عبر تحليل فسيولوجيا الدماغ. أما الأسئلة الصعبة، فتتناول تفسير الصلة بين نشاط مليارات العصبونات (الخلايا لعصبية) وتريليونات الشبكات العصبية وبين تشكّل الأفكار والمشاعر والخبرات الذاتية وسائر مكوّنات الوعي، بما في ذلك الجوانب التي قد تسهم في انخراط الفرد في سلوك العبودية الطوعية. ولا تزال هذه الأسئلة بلا جواب حاسم حتى اليوم. ومع ذلك، ثمة اتفاق على أن علم الوعي ما يزال في بداياته، رغم التقدم الذي شهده القرن الحادي والعشرون، ولذلك

سنبقى، وربما لعقود، في نطاق التعميمات الفلسفية والفرضيات إلى أن تُختبر هذه التصورات بمنهجية علمية وتجريبية.

أما القضية الأخرى المرتبطة بالقرن الحادي والعشرين فهي الثورة الرقمية، ولا سيما في الاتصالات والتواصل، التي جعلت إيصال المعلومات إلى الأفراد ممكنًا في أي مكان وفي الزمن الحقيقي. وقد غدت هذه الثورة تؤدي دورًا غير مسبوق في تشكيل الوعي والرأي العام، وفي توجيههما والتلاعب بهما لخدمة أهداف سياسية وثقافية واقتصادية، بما يؤثر في مستوى المعرفة والإدراك لدى المتلقين، ويبلغ أحيانًا حدّ الحرب النفسية التي أصبحت عنصرًا محوريًا في حروب الجيل الرابع. ومن ثم أسهمت في تعميق ظاهرة العبودية الطوعية عبر إشاعة ثقافة الخوف والاستكانة والخضوع مقابل مكافآت مادية، مثل الوظائف والامتيازات والمنح المالية، ولا سيما في الدول الريعية، حيث يتحول المستبد وجهازه الإداري إلى قناة لتوزيع فتات الموارد لقاء الولاء. وفي الوقت نفسه، نعيش في بيئة إعلامية رقمية، صوتية ومرئية، وفي منظومات معلوماتية يروّج كثير منها في البلدان العربية والإسلامية سرديات سياسية ودينية وثقافية مشبعة بالخرافات والقيم السلبية. وتعمل هذه السرديات على تبرير الخضوع لهيمنة المستبدين، وتجميل ابتزاز الحكّام، وتكريس الخنوع مقابل مصالح مادية ومعنوية، كما تنتج أشكالًا معاصرة من العبودية الطوعية تحت مسميات مختلفة، مثل البراغماتية، والوسطية والنفعية والليبرالية. غير أن الوجه الآخر لهذه الثورة العلمية والتكنولوجية والإعلامية يتمثل في أنها تتيح أيضًا إمكانات لمن يسعون إلى التغيير والخلاص من العبودية الطوعية، وبناء مجتمع ديمقراطي قائم على العدالة الاجتماعية، شريطة تطوير أشكال التنظيم السياسي والاجتماعي وآليات العمل وأدواته بما ينسجم مثلا مع خصوصيات الواقع العراقي في العقد الثالث من هذا القرن.

ومع انفجار ثورة الذكاء الاصطناعي، يتصاعد الحديث عن «التشيؤ الخوارزمي»، ومن أبرز تجلياته صنمية البيانات والاغتراب الرقمي. ويثير ذلك سؤالًا ملحًا: كيف نواجه السلطة الخوارزمية حين تُستخدم لفرض الهيمنة والقمع وتزييف الوعي، حتى يغدو العقل بلا قيم ولا غاية ولا معنى، ويتحوّل العالم إلى أداة والإنسان إلى وسيلة؟ إن هذا المسار يرسّخ التشيؤ، ويعمّق الاغتراب، ويفعّل آليات الصناعة الثقافية، بما يعيد إنتاج أشكال معاصرة من العبودية الطوعية في ظل سلطة خوارزمية تملكها طبقة شديدة الثراء وتتحكم بأجهزة المراقبة وأدوات السيطرة. وهذه قضايا تتكشف أبعادها اليوم بوضوح، وتتجلى معها ملامح الاغتراب والتشيؤ والصنمية في القرن الحادي والعشرين، حيث تسهم الثورة العلمية والرقمية في تعميق هذه الظواهر والتغطية عليها في آنٍ واحد.

المصادر

1.The Cambridge World History of slavery, Volume 1, The Ancient Mediterranean World, edited by Keith Bradley and Paul Cartledge, Cambridge University Press, 2011

2. Eric Williams, Capitalism and slavery, The University of North Carolina Press, 1945.

3. The Cambridge World History of slavery, Volume 3, edited by David Eltis, Emory University, Stanley L. Engerman, University of Rochester, Cambridge University Press, 2011

4. Hammurabi's Laws: Text, Translation, and Glossary M.E.J. Richardson, published by T&T Clark International, 2000.

5. Oxford University Studies in the Enlightenment.

وتُعدّ سلسلة دراسات جامعة أكسفورد حول عصر التنوير من أهم المراجع الأكاديمية العالمية لدراسة التنوير الأوروبي، وتمثل مرجعًا أساسيًا للبحث المتخصص في القرن الثامن عشر. ومنذ عام 1955، نشرت السلسلة أكثر من 600 كتاب في مجالات متعددة مرتبطة بالتنوير الأوروبي، وتمتاز بصرامة أكاديمية عالية وشمول في التغطية وتنوع في الاختصاصات، إذ تشمل موضوعاتها تاريخ الأفكار، والفلسفة، والأدب، والمسرح، والفنون البصرية، والموسيقى، والعلوم، والاقتصاد، ودراسات المرأة. وتتوفر العديد منها على الرابط التالي: https://www.voltaire.ox.ac.uk/series/oxford-university-studies-in-the-enlightenment (

6. Gerbier, Laurent. "La Boétie." In the Encyclopaedia of Renaissance Philosophy. Springer, 2015.

7. The Politics of Obedience: The Discourse of Voluntary Servitude by Étienne de la Boétie, introduction by Murray N. Rothbard, translated by Harry Kurz, Ludwig von Mises Institute, Auburn, Alabama. Introduction and footnotes, 1975.

8. متوفر على الرابط التالي

J.S. McClelland, 1966, A History of Western Political Thought. First published by Routledge1996

9. متوفر على الرابط التالي

The Project Gutenberg eBook of The Birth of Tragedy, or Hellenism and Pessimism, by Friedrich Nietzsche..

10. بول هازار، أزمة الوعي الأوروبي 1680–1715، ترجمة يوسف عاصي، المنظمة العربية للترجمة، 1961

11. إنجلز، رسائل حول المادية التاريخية 1840–1894، دار التقدم، موسكو، 1980.

12.Christman, J.P. (2021). Alienation, Reification and Recognition. In: Siep, L., Ikäheimo, H., Quante, M. (eds) Handbuch Anerkennung. Springer VS, Wiesbaden. https://doi.org/10.1007/978-3-658-19558-8_17

13. يُعدّ كتاب ما العمل؟ أهمَّ عملٍ نظري كتبه لينين، ومرجعًا أساسيًا لفهم فكره السياسي والتنظيمي. يتناول الكتاب دور الحزب، والوعي الطبقي، والتنظيم الثوري، ويناقش نقده للعفوية ورفضه لفكرة أن الطبقة العاملة ستبلغ الوعي الثوري تلقائيًا، كما يوضح تصوره للحزب الطليعي والعلاقة بين النظرية والممارسة. وقد كتبه لينين بين خريف 1901 وفبراير 1902، ونُشر لأول مرة كتابًا مستقلًا في مارس 1902.

14. Stirner, M. (1995). The Ego and Its Own (D. Leopold, Ed.). Cambridge University Press.

15. توماس ليمكي واخرون: ماركس وفوكو ترجمة: حسن الحاج مجد، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع 2011.

16. الرابط Theodor W. Adorno (Stanford Encyclopedia of Philosophy)

* في الأصل محاضرة قُدمت في منبر حوار التنوير

قراءة في المشهد الأمني الداخلي وتداعياته في سوريا

د. معتز محي عبد الحميد
المركز الجمهوري للدراسات الاستراتيجية

مقدمة

احداث مفصلية برزت على المشهد السياسي والامني عقب سقوط نظام الأسد في كانون الأول 2024 في سوريا، وما تبعه من تحديات اساسية في تاريخ سوريا المعاصر، كان أبرزها توقيع الإعلان الدستوري الذي حدّد المرحلة الانتقالية في البلاد بمدة خمس سنوات، وتشكيل حكومة انتقالية برئاسة أحمد الشرع في آذار 2025، ادخلت سوريا مرحلة استثنائية في مسار تاريخها الحديث.

وقد جاء هذا التحوّل بعد نزاع طويل خلّف خللًا واضحًا في هيكليات الأجهزة الأمنية والعسكرية السابقة. وفي هذا السياق، يبرز مفهوم الأمن الداخلي كأداة أساسية لفهم طبيعة المرحلة الراهنة، لكونه عملية أساسية لإصلاح المنظومات الأمنية، ولكونه إطارًا شاملًا لإدارة التوازنات السياسية والاجتماعية والأمنية، في ظل واقع هشّ ومفتوح على تهديدات متشابكة.

وتكتسب هذه المقاربة أهميّتها في الحالة السورية من حيث إن التحديات لا تقتصر على إعادة ترتيب مؤسسات الدولة، بل تتعداها إلى التعامل مع بقايا النظام السابق، وتصاعد نفوذ جماعات مسلّحة محلية وعابرة للحدود، إلى جانب التدخلات الإقليمية والدولية التي تتقاطع جميعها في صياغة بيئة أمنية مركّبة، حيث يصبح الأمن الداخلي في سورية عمليةً معقّدةً، تتجاوز الإجراءات التقنية، لتطرح أسئلة أعمق حول الشرعية، والثقة بين المكوّنات، وإمكانية بناء مؤسسات جامعة قادرة على الصمود في وجه هذه التهديدات.

تهدف هذه الورقة إلى تحليل واقع الأمن الداخلي في السياق السوري، مع التركيز على خصوصية التحديات التي برزت خلال الأشهر الأولى بعد سقوط النظام، وتقاطعها مع ظاهرة التهديدات المركبة التي تميّز المشهد الأمني الراهن.

تمهيد

مع سقوط نظام الأسد في كانون الأول 2024، طرأت تغيّرات استثنائية على المشهدَين السياسي والأمني في سوريا، إذ تشكّلت، في أعقاب ذلك، حكومة تصريف

الأعمال برئاسة محمد البشير لإدارة المرحلة المؤقتة بعد سقوط النظام. وفي 29 كانون الثاني 2025، انعقد مؤتمر إعلان انتصار الثورة السورية في دمشق، بحضور قادة فصائل المعارضة، حيث أعلن فيه حلّ جميع الفصائل المسلّحة ودمجها في مؤسسات الدولة، وتكليف أحمد الشرع برئاسة المرحلة الانتقالية[1].

وبموازاة ذلك، أصدرت الحكومة الانتقالية إعلانًا دستوريًا انتقاليًا، في آذار 2025، يُحدّد أطر الإصلاح السياسي والقانوني المطلوب لبناء دولة ما بعد الثورة، ثم شرعت في اتخاذ خطوات تنفيذية لدمج الفصائل المسلحة في وزارة الدفاع، وكان من أبرز هذه الخطوات توقيع "خارطة اتفاقية الدمج" مع "قوات سوريا الديمقراطية" (قسد)، في 10 آذار 2025[2].

تندرج هذه الخطوات ضمن جهود الإصلاح الانتقالي للقطاع الأمني في سوريا، وهي تشمل إصلاح القطاع الأمني، إلى جانب نزع السلاح والتسريح وإعادة الإدماج وتقوم هذه الإصلاحات على إعادة بناء الأجهزة الأمنية، ضمن إطار مؤسسي جديد يهدف إلى تفكيك البنية السابقة، وتأسيس أجهزة أكثر مهنية وحيادية. وفي هذا السياق، كان حلّ مجلس الشعب التابع للنظام السابق من بين القرارات التي أُعلنت خلال مؤتمر النصر، في 29 كانون الثاني 2025[3] ، وذلك في إطار تفكيك منظومة الحكم السابقة وهيمنتها الحزبية. وأصدرت إدارة العمليات العسكرية، في الفترة الممتدة بين 9 و12 كانون الأول 2024، عفوًا عامًا، يشمل المجندين في صفوف النظام الذين كانوا يؤدّون الخدمة الإلزامية ولم تتلطخ أيديهم بالدماء[4]، في خطوةٍ هدفت إلى تسهيل عمليات التسريح وإعادة الإدماج، وتجنّب خلق فراغات أمنية مفاجئة. وإلى جانب ذلك، ظهر توجّه نحو نزع سلاح الميليشيات غير الحكومية كافة، تمهيدًا لاحتكار الدولة للقوة الشرعية، وبسط سلطتها على كامل الأراضي السورية.

أهمية التشكيلات الجديدة في تحديث الجهاز الامني

وفي سياق ملء الفراغ الأمني الذي أعقب سقوط النظام، سارعت وزارة الداخلية إلى فتح باب الانتساب إلى جهاز الأمن العام خلال فترة لا تتجاوز الأسبوعين، ما أدى إلى تدفق آلاف العناصر الجدد من دون آليات دقيقة للانتماء أو الفرز، الأمر الذي أفرز فجوات في الانسجام والانضباط، بين عناصر التزمت بالقيم المؤسسية وأسهمت في حفظ الاستقرار، وأخرى استغلت موقعها لمصالح خاصة، ساهم في ذلك غياب المعايير الصارمة في تداول زي رجال الأمن العام وشعاراتهم، إذ أصبحت متاحة في الأسواق، إلى جانب إخفاء بعض عناصر قوى الأمن الداخلي وجوههم باللثام، ما صعّب تمييزهم وأتاح لبعض الفئات انتحال شخصياتهم وارتكاب الانتهاكات من قبل بعضهم، الأمر الذي تسبب في تهديد الثقة المجتمعية التي بدأت تتشكل حياله[5].

وفي محاولة لمعالجة هذه الثغرات، اتخذت الحكومة الجديدة جملة من الإجراءات، شملت إقرار مدوّنات سلوك، وإنشاء مركز لتلقّي الشكاوى، وإطلاق تصريحات رسمية تؤكد على محاسبة مرتكبي الانتهاكات، غير أن معالجة المشكلة لا تقتصر على البعد التنظيمي فقط، بل تتطلب أيضاً بناء رمزية

بصرية جديدة لعناصر قوى الأمن الداخلي في سوريا، تستند إلى توصيات ودروس مستخلصة من تجارب ودراسات دولية.

شرعية الاجهزة الامنية وصورتها الرمزية

تعد الأجهزة الأمنية إحدى الوسائل الرسمية التي يمارس بواسطتها الضبط الاجتماعي من خلال تطبيق القانون والنظام الوضعي في المجتمع، والتي يفترض أن يكون عملها حيادياً وعلى مسافة واحدة من المواطنين دون أي استثناء طائفي أو عرقي أو فئوي أو طبقي.

ولتحقيق هذا الهدف لا بد من توفر ثلاثة شروط:

اولا : ثقة الشعب بالجهاز الأمني، وتشمل هذه الثقة الاعتقاد بنزاهة الشرطة أو الجهاز الأمني، وحرصه على أداء واجباته على أكمل وجه، وعلى حماية المجتمع من الجريمة والعنف.

ثانيا : استعداد المجتمع للانصياع للقانون وسلطة الشرطة، أي شعورهم بالالتزام والمسؤولية لقبول سلطة الشرطة.

ثالثا : الاعتقاد بأن إجراءات الجهاز الأمني مبررة أخلاقيًا وملائمة للظروف، وهذا ما يعرف بمصطلح شرعية الشرطة ، ويعني الاعتقاد بوجوب السماح لها بممارسة سلطتها للحفاظ على النظام الاجتماعي، وإدارة النزاعات، وحل المشكلات في مجتمعاتها.

وعادة، عندما تفتقر الشرطة إلى الشرعية، يقل تعاون الشعب معها، وقد تتصاعد التفاعلات المشحونة بانعدام الثقة إلى صراعات تهدد سلامة الجهاز الأمني والمجتمع، ما يعزز حلقة من العداء ويضعف السلامة العامة، خاصة في مجتمعات الأقليات ذات التاريخ الطويل من التوتر مع أجهزة الأمن.

ونتيجة التحديات التي واجهها جهاز الأمن الداخلي خلال مرحلة إعادة التشكيل، برزت حالات متفرقة وخروقات امنية أثّرت سلبًا على عملية بناء الثقة بينه وبين المجتمع، ولا سيما في بعض المناطق التي شهدت خللاً أمنياً مثل السويداء والساحل السوري[6] .

الهياكل الجديدة هل تخدم الامن الداخلي

باشرت وزارة الداخلية السورية خطوات تنفيذية نحو اعتماد هيكل تنظيمي جديد يهدف إلى تحديث الجهاز الأمني والشرطي وضبطه إداريًا وميدانيًا، دون المساس بمركزية القرار في دمشق. وقام التوجّه الجديد على تقسيم البلاد إلى خمسة قطاعات جغرافية رئيسية، يشرف على كل منها معاون خاص لوزير الداخلية، مسؤول مباشرة أمامة، ويشمل التقسيم:

المنطقة الشرقية: الحسكة، الرقة، دير الزور

المنطقة الشمالية: حلب، إدلب

المنطقة الساحلية: اللاذقية، طرطوس

المنطقة الوسطى: حمص، حماة

المنطقة الجنوبية: دمشق، درعا، السويداء، القنيطرة

هذة الهيكلية تأتي عقب تنسيق مشترك مع وزارات داخلية (السعودية وقطر وتركيا) حيث زارت وفود عديدة تلك الدول، للاطلاع على التجارب الأمنية وبحث سبل التعاون بينها[7].

وعملت وزارة الداخلية أيضًا على دمج قيادة الشرطة مع مديريات الأمن العام في هيكل موحد تحت إشراف مشترك بين وزارتي الداخلية والدفاع، مع بقاء الرقابة الكاملة لوزارة الداخلية، وضم الشرطة العسكرية

والأمن العسكري إلى هذا الكيان الجديد. وعلى ضوء الواقع الامني المضطرب.. استُحدثت إدارات جديدة، أبرزها:

1 - إدارة ملاحقة الخارجين عن القانون (استجابة لانفلات أمني في الساحل)

2 - إدارة قوات التدخل السريع (وحدة خاصة بلباس مميز ومركبات سوداء)

بالإضافة الى ذلك، تتواصل عمليات تحديث للإدارات التقليدية مثل المباحث الجنائية، المرور، مكافحة المخدرات، السجون، الهجرة والجوازات، والتدريب والتأهيل، إلى جانب افتتاح معسكر خاص بحرس الحدود على الحدود اللبنانية.

ولا تزال بعض الأجهزة الأمنية خارج سلطة وزارة الداخلية، أبرزها: الاستخبارات العامة (تتبع للرئاسة، برئاسة حسين السلامة) و مخابرات الأمن القومي (تحت الإشراف الرئاسي) .

الازمات الامنية والحسابات الاقليمية

في الحالة السورية، أصبحت البيئة الأمنية، مثالًا واضحًا على هذا النمط المعقد من التهديدات، حيث لم تعد البلاد تواجه تهديدًا محددًا يمكن التعامل معه بإجراءات تقليدية، بل صارت أمام مزيج من المخاطر التي يصعب فصلها عن بعضها. فبقايا النظام السابق، وشبكات النفوذ الإيراني، وتحركات الجماعات المتطرفة، وتوترات المناطق ذات الخصوصية العرقية والطائفية، والتدخلات الإقليمية، كلها عناصر لا تتحرك بشكل منفرد، بل تتداخل وتتفاعل ضمن سياق هش، سياسيًا وأمنيًا[8]. هذا التشابك لا يؤدي فقط إلى تعدّد الجبهات، بل يُنتج واقعًا متغيرًا باستمرار، حيث تتداخل الأزمات المحلية مع الحسابات الإقليمية، ويتحوّل كل خلل أمني في منطقة ما إلى فرصةٍ لتعزيز النفوذ في أخرى. وما يزيد الأمر تعقيدًا أن هذه التهديدات لا تنشأ بشكل خطي أو متوقع، بل تتغذى من بعضها البعض، ومن ثمَّ يصعب رسم خارطة مستقرة للواقع الأمني، وتكون أي محاولة للاستجابة، بمعزلٍ عن الفهم الشامل لهذا التداخل، عُرضةً للفشل أو القصور.

التهديدات الامنية والاحتواء

لم تعد التهديدات الامنية مجرد انعكاسات عابرة لحالة الفراغ الأمني بعد سقوط النظام، بل تحوّلت إلى بنية مستقرة ومتداخلة، تُنتج واقعًا تهديديًا يتحرك باستمرار على مستويات متعددة: محليًا، وإقليميًا، ودوليًا. وما يزيد هذه البنية تعقيدًا أن عناصرها لا تعمل بشكل منفصل، بل يتغذى بعضها على بعض. فتعقيدات ملف (قسد)، مثلًا، تتشابك مع الضغوط التركية المستمرة، واستمرار نشاط الجماعات المتطرفة مرتبط مباشرة بحالة الانقسام السياسي. وعلى الرغم من أن نفوذ إيران وميليشياتها لم يشهد تمددًا واسعًا بعد سقوط النظام كما كان متوقعًا، إذ اقتصر على تحركات محدودة لشبكات محلية وبعض المجموعات التي عرفت بولائها التقليدي لإيران، ومنها ما يسمى ”جبهة المقاومة الإسلامية في سورية“، من دون وجود مؤشرات على إعادة تموضع واضح لميليشيات إيران المحلية والأجنبية التي كانت تنشط سابقًا، فإن الدور الإيراني ما زال يُعدّ عنصرًا من عناصر البنية التهديدية المركّبة، لكنه لا يشكّل فاعلًا مهيمنًا كما كان في مرحلة ما قبل سقوط النظام. وهكذا تصبح

التهديدات في سورية حالة مركبة، يصعب تفكيكها أو احتواؤها عبر أدوات تقليدية أو حلول جزئية[9].

وهذا يعني أن التهديد المركب في سورية ليس مجرد مجموع مكوناته، بل هو نتاج التفاعل بينها. وهذا ما يجعل عملية فهمه والتعامل معه تحدّيًا حقيقيًا لا يمكن مواجهته بالأدوات التقليدية، بل يحتاج إلى مقاربات أمنية جديدة تُدرك أن ما تواجهه البلاد هو شبكة من التهديدات، لا مجرد ملفات أمنية معزولة.

وفي ما يلي أبرز هذه التهديدات

لا نهدف إلى تقديم توصيف تفصيلي لطبيعة هذه التهديدات أو خلفياتها، بل إلى إظهار النمط الزمني لتكرارها واتساعها

1 - هشاشة المؤسسات الانتقالية

إن الجهات القائمة على إدارة المرحلة الحالية، ومعظمها جماعات لم تكن في الدولة المركزية من قبل [10] ، لم تحظ بوقت كاف لبناء الثقة المتبادلة مع جميع المكونات الاجتماعية والسياسية. ولذلك، فإن سيطرة الحكومة السورية الانتقالية على أجهزة الأمن لا تزال محدودة، إذ لم تكتمل بعد عملية دمج الفصائل المسلحة تحت قيادة موحدة. وفي هذا السياق، شهدت بعض المناطق، مثل السويداء والساحل، صدامات عسكرية بين قوى محلية وقوات الحكومة الانتقالية، ترافقت معها عمليات انتقام وتهميش، أخذ بعضها طابعًا طائفيًا أو مناطقيًا، سواء أكان ذلك من قبل مجموعات محلية أو من قبل قوات تابعة للحكومة الانتقالية. وقد أسهمت هذه الأحداث في تعزيز مناخ الانقسام وإضعاف الثقة المتبادلة، ما قوّض بدوره جهود بناء ترتيبات أمنية انتقالية شاملة ومستقرة[11].

2 - ضيق نطاق الخدمات والموارد الحكومية

تعاني الحكومة السورية الانتقالية عجزًا ماليًا ونقصًا في الخدمات الأساسية العامة ، نتيجة سنوات النزاع والعقوبات الدولية، ويضعف ذلك من قدرتها على توفير الأمان الاقتصادي والاجتماعي للمواطنين، وهو عنصر أساسي لبناء الثقة وتعزيز التماسك نحو مفهوم الأمن الإنساني. في ظل هذا الفراغ، تكتسب بعض الفصائل المسلحة نفوذًا متزايدًا وتطرح نفسها كبديل للأمن المحلي. وإذا استمرت الحكومة في الاعتماد على القوة وحدها لفرض قراراتها الأمنية، فقد يتكرس الشعور بالمظلومية، ويستمر اعتماد الجماعات المحلية على آليات الحماية الذاتية، كما حدث في محافظة السويداء، وهو ما يبرز فشلًا جزئيًا لمقاربة الأمن الانتقالي التي ترتكز على الشراكة المجتمعية وبناء مؤسسات جامعة[12] .

3 - تعقيد النزاعات الموازية

إن وجود تهديدات مركبة يمثل تناقضًا جوهريًا مع النموذج التقليدي للأمن الانتقالي؛ ففي الحالات الأخرى كان يُفترض أن يتوفر حد أدنى من الهدوء النسبي، يسمح بتركيز الجهود على إعادة بناء الأمن الداخلي. أما في الحالة السورية، فإن الموازنة الإقليمية بين إسرائيل وتركيا وإيران وروسيا والولايات المتحدة تفرض تنافسًا مستمرًا داخل الأراضي السورية. حتى في حال نجاح الحكومة السورية الانتقالية في نزع سلاح الميليشيات ودمج القوات، يبقى خطر التدخلات الخارجية، مثل الانتهاكات الإسرائيلية المتكررة، والخروقات الامنية على الحدود اللبنانية من طرف حزب الله

وغيرها[13]. وهذا يجعل الآليات التقليدية للأمن الانتقالي غير كافية بمفردها، ويؤكد أن قدرة المؤسسات الناشئة على الاستجابة ما زالت محدودة أمام اتساع التهديدات.

باختصار.. يكشف التفاعل بين الأمن الانتقالي والتهديدات المركبة في سورية عن تناقضات بنيوية عميقة. فعلى الرغم من صياغة خطط سلام وإصلاحات أمنية، تبقى التهديدات الأمنية معقدة ومتشابكة. وإن بعض الإصلاحات الأمنية مثل الاندماج الجزئي لبعض الميليشيات قد تحقّق تقدمًا محدودًا، إلا أن إخضاع كل قوات النظام السابقة للشرعية الجديدة أو وضع آليات فعّالة للمساءلة لا يزال بعيد المنال، بسبب طبيعة المرحلة المعقدة. وهذا يشير إلى أن النظام الانتقالي ما زال مقيدًا بظروف داخلية وخارجية تتجاوز قدرته الحالية، الأمر الذي يستدعي مراجعة دائمة للتكتيكات والموارد الأمنية المتاحة.

وعلى الرغم من أن سوريا استطاعت تجنب الانزلاق إلى العنف على نطاق واسع إلى حد كبير في الأشهر الأخيرة، تأتي حوادث وقعت في احياء دمشق مؤخرا لتذكرنا بقسوة أن أسس الاستقرار لا تزال هشة في البلاد. في معظم الأحيان تستطيع السلطات احتواء الاضطرابات، ولكن لا تستطيع منعها، ويمكنها الاستجابة بسرعة، ولكن ليس دائما بفعالية. وبهذا المعنى، يبقى الاستقرار متفاوتا، وخطر التصعيد حاضرا باستمرار[14]؛ حيث أدت القدرة المحدودة للشرطة المحلية إلى تقييد الاستجابة بشكل أكبر. كذلك لم يتمكن الضباط من منع المهاجمين من دخول المدينة أو الوقوف في وجه موجة التخريب الأولى. وعلى الرغم من أن التعزيزات نجحت في سد النقص في القوى العاملة، إلا أن تكتيكاتها للسيطرة على الحشود أثبتت عدم نجاعتها. وأدى تفريق الحشود الغاضبة من الشوارع الرئيسة إلى دفع العنف نحو مناطق جانبية، بدلا من إيقافه أو ضمان محاسبة المسؤولين عنه.

معضلة المقاتلين الأجانب

تشكل معضلة "المقاتلين الأجانب" أحد أعقد الملفات الموروثة من حقبة الحرب الأهلية التي اندلعت في سوريا في العام 2012 قبل أن يسدل الستار عنها في الثامن من كانون الأول| ديسمبر 2024 بعد نجاح هيئة تحرير الشام التي تضم في صفوفها الآلاف من المقاتلين الأجانب في الإطاحة بحكم الرئيس بشار الأسد.

وتتجاوز هذه المعضلة الجانب الأمني الصرف لتشتبك مع حسابات الشرعية الدولية والاستقرار الداخلي. وتكمن صعوبة تفكيك هذه الكتلة البشرية في طبيعة تكوينها الأيديولوجي والسياسي؛ فهؤلاء "المهاجرون" الذين شكلوا لسنوات عصب القوة الضاربة في تشكيلات مختلفة بينها هيئة تحرير الشام، يجدون أنفسهم اليوم أمام واقع سياسي جديد يسعى لتقديم صبغة "وطنية" سورية خالصة، ما يضعهم في موقف "الفائض عن الحاجة" أو العبء الذي يجب التخلص منه.

ويفرض هذا التحول على الرئيس أحمد الشرع وحكومته السير على حبل مشدود، حيث إن أي محاولة للصدام المباشر مع هذه المجموعات قد تفجر صراعات جانبية دموية في وقت تحتاج فيه السلطة إلى كل ذرة استقرار لتثبيت أركانها، خاصة وأن هذه المجموعات تمتلك خبرات قتالية عالية ولا

تملك ما تخسره.
وتزداد حدة هذه المعضلة مع انسداد مسارات العودة لهؤلاء المقاتلين إلى بلدانهم الأصلية، حيث ترفض الكثير من الدول استقبالهم أو سحبت منهم جنسياتهم، ما يحولهم إلى "جيوش منسية" داخل الجغرافيا السورية، يخشى أن تتحول إلى جيوب للتمرد أو خلايا نائمة قابلة للاستقطاب من قوى مناوئة للسلطة الجديدة.
وسعت الحكومة السورية إلى إضفاء الطابع الرسمي على وضع عدد من المقاتلين الأجانب ودمج الآلاف منهم في الجيش السوري الجديد. وتولى بعضهم مناصب رفيعة في الدولة، مثل الأردني الذي يقود الحرس الجمهوري المكلف بحماية الرئيس والأسترالي الذي يرأس الصندوق السيادي حديث الإنشاء.
وأفادت وكالات انباء العام الماضي بأن الولايات المتحدة وافقت على خطة سورية لدمج حوالي 3500 مقاتل أجنبي، معظمهم من الإيغور من الصين والدول المجاورة، في فرقة عسكرية حديثة التأسيس بحجة أن إخضاعهم لسيطرة الدولة أفضل من تركهم خارج المؤسسات الرسمية.
لكن هناك من المقاتلين الأجانب الذين يرفضون الاندماج ضمن مؤسسات رسمية، وهم يحملون مشاريع "جهادية" عابرة للحدود، الأمر الذي يعقد جهود احتوائهم، فضلا عن كون الدولة السورية لا تستطيع استيعاب الجميع منهم.
وتعد الاحداث الاخيرة في ادلب ثاني مواجهة في الشهور القليلة الماضية بين قوات من الحكومة السورية ومسلحين أجانب في إدلب، بعد التوترات التي ارتبطت بمخيم يقوده المقاتل الفرنسي عمر ديابي، المعروف باسم عمر أومسين، بالقرب من الحدود التركية..
ونتيجة لذلك، لم يواجه معظم الجناة أي عواقب جدية. ولم تسهم جهود خفض التصعيد اللاحقة، ولاسيما وعود المسؤولين بالإفراج عن المحتجزين، في تعزيز الأمن بل انطوت على خطر تقويض الردع إلى حد كبير. وفي غياب المساءلة، قد تخفف مثل هذه الاستجابات من حدة التوترات على المدى القصير، إلا أنها تزيد من احتمالية تكرارها[15].

الخاتمة والتوصيات

بعد سقوط نظام الأسد، دخلت سوريا مرحلة أمنية مركّبة لم تعرفها من قبل. فبينما أتاح انهيار السلطة السابقة نافذةً انتقالية لتحقيق المصالحة وإعادة البناء، برزت تهديدات داخلية وخارجية متشابكة تعوق عملية الاستقرار. ويتضح أن مفهوم الأمن الداخلي وحده لا يكفي لتفسير الواقع السوري المعقد، بل يجب أن يقترن بمقاربة التهديدات المركّبة التي تشمل تفاعل الإرهاب، وبقايا الميليشيات، وتدخلات القوى الإقليمية، والمتغيرات الاجتماعية كالهجرة والنزوح.
وتتمثل التحديات الأساسية التي تواجه الدولة الناشئة في ضعف المؤسسات، من حيث القدرات المالية والموارد البشرية والتجهيزات، وفي وجود هياكل موازية للسلطة، مثل الميليشيات والجماعات المحلية، إضافة إلى الضغوط الخارجية المتبادلة.
وفي ضوء ذلك، يمكن تحديد مجموعة من التوصيات الضرورية:
1 - تعزيز الشرعية والاندماج السياسي: ينبغي للحكومة السورية الانتقالية أن تعتمد

عملية تسوية شاملة، تضم جميع المكونات العرقية والطائفية، مع بناء مؤسسات تشريعية منتخبة تضمن قبولًا شعبيًا للتحولات، وتوفّر أساسًا للإصلاح الأمني.

2 - تكثيف إصلاح قطاع الأمن: يتطلب النجاح في المرحلة الانتقالية إعادة هيكلة مؤسسات الأمن والجيش، وفق معايير مهنية، مع إطلاق برامج نزع السلاح والتسريح وإعادة الإدماج. ويجب أن تقتصر القيادة الأمنية على عناصر لم تتورط في انتهاكات حقوقية، وأن تُطبّق آليات مساءلة قضائية عادلة.

3 - مواجهة الجماعات الإرهابية: تظل مواجهة تنظيم (داعش) والتنظيمات المتطرفة أولوية قصوى، ويحتاج ذلك إلى تعاون دولي استخباراتي وعسكري، وتقديم خدمات إنسانية للسكان في المناطق الهشة، للحيلولة دون استغلال حالة الفقر والتهميش في تجنيد عناصر جديدة.

4 - إشراك المجتمع الدولي والإقليمي بحكمة: ينبغي ربط أي دعم دولي بشروط واضحة لاستمرارية الانتقال السياسي، مع دفع القوى الإقليمية الفاعلة إلى تجنّب المواجهات المباشرة داخل سورية، والتزامها بوقف العمليات العسكرية ضد المدنيين.

5 - الإصلاح الاقتصادي والإنساني الموازي: لا يمكن تحقيق الاستقرار من دون تعافٍ اقتصادي تدريجي. ويتطلب ذلك تخفيف العقوبات بشكل مشروط بالتقدّم في الإصلاحات، وتشجيع الاستثمارات في مشاريع إعادة الإعمار، إضافة إلى تنظيم عودة اللاجئين تحت إشراف دولي محايد.

في المحصلة.. ما تزال الصورة الذهنية لقوى الأمن الداخلي في سوريا في مرحلة التشكل، إذ إن بناء هذه الصورة عملية تراكمية وبطيئة تتطلّب وقتًا كافيًا وجهدًا مؤسسيًا مستمرًا لإصلاح الممارسات وترسيخ القيم الجديدة. ولا يمكن إحداث تحول حقيقي في هذه الصورة ما لم يمتلك أفراد الجهاز وقياداته إرادة التغيير وقناعة راسخة بضرورته، إلى جانب تحسين العوامل التي تسهم في تكوين هذه الصورة ومعالجة الواقع الذي تنتج عنه. يرتبط موقف المواطنين من الأجهزة الأمنية واتجاهاتهم نحوها، وكذلك الصورة المتكوّنة في أذهانهم عنها، بمدى عدالة السلطة الحاكمة أو ظلمها في استخدام أجهزة الأمن والشرطة والعسكر، كما يتأثر هذا الموقف أيضًا بحالة الأمن والاستقرار والطمأنينة التي توفرها الدولة. فعندما يشعر المواطن بالأمان على نفسه وممتلكاته، تتعزّز نظرته الإيجابية نحو رجل الأمن، بينما تؤدّي ممارسات القمع أو التسيس إلى تكوين صورة سلبية تُضعف الثقة وتُكرّس الفجوة بين المجتمع ومؤسساته الأمنية.

المصادر

1 - بشير زين الدين، المعضلة الامنية السورية مركز عمران للدراسات الاستراتيجية، 16ايلول 2025https://www.omrandirasat.org /

2 - عبيدة العلي، اعادة تعريف الامن الداخلي في سوريا، موقع الجزيرة -دراسات - 28 - ايار 2025https://www.aljazeera.net/blogs/2025/5/28

3 - الولاء مقابل الكفاءة.. معضلة اعادة هيكلة الامن والدفاع في سوريا - المركز السوري لدراسات الامن والدفاع - 17 ايلول - 2025 https://damascusinstitute.org/researches/

4 - Co-operation, Contestation and Complexity in Post-Conflict Security Sector Reform, 8 November 2019, https://shorturl.at/NoOjE

5 -The Compound Security Dilemma: Threats at the Nexus of War and Peace, 16 July 2020, https://shorturl.at/BMLUE

6 - عمر حرقوس، الاستخبارات الخليجية تفكك خلايا نائمة –مجلة المجلة السعودية - 21 -ايار - 2026، الرابط: https://shorturl.at/1NK0i

7 - Policy Center, Syria's Post-Conflict Recovery: Challenges and Prospects for Reconstruction and Stability, 11 April 2025, https://shorturl.at/CtM4g

-8House of Common Library, Syria after Assad: Consequences and interim authorities 2025, 23 July 2025, https://shorturl.at/TyjfR

9 - إدارة العمليات العسكرية تعلن انتصار الثورة السورية، الذاكرة السورية، 29 كانون الثاني - 2025، https://shorturl.at/USIzK

10 - إدارة العمليات العسكرية تصدر عفوًا عامًا عن المجندين، الذاكرة السورية، 9 كانون الأول - 2025، https://shorturl.at/MJpBQ

11 - ODI Global, How humanitarians can support Syria's fragile post-conflict transition, 7 August 2025, https://shorturl.at/CrLlj

12 - MDPI, A Resilience-Augmented Approach to Compound - Threats and Risk Governance: A Systems Perspective on Navigating Complex Crises, 12 February 2025, https://shorturl.at/jFaUz

13 - Mikael Weissmann, Future Threat Landscapes: The Impact on Intelligence and Security Services, 2 February 2025, https://tinyurl.com/43mpk8j2

14 - رياض الحسن، سوريا في استراتيجية الامن القومي الأمريكي، مركز جسور للدراسات – كانون الثاني – 2026https://jusoor.co/ar/ D9%8A,

15 - رستم محمود، احوال سوريا تغير المزاج السياسي لسنة العراق، مجلة المجلة السعودية – 18 شباط - 2026 https://www.majalla.com

ماذا عن العبودية في العالم الإسلامي؟

نجاة تميم

"العبودية هي عبودية ولا يمكن تجميلها" ـ العالم السوداني يوسف فضل حسن.

تُعرّف المنظمة الدولية لمكافحة العبودية أشكال العبودية الحديثة أو الاستغلال المفرط بأنها الاتجار بالبشر، والعمل القسري، وعبودية الفرق الدينية، وعبودية الأطفال، والزواج القسري، وخاصة زواج الأطفال، والعبودية الجنسية، والعبودية الوراثية، والعبودية المنزلية، أو العبودية في المزارع والحقول وأيضا في المعامل. كما أن نظام الكفالة، الذي يقوم بموجبه أصحاب العمل ومكاتب العمل حجز تأشيرات العمال المهاجرين وجوازاتهم، غالبًا ما يؤدي هذا إلى شكل من أشكال العبودية أيضا.

لكن ماذا عن العبودية في عالمنا الإسلامي؟

بعد النجاح الذي حققه كتابه الموسوم "بغداد: مدينة السلام، مدينة الدماء" (2014) الحائز على جائزة أونداتجي من الجمعية الملكية للأدب ((RSL عام 2015، وكتاب "الامبراطوريات الإسلامية: 15 مدينة تعرّف الحضارة" (2020)، صدر للمؤرخ، والصحفي الإنجليزي، جاستين ماروتسي، عام 2025، كتاب جديد، بعنوان "الأسرى والصحابة: تاريخ العبودية وتجارة الرقيق في العالم الإسلامي"، عن دار النشر أومنيبوك، يقع الكتاب في 624 صفحة. لقد اطلعت على ترجمته الحديثة إلى اللغة الهولندية من قبل

بريندا مودا ومارتن فان دير فِرف تحت عنوان "عبد".

في هذا الكتاب، يستكشف ماروتسي الرق في العالم الإسلامي. بدءاً من العمل الزراعي والمنزلي وصولاً إلى نظام السرائر، وحراسة الأماكن المقدسة، والقيادة السياسية، والقيادة العسكرية وثورة الزنج وغيرها.

حث الإسلام على عتق الرقبة

تناول ماروتسي في الفصل الأول المعنون (ص44 - 62)؛ "أربعة عبيد: بداية الإسلام" ؛ لقد كانوا عبيدا وأصبحت لهم مكانة رفيعة آنذاك؛ بالأخص بلال وزيد بن حارثة. وتابع بأن المسلمين لم يخترعوا العبودية في الشرق الأوسط، تمامًا كما لم تكن العبودية

عبر المحيط الأطلسي اختراعًا مسيحيًا. فمن الخطأ تسميتها بتجارة الرقيق الإسلامية. لقد كان العرب المسلمون محاطين بمجتمعات عبودية عريقة - البيزنطية والفارسية، ورثوا تقاليدهم الخاصة بالرق من أسلافهم العرب الوثنيين، وقاموا بتكييفها مع السياق الإسلامي (ص 40).

وذكر أن أبلغ مثال على تحرر المستعبَد؛ عنتر بن شداد (525 - 608 م)، الذي توفي قبل فترة انتشار الإسلام في شبه الجزيرة العربية. لقد استطاع أن يرتقي من (عبدٍ عربي أفريقي إلى فارسٍ نبيل، وشاعرٍ رومانسيٍّ مُفعم بالحيوية، ومحاربٍ شرس، ومثالٍ يُحتذى بهً في الرجولة.

تُقدّم قصة عنتر مدخلًا إلى كلٍّ من الأحكام المسبقة العربية التقليدية ضد الأفارقة ذوي البشرة الداكنة، وضد ذوي الأصول العربية الأفريقية، وإلى القوة التي تحدّى بها عنترة هذه الأحكام برفضها، غالبًا في أبيات شعرية. كما أن إحدى قصائده الملحمية حظيت بشرفٍ عظيم بإدراجها في المعلقات، وهي "القصائد المعلقَّة" السبع التي يُقال أنها عُلقت في الكعبة بمكة، قلب الإسلام.

يقول ماروتسي، بأن العبودية لم تقتصر على الولايات المتحدة الأمريكية فقط، بل على العكس، كانت ظاهرة شبه عالمية. فقد وُجدت العبودية في الصين خلال عهد أسرة شانغ (القرنين السادس عشر والحادي عشر قبل الميلاد)، وفي مصر القديمة، والهند، وأفريقيا، وأوروبا، والأمريكيتين. كانت واقعًا يوميًا في العديد من المجتمعات؛ وكانت الناس تُستعبد في كل من روما القديمة واليونان القديمة. كما انخرط الفايكنج الإسكندنافيين في تجارة الرقيق على نطاق واسع، لدرجة أن الاختطاف والبيع والعمل القسري كانت سمات بارزة في ثقافتهم. ولنأخذ مثالًا من فترة لاحقة؛ ففي عام 1841م، قدّرت الإدارة الاستعمارية البريطانية عدد العبيد في الهند بما يتراوح بين ثمانية وتسعة ملايين (ص 34).

لم تكن العبودية في العالم الإسلامي ظاهرة ثابتة، بل كانت مؤسسة اجتماعية ديناميكية، تتغير بمرور الزمن وقد تتخذ أشكالًا مختلفة تمامًا في فترات مختلفة. حدثت هذه التغيرات نتيجة لتغير الظروف، مثل التنمية الاقتصادية، وتغير الاحتياجات داخل الأسرة والجيش والزراعة، والظروف الدولية وغيرها. كما أن تجارة الرقيق لم تكن قضية دينية بقدر ما كانت تجارية (ص36).

فخلال الخمسة عشر قرنا هذه، سادت العبودية وتجارة الرقيق بأشكال مختلفة داخل المجتمعات الإسلامية. كما اضطرت أفريقيا لتلبية معظم الطلب على العمل القسري، حيث تم أخذ ملايين الناس إلى الأسر سيرا على الأقدام عبر الصحراء الكبرى. وعلى عكس تجارة الرقيق عبر الأطلسي، حيث انتهى المطاف بمعظم الرقيق في مزارع أمريكية، كان الرقيق في العالم الإسلامي يؤدون أدوارا مختلفة.

ويضيف، لا يمكن لأي شخص يرغب في الكتابة عن العبودية في هذا العالم أن يتجاهل القرآن. ففيه تُناقش العبودية في مواضع عديدة. وهذا ليس بالأمر المستغرب، إذ نشأ الدين في بيئة كانت العبودية منتشرة فيها. لكن النص القرآني يحث أيضًا المسلم الملتزم على السعي لتحرير عبيده. وهناك أيضًا باحثون يجادلون بأن التراث الإسلامي لم يُحرّم الرق أو لم يُشرّعه قط (ص94).

العبودية في الدول الأفريقية الإسلامية

على مدى عقود، زوّدت تجارة الرقيق القارات، وإن كان ذلك على نطاق أضيق بكثير، بنقل الرجال والنساء والأطفال المستعبَدين إلى مختلف المناطق "المتحضرة"، من الهند والأمريكيتين. وبين عامي 1076 و1600م، قُدّر أن ثلث سكان ما يُعرف اليوم بغانا الإسلامية كانوا مستعبَدين، ويُفترض أن النسبة نفسها تقريبًا كانت في الفترة ما بين 1300 و1900م في منطقة السنغال وغامبيا (السنغال وغامبيا وغينيا بيساو حاليًا، مع أجزاء من موريتانيا وغينيا ومالي). أما بين عامي 1750 و1900م، فإن نسبة الرقيق تراوحت بين ثلث وثلثي سكان ولايات الفولاني الجهادية في غرب ووسط السودان (ص37).

والجدير بالذكر، أن نظام الرق كان موجودا في السودان قبل وصول العثمانيين بزمن طويل، بل وقبل ظهور الإسلام بألف عام. يعود أحد أقدم الإشارات إلى الرقيق، إلى القرن الخامس قبل الميلاد، حيث يصف هيرودوت غزو الملك الفارسي قمبيز لمصر عام 552 قبل الميلاد، مشيرًا إلى أن الجزية التي كانت تُدفع كل سنتين لمملكة كوش (التي كانت تضم تقريبًا شمال السودان وجنوب مصر) كانت تشمل، من بين أمور أخرى، خمسة عبيد إثيوبيين صغار. وفي عام 652م، أبرم الفاتحون المسلمون أول معاهدة سلام لهم في المنطقة. ووفقًا للمؤرخ المصري تقي الدين المقريزي (1364-1442م)، فرض العرب جزية سنوية قدرها 360 عبدًا على مملكة النوبة المسيحية بموجب معاهدة البقط (651م) . لقد تم أسر آلاف الصبية والنساء والرجال من شرق أفريقيا، ثم أرسلوا كرقيق إلى الشمال، ولا سيما القاهرة وإسطنبول وشبه الجزيرة العربية. وفي عام 1877م، عندما أفادت التقارير بوجود أكثر من ستة آلاف تاجر رقيق نشطين في المنطقة، قدّرت الحكومة البريطانية، في تقرير للسلطات المصرية، أن حوالي ثلاثين ألفًا من الرقيق ينقلون، سنويا، من شرق أفريقيا، إلى شبه الجزيرة العربية وحدها (ص362).

الدولة العثمانية وحكم العبيد

استمرت العبودية في العالم الإسلامي طوال القرن التاسع عشر، وكانت شبه منتشرة في كل مكان تقريبًا، من ساحل المحيط الأطلسي وشمال أفريقيا ومنطقة الساحل وأجزاء كبيرة من أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى إلى بلاد الشام والأناضول وإيران، ومن شبه الجزيرة العربية إلى إندونيسيا وماليزيا وجنوب الفلبين إلى شبه القارة الهندية. ظلت العبودية جزءًا من الحياة اليومية، حيث لم يطرأ عليها تغيير يُذكر، ولم تحظَ، منذ عهد الإمبراطورية العثمانية، باهتمام يُذكر، إلا عندما بلغ الطلب على العمالة المنتجة ذروته. كان فترة مضطربة، تزامنت فيها ذروة الرق مع ذروة حركة مناهضة له (ص362).

يبدو أن تجارة الرقيق في العالم الإسلامي لا تزال أقل بحثًا من تجارة الرقيق عبر المحيط الأطلسي ونظام الرق في المزارع الأمريكية. حتى في مطلع القرن الحادي والعشرين، كان بإمكان إيهود توليدانو، الخبير في شؤون الرق في الإمبراطورية العثمانية، أن يؤكد أن البحث الأكاديمي، حول تاريخ الرق في المجتمع العثماني والعالم الإسلامي عمومًا، يتسم بـ"نسيان جماعي". وفي ذلك الوقت تقريبًا، لاحظ المؤرخ التركي يوسف هاكان

إردم "نسيانًا جماعيًا" شبه تام فيما يتعلق بالرق في الدولة العثمانية. وقبل ذلك بقليل، اعتقد المؤرخ الأنجلو-أمريكي الراحل برنارد لويس بأن تركيز المؤرخ الشاب على الرق في الدول الإسلامية يُعد "مخاطرة مهنية"؛ إذ كان يُنظر إلى هذا النوع من البحث غالبًا على أنه "علامة على سوء النية". وقد لاحظ أن قائمة المراجع حول الرق في اليونان القديمة أو روما أو الأمريكيتين قد تصل بسهولة إلى آلاف الصفحات، بينما تكفي صفحة واحدة لدراسة الرق في قلب العالم الإسلام (ص39).

المطالبة بإلغاء العبودية

هناك شكل آخر من العبودية شبه غير مرئية. إنه نظام الكفالة، المُطبق في العديد من دول الشرق الأوسط، حيث تُلزم العمالة الوافدة بوجود كفيل من الدولة المضيفة. وقد طُرح هذا النظام في سياق اكتشاف النفط وما تلاه من تنمية في المنطقة. ويجعل هذا النظام العامل الوافد مُعتمدًا على الكفيل، هذا ما ذكرته أسماء أزهري في دراستها، بين عامي 2016 - 2017، المنشورة في مجلة SOAS لأبحاث الدراسات العليا، بعنوان "نظام الكفالة في المملكة العربية السعودية: تحليل نقدي من منظور حقوق الإنسان الدولية والقانون الإسلامي" (ص38).

ومن المهم أيضا أن نذكر أن جيلا جديدا من المؤرخين من المغرب وتونس والجزائر، وخاصة من تركيا، أحرزوا تقدماً كبيراً في هذا الاتجاه. كما انخرط هؤلاء المؤرخون في النقاش الدائر حول الرق وتجارة الرقيق وإلغائه، على الرغم من أن جزءاً كبيراً من العالم العربي لا يزال يتجاهل الأمر. وفي الغرب أيضاً، لم يعد هذا الموضوع خافيا تماماً، كما ادعى موراي غوردون في كتابه "الرق في العالم العربي (1987)"(ص39).

ومع ذلك، يبقى هذا الجزء المحوري من تاريخ الرق مهملاً مقارنةً بتاريخ الرق في أمريكا وأماكن أخرى من العالم.

لقد تراجعت العبودية المؤسسية بشكل حاد على مر القرون الماضية، لكنها لم تختفِ تمامًا. ومن بين آخر الدول التي ألغت العبودية رسميًا، إيران (1928م) واليمن (1962م) والمملكة العربية السعودية (1962م)، وتركيا (1964م) وعُمان (1970م) وموريتانيا (1981م). لكن العبودية لا تزال موجودة.

في عهد أحمد باي الذي حكم من 1837 إلى 1855م، اتخذت تونس الخطوات الأولى نحو إلغاء الرق. كما أنها حظرت تجارة الرقيق في عام 1842م. وفي عام 1846م، حُظر الرق نفسه. وبهذا، سبقت تونس فرنسا بعامين، والولايات المتحدة بتسعة عشر عامًا. كما أن الأمور كانت تسير في الاتجاه الصحيح أيضًا في مصر.

أما ملك المغرب مولاي عبد الرحمن، حامل لواء السلالة العلوية الملكية، والتي تحكم المغرب منذ عام 1631 إلى يومنا هذا، فكان له رأي آخر:

"أما بالنسبة لتجارة الرقيق، فهي مُجازة في كتابنا [القرآن]، وكذلك في سنة نبينا صلى الله عليه وسلم؛ فضلاً عن أنه لا خلاف بين العلماء في هذا الشأن، ولا يجوز لأحد أن يُجيز ما هو مُحرَّم أو يُحرِّم ما هو مشروع" (ص 410).

لقد بقي المغرب صعب المراس إلى جانب جارته موريتانيا، التي تُعدّ حالةً شاذةً في العالم الإسلامي حيث لا يزال نظام الرق

العنصري الموروث قائماً حتى يومنا هذا. لكن عندما تولى الملك محمد السادس العرش عام 1999م، ألغى العبودية أو بالأحرى عتق العبيد الذين يخدمون في القصور الملكية.

ومن الجدير بالذكر إلقاء الضوء على موقف بعض العلماء البارزين؛ مثل الفقيه والباحث جعفر بن محمد الصادق (توفي عام 765م)، وحمدان قرمط، مؤسس الحركة القرمطية الإسماعيلية في العراق في القرن التاسع الميلادي، والحاكم بن عبد العزيز آل سعود، والمصلح التونسي محمد بيرم خميس (توفي عام 1889م)، والمؤرخ المغربي أحمد الناصري (توفي عام 1897م)، والفيلسوف والمصلح الهندي السير سيد أحمد خان (توفي عام 1898م)، ومحمد عبده، مفتي مصر (توفي عام 1905م)، والإسلامي المُناهض للغرب رشيد رضا (توفي عام 1935م). فهؤلاء جميعهم، قدّموا حججاً أخلاقية لموقفهم المؤيد لإلغاء الرق، مستندين في كثير من الأحيان إلى القرآن. كما أن بعض المؤلفين المسلمين، ومن بينهم الفقيه والمؤرخ الهندي سيد أمير علي (توفي عام 1928م) والكاتب والسياسي المصري أحمد شفيق (توفي عام 1940م)، مؤلف كتاب "العبودية من وجهة نظر مسلم"، طرحوا فكرة أن المسلمين الأوائل كانوا ينوون دائمًا إلغاء الرق، لكن انتشاره كان متجذرًا بعمق في المجتمع العربي في القرن السابع الميلادي لدرجة أنه كان سيحكم عليه بالفشل منذ البداية. وتتشابه هذه الحجة، القائمة على رسالة النبي في نشر الدين، مع إجابات دعاة إلغاء الرق البريطانيين والأمريكيين على سؤال: لماذا لم يُدن يسوع المسيح الرق أو يحرِّمه (ص94)؟

أصوات متطرفة محافظة

إن العبودية لا تزال تحظى بدعم أيديولوجي من بعض الجماعات الصغيرة ذات النفوذ التي تعتقد أنها جائزة في الإسلام. ففي عام 2003، كشف الكاتب السعودي علي الأحمد أن رجل الدين السعودي الشيخ صالح الفوزان دافع بشدة وبلا تحفظ عن هذه المؤسسة في محاضرة مسجلة سرًا. صرّح الشيخ: "العبودية جزء من الإسلام. العبودية جزء من الجهاد، وسيستمر الجهاد ما دام الإسلام موجودًا". ورفض الادعاءات بأن الإسلام قد سعى بالفعل إلى إلغائها. "إنهم جهلة، ليسوا علماء، بل كتّاب. كل من يقول مثل هذا الكلام كافر" (ص435).

لا أحد يدّعي أن الآراء المؤيدة للرق منتشرة على نطاق واسع أو سائدة في العالم الإسلامي. فعندما تظهر، تكون دائمًا في أقصى درجات التطرف أو المحافظة، في محاضرات أو خطب يلقيها رجال دين، سواء كانت مسجلة أو تُبث علنًا في المساجد أو عبر الإنترنت.

وبعيدًا عن عدسات الكاميرات الدولية، تستمر العبودية بلا هوادة في العديد من الدول ذات الأغلبية المسلمة، مثل مالي وموريتانيا. ففي هذه الأخيرة، جرِّمت فيها العبودية لأول مرة عام 2008، ثم مرة أخرى عام 2015، وكان ذلك بمثابة تنازلٍ ضمنيٍّ ومترددٍ من حكومةٍ لطالما أنكرت وجود العبودية، واستمرت في ممارستها عمليًا دون عقاب. مع هذا يواصل النشطاء والمدافعون المحليون الشجعان جهودهم الدؤوبة، ويخوضون معركة شرسة، بدعم من منظمات حقوق الإنسان الدولية ومنظمات مكافحة العبودية.

الغيرية في العالم الإسلامي

لقد خصّص ماروتسي فصلاً للّغة القوية التي عبّر بها الشعراء والمفكرون المسلمون عن أفكارهم حول السود. كما استشهد ببعض الكتاب العرب المرموقين الذين تناولوا الرق. فاعتمد كتابات وتأويلات المؤرخ الأنجلو-أمريكي الراحل برنارد لويس في قول الكاتب والعالم الجاحظ (776 - 868 م) أن: "الزنوج هم غربان بين البشر، فهم أدنى الناس وأحطهم خلقًا وطبعًا" (ص 364). لكننا نعلم، بحسب رأيي، أن هذه العبارة بالرغم من تداولها، لم ترد بهذا الشكل في كتابات الجاحظ. وبعد خمسة قرون، تناول ابن خلدون (-1332 1406م)، عميد العلماء العرب وأحد أعظم فلاسفة العصور الوسطى نفس الثيمة. ذكر ماروتسي بأن الأمم الأفريقية، مستشهدا بابن خلدون، "عادةً ما تخضع للعبودية بسهولة لأن [السود] يفتقرون إلى الصفات الإنسانية الأساسية، ويمتلكون صفات تشبه صفات الحيوانات البليدة" (ص 89). لكنني اكتشفت أن لابن خلدون رايا أخر حول "أثر الهواء في أخلاق البشر"؛ فبحسبه: "قد رأينا من خُلق السودان على عموم الخفة والطيش وكثرة الطرب ...موصوفين بالحمق في كل قطر". ولفهم خفة دم السودان وطيشهم، "نقل المسعودي عن جالينوس ويعقوب بن إسحاق الكندي بأن ذلك لضعف أدمغتهم..."، أما ابن خلدون فيرى "أن هذا الكلام لا مُحصّل (قيمة) له، ولا برهان فيه" (مقدمة ابن خلدون، ص84-83).

ففي منتصف القرن العاشر، نقرأ في كتابات ابن المقفع القبطي (915 - 987م)، أسقف مدينة الأشمونين، عن مسلمين ينهبون ويتاجرون بالرقيق، ويبيعون أسراهم في الأسواق المصرية. كما نجد هذا الاتهام أيضًا عند ناصر خُسرو (1004 - 1088م)، الرحالة والشاعر والفيلسوف الفارسي، الذي كتب أن الأطفال كانوا يُختطفون من منطقة البجاء، التي امتدت من جنوب شرق مصر وشرق السودان إلى شمال غرب إريتريا، ويُباعون في مدن وأسواق العالم الإسلامي. وكان المسلمون أيضًا من بين تجار الرقيق. أما الدول الإسلامية التي تأسست على طول النيل الأوسط وبجوار الدول السودانية منذ القرن السادس عشر، فقد استولت على السلطة من أسلافها الوثنيين والمسيحيين، ونظمت غارات على الرقيق عبر الحدود (ص363).

بالنسبة للناطقين بالعربية في وادي النيل، كانت كلمتا "نوبي" و"سوداني"، وكلاهما يعني "أسود"، مرادفتين لكلمة "عبد". كما كانت بلاد السودان، التي تعني حرفيًا "أرض السود"، تُطلق على المنطقة بأكملها جنوب الصحراء الكبرى (وقد استمدت دولة السودان الحديثة اسمها منها). ومن المفارقات المؤلمة ذات العواقب الوخيمة أن العرب السودانيين في شمال هذه "الأرض السوداء" لا يعتبرون أنفسهم سودًا. فهم يُطلقون هذا الوصف المُهين على مواطنيهم ذوي البشرة الداكنة (من جنوب السودان)، وكذلك على الأفارقة من مناطق أبعد، الذين استعبدوهم لقرون (ص364).

شكّل طريق التجارة العريق بين مصر والسودان شريانًا لنظام الرق، حيث كانت مصر وجهة للرقيق، والسودان مصدرهم. عُرف هذا الطريق لدى العرب باسم "درب الأربعين" أي طريق الأربعين يوما. وكان أقصى طريق تجاري رئيسي شرقًا عبر

الصحراء الكبرى، بطول 1800 كيلومتر، من كوبي في دارفور إلى أسيوط في صعيد مصر. كان "الطريق" يمر عبر سلسلة من الواحات، لذا لم يكن المسافرون يبعدون عن الماء أكثر من يومين أو ثلاثة. ومثل العبودية نفسها، كان درب الأربعين موجودًا قبل العرب المسلمين بزمن طويل. فقد استخدمه الفراعنة المصريون، ومهندسو المعابد الفرس، والغزاة المقدونيون، والرومان بُناة الحصون، ولاحقًا استخدمه التجار العثمانيون أيضًا. كان طريقًا للقوافل؛ الجِمال المحملة بأحمال ثقيلة تسير جنبًا إلى جنب مع صفوف من الرقيق، الأفارقة المقيدين بالسلاسل في الغالب، بالإضافة إلى بعض الحيوانات الغريبة "النادرة" المتجهة إلى بلاط الملك. كانوا يتبعون الطريق إلى مصر ويعودون جنوبًا محملين بالمنسوجات والمعادن والماء (ص363).

تتجلى الغيرية في المغرب، حسب المؤرخ شوقي الهامل، في أن المغاربة ذوي البشرة الفاتحة كانوا يحملون تحيزات عنصرية ضد مواطنيهم ذوي البشرة الداكنة وضد الأفارقة عمومًا. ووفقًا لكثيرين، ما زالوا يحملونها. ويضيف: "لقد تم تهميش السود في المغرب لقرون". ويقول في كتابه الموسوم 2014 "Black" Morocco"): "وُصِفوا، من بين أمور أخرى، بالعبيد، والحرّاتين (السود المُحرَّرين)، والسودانيين (الأفارقة السود)، والكَنَاوة (الأفارقة السود من غرب أفريقيا)، والصحراويين (من منطقة الصحراء الكبرى)". ويتحدث الهامل عن "ثقافة الصمت" في المغرب، ورَفْض الخوض في نقاش حول العبودية، والمواقف العنصرية، وقضايا النوع الاجتماعي.

ويفسر البروفيسور السوداني عبدو البدوي هذه الغيرية بولع العرب بكل ما هو أبيض واحتقارهم للون الأسود (ص89).

العبودية المعاصرة

ففي الفصل الثالث العشر والأخير المعنون "العبودية المعاصرة" (ص 423 - 441). تطرق الكاتب إلى مؤشر العبودية العالمي لعام 2023، الذي يدّعي تقديم الصورة الأكثر شمولاً؛ يلاحظ أن العمل القسري يحدث بشكل متكرر في الدول العربية؛ (4.8) لكل 1000 نسمة. وتأتي منطقة آسيا والمحيط الهادئ في المرتبة الثانية (3.3)، وأفريقيا في المرتبة الثالثة (2.4). وفيما يتعلق بالعبودية المعاصرة، يُشير التقرير إلى أن العمل القسري يحدث بشكل أكثر تكرارًا في الدول العربية، وفقًا للمعايير نفسها، متقدمةً على أوروبا وآسيا الوسطى (4.4)، ومنطقة آسيا والمحيط الهادئ، وأمريكا الشمالية والجنوبية (3.5) لكل منهما) بنسبة (5.3) لكل 1000 نسمة. وإذا جمعنا هاتين الفئتين، نجد أن الدول العربية تضم أعلى نسبة من السكان الذين يعيشون في ظل العبودية المعاصرة؛ 10.1 لكل 1000 نسمة، وهي نسبة أعلى بكثير من آسيا والمحيط الهادئ (6.8)، وأوروبا وآسيا الوسطى 6.6، وأفريقيا (5.2)، والأمريكيتين (5.0).

وبحسب التقرير نفسه، قُدّر عدد ضحايا العبودية الحديثة في العالم العربي بنحو 1.7 مليون شخص عام 2023. ومن هذا العدد، تُشكّل السعودية (740 ألفًا)، والعراق (221 ألفًا)، واليمن (180 ألفًا)، وسوريا (153 ألفًا)، والإمارات العربية المتحدة (132 ألفًا). وتجدر الإشارة إلى أن العبودية الحديثة مشكلة

دولية منتشرة في العديد من الدول، بما فيها الولايات المتحدة والمملكة المتحدة. ويُشير مؤشر العبودية العالمي إلى وجود 1.1 مليون شخص في الولايات المتحدة و122 ألفًا في المملكة المتحدة. أما في هولندا، فيُقدّر عدد الأشخاص الذين يعيشون في عبودية حديثة بنحو عشرة آلاف شخص.

ولا ننسى طبعا، ما تعرضت له اليزيديات في عامي 2014 و2015، من قبل منظمة داعش الإرهابية التي كانت ترحل النساء، وخاصة من الأقلية الدينية اليزيدية، على نطاق واسع وتخضعهن للزواج القسري وبيعهن كسبايا للجنس في الأراضي المحتلة في العراق وسوريا؛ مستندة على آيات قرآنية. وقد فعلت جماعة بوكو حرام الإرهابية، المتمركزة في شمال نيجيريا، الشيء نفسه عندما استعبدت 276 فتاة، أغلبهن مسيحيات، عام 2014، وتعرض العديد منهن للاغتصاب لاحقًا (ص438).

أهمية التوثيق لخدمة المعرفة

ففي الكتاب المذكور أعلاه، الموجه بالأخص للقارئ العام في الغرب، يسعى ماروتسي لشرح تجارة الرقيق أكثر بكثير مما يعرف من خلال الكتب والأفلام؛ ففي تركيا وأفريقيا والشرق الأوسط بشكل خاص، كانت أشكال مختلفة من العبودية جزءا مقبولا من الحياة منذ العصور القديمة (ما قبل الإسلام)، حتى عام 1981، عندما أصبحت موريتانيا آخر دولة تحظر ليس فقط تجارة الرقيق، بل أيضا مؤسسة العبودية.

يُقدّم الكتاب توليفة رائعة بين التاريخ وروايات معاصرة مباشرة عن هذا الإرث في القرن الحادي والعشرين، بما في ذلك نهب داعش واستمرار العبودية المتوارثة في مالي وموريتانيا والأحداث الأخيرة في السودان. كما يُبيّن الكاتب كيف عانت أفريقيا من الطلب على عمالة الرقيق في القرن التاسع عشر. فقد جابت، آنذاك، تجارة الرقيق سواحل أفريقيا، ونهب التجار المناطق الداخلية بحثًا عن البشر كبضائع.

وليقدم سردا قابلا للقراءة، واضحا، مفيدا ومثيرا للاهتمام، استخدم الكاتب، لإثراء النص، توثيقا محكما من خلال مجموعة من المصادر، على شكل أرشيفات وتواريخ وسير ذاتية وأشعار ومذكرات رحلات ورسائل وخرائط وصور فوتوغرافية. وتتخلل هذه السجلات المكتوبة مقابلات مع انطباعات حية وشخصية عن أشخاص وأماكن. يسلط الضوء على أصوات المستعبَدين أنفسهم، وتجاربِهم وذكرياتِهم من منظورهم الشخصي.

إن ماروتسي، المتحدث بطلاقة للعربية، والمرشح، أيضا، لجائزة بيلي جيفورد للكتابة غير الروائية لعام 2025، قضى جزءا كبيرا من مسيرته المهنية كصحفي ومؤلف، في الدول العربية والإسلامية، يحاول فهم الشرق الأوسط من خلال عدسة تاريخية. ويعود عمله جزئيًا إلى فهمه العميق وحبه للشعوب والأماكن التي يكتب عنها.

حرية السوق أم هندسة الهيمنة؟

د. إسماعيل نوري الربيعي

في مقاله المنشور في مجلة الثقافة الجديدة، آيار 2026، يقدّم الدكتور هاشم نعمة قراءة نقدية معمقة لليبرالية الجديدة بوصفها منظومة فكرية واقتصادية لم تعد مجرد نظرية في إدارة السوق، بل تحولت إلى بنية عالمية لإعادة تشكيل الدولة والمجتمع والإنسان ذاته. والمقال لا يكتفي بعرض الآثار الاقتصادية لهذا النموذج، بل يحاول تفكيك منطقه الداخلي، والكشف عن التناقض الكامن بين شعارات الحرية التي يرفعها وبين الممارسات السلطوية التي ينتجها في الواقع. ومن هنا تأتي أهمية النص؛ إذ إنه لا يتعامل مع الليبرالية الجديدة بوصفها سياسة اقتصادية تقنية، بل باعتبارها فلسفة سلطة تعيد تعريف معنى الحرية والديمقراطية والعمل والعدالة الاجتماعية. إن القراءة المنهجية للمقال تكشف أن هاشم نعمة لا يهاجم الليبرالية الجديدة بخطاب أيديولوجي انفعالي، وإنما يعتمد مقاربة تركيبية تجمع بين التحليل الاقتصادي والسياسي والاجتماعي، مستندا إلى مرجعيات متنوعة تبدأ من ماركس وبولانيي وتشومسكي وهارفي، وتنتهي عند النقد المعاصر للعولمة والتفاوت الطبقي. ولذلك فإن المقال يشتغل على مستويين متداخلين: مستوى تحليل البنية الفكرية لليبرالية الجديدة، ومستوى اختبارها التاريخي في التجربة الواقعية.

تفكيك المفاهيم وبنية الفكرة

المفهوم المركزي الذي يدور حوله المقال هو "الليبرالية الجديدة". غير أن الكاتب لا يتعامل مع المصطلح بوصفه مفهوما أحاديا، بل يقدمه كبنية متعددة الطبقات. فهي، من جهة، فلسفة اقتصادية تدعو إلى تحرير السوق وتقليص دور الدولة والخصخصة وحرية حركة رأس المال. وهي، من جهة ثانية، منظومة سياسية تعيد توزيع القوة داخل المجتمع لصالح الشركات الكبرى والمؤسسات المالية العابرة للحدود. أما المفهوم الثاني المحوري فهو "العولمة"، التي لا تظهر في النص كعملية حيادية للتبادل الاقتصادي، بل كآلية لإعادة إنتاج الهيمنة الغربية، وخاصة الأمريكية، على الاقتصادات الضعيفة. ويُميز المقال بوضوح

بين المفاهيم الجوهرية والمفاهيم الثانوية. فالمفاهيم الجوهرية هي: السوق الحرة، الخصخصة، رأس المال العالمي، التفاوت الطبقي، والدولة النيوليبرالية. أما المفاهيم الثانوية فتتمثل في: المرونة الاقتصادية، الكفاءة، الجدارة، والإصلاح الهيكلي. والكاتب يحاول البرهنة على أن المفاهيم الثانوية ليست سوى غطاء لغوي يضفي الشرعية الأخلاقية على البنية الجوهرية للنظام النيوليبرالي. ومن زاوية التحليل المنطقي، يمكن القول إن المقال يبني أطروحته على مقدمة رئيسة مفادها أن الليبرالية الجديدة تدّعي توسيع الحرية الفردية وتحقيق الازدهار العام، لكنها في التطبيق العملي تؤدي إلى تعميق التفاوت وإضعاف الديمقراطية وتوسيع سلطة النخب المالية. ومن هذه المقدمة يستنتج الكاتب أن ثمة تناقضا بنيويا بين الخطاب النظري والممارسة الواقعية.

أما إذا طبقنا التحليل الأرسطي للعلة، فإن العلة المادية لليبرالية الجديدة تتمثل في التحولات البنيوية للرأسمالية العالمية بعد أزمة السبعينيات، والعلة الصورية هي نموذج السوق الحرة المعولمة، والعلة الفاعلية تكمن في المؤسسات المالية الدولية والشركات الاحتكارية الكبرى والدول الرأسمالية المهيمنة، بينما تتمثل العلة الغائية في إعادة إنتاج تراكم رأس المال وتعظيم الربح حتى لو كان ذلك على حساب الاستقرار الاجتماعي. واللافت في المقال أن الكاتب لا يقدّم الليبرالية الجديدة باعتبارها انحرافا عارضا عن الرأسمالية، بل بوصفها التعبير الأكثر راديكالية عنها. ولذلك فهو يرى أن الأزمات ليست أخطاء تقنية قابلة للإصلاح، وإنما نتائج منطقية لبنية النظام ذاته. وهذا الاستنتاج يملك اتساقا داخليا واضحا؛ لأن المقال يربط بين مقدماته ونتائجه بسلسلة من الأمثلة التاريخية والاقتصادية التي تمنحه قدرا من التماسك المنهجي.

التناقض بين الحرية والسلطة

يكشف المقال عن واحدة من أكثر المفارقات إثارة في الفكر النيوليبرالي: فالنظام الذي يرفع شعار "تقليص الدولة" ينتهي عمليا إلى توسيع أدواتها القمعية. وهنا تظهر أهمية المقاربة المعرفية التي يعتمدها الكاتب؛ إذ إنه لا يكتفي بوصف الظاهرة، بل يحاول الكشف عن الافتراضات المسبقة التي تقوم عليها. فالليبرالية الجديدة تفترض، ضمنيا، أن السوق كيان عقلاني قادر على تنظيم نفسه بنفسه، وأن الأفراد يمتلكون فرصا متكافئة داخل المنافسة الاقتصادية. لكن هذه الافتراضات، كما يبين المقال، تتجاهل حقيقة التفاوت البنيوي في التعليم والثروة والسلطة والمعرفة. ولذلك فإن الحرية التي تتحدث عنها النيوليبرالية ليست حرية متاحة للجميع، بل حرية مشروطة بالقدرة الاقتصادية. ومن هنا يتولد التناقض الأكبر: فعندما ترفض الجماهير نتائج السوق، وتبدأ بالمطالبة بالحماية الاجتماعية أو العدالة التوزيعية، تضطر الدولة النيوليبرالية إلى التدخل دفاعا عن السوق ضد المجتمع نفسه. وهذا ما يجعل النظام، paradoxically، أكثر سلطوية كلما ادعى الدفاع عن الحرية. ولذلك يستحضر الكاتب تجارب تشيلي والأرجنتين ومصر والمغرب بوصفها نماذج تاريخية تؤكد أن فرض برامج التكييف الهيكلي لم يكن ممكنا من دون القمع السياسي. ويبلغ التحليل ذروته حين يناقش الكاتب مسألة الهجرة.

فالنيوليبرالية تحتاج إلى العمالة الرخيصة للحفاظ على معدلات الربح، لكنها في الوقت نفسه تنتج خطابا سياسيا قوميا معاديا للمهاجرين. وهذا يكشف انفصالا عميقا بين منطق الاقتصاد ومنطق السياسة داخل النظام الرأسمالي المعاصر. فالسوق يريد حدودا مفتوحة لرأس المال، بينما تريد الدولة حدودا مغلقة أمام البشر الفقراء. إن هذا التناقض لا يُعد عرضا جانبيا، بل يعكس حدود المعرفة النيوليبرالية ذاتها. فهي تفترض أن الإنسان كائن اقتصادي عقلاني، لكنها تعجز عن تفسير الانفجارات الاجتماعية والهوياتية والثقافية التي تنتج عن التفاوت والإقصاء. ولذلك فإن المقال يلمح إلى أن الأزمة ليست اقتصادية فحسب، بل أنثروبولوجية أيضا؛ أي أزمة في فهم الإنسان والمجتمع.

المجتمع المنهك وصعود التفاوت

من أكثر جوانب المقال قوة تحليله للآثار الاجتماعية لليبرالية الجديدة. فالكاتب يرفض اختزال الأزمة في المؤشرات المالية، ويرى أن الخطر الحقيقي يتمثل في تفكيك الروابط الاجتماعية وتحويل المجتمع إلى ساحة تنافس دائم. ويبرز هنا نقده لفكرة "الجدارة". فالنيوليبرالية تزعم أن النجاح نتيجة الكفاءة الفردية، والفشل نتيجة العجز الشخصي. لكن المقال يبين أن هذه الفكرة تتجاهل البنى الاجتماعية التي تحدد فرص الأفراد منذ البداية. فالتعليم والصحة والسكن ورأس المال الثقافي ليست موزعة بالتساوي، وبالتالي فإن الحديث عن منافسة عادلة يصبح وهما أيديولوجيا. ويعتمد الكاتب على تقارير دولية ودراسات اقتصادية لإثبات أن العولمة المالية ومرونة سوق العمل أدتا إلى توسيع الهوة الطبقية، لا إلى تقليصها. ومن هنا تأتي أهمية استدعائه لأفكار باتريك دينين وروبرت رايش وكريستوفر لاش، الذين تحدثوا عن "انشقاق الناجحين" وتحول المجتمع الأمريكي إلى فضاء منقسم بين نخبة فائقة الثراء وطبقات مهمشة تعيش خارج دائرة النفوذ. ومن الناحية المنهجية، يتميز المقال بقدرته على الربط بين الجزئي والكلي؛ فهو لا يتحدث عن البطالة أو الخصخصة كظواهر منفصلة، بل يربطها بتحولات الرأسمالية العالمية وبنية الدولة الحديثة. كما أن المقال يتجنب التفسير التبسيطي؛ إذ لا يدّعي أن كل أزمات العالم سببها الليبرالية الجديدة وحدها، بل يعتبرها عاملا بنيويا ضمن شبكة معقدة من العلاقات الاقتصادية والسياسية. غير أن المقال، رغم قوته، يواجه إشكالا معرفيا مهما؛ فهو يقدّم نقدا عميقا لليبرالية الجديدة، لكنه لا يطرح بوضوح بديلا اقتصاديا متماسكا. فالنقد هنا يتفوق على البناء. وهذه نقطة ضعف منهجية نسبية، لأن تفكيك نموذج مهيمن يتطلب أيضا تصور أفق بديل قابل للتطبيق، لا مجرد الكشف عن تناقضاته.

ما بعد النيوليبرالية

تكمن القيمة الفلسفية الأهم في مقال هاشم نعمة في أنه لا يقرأ النيوليبرالية كمرحلة اقتصادية عابرة، بل كتصور شامل للعالم. ولذلك فإن نقده يتجاوز الاقتصاد إلى مساءلة معنى الحرية والديمقراطية والسيادة والعدالة. ومن خلال هذا التحليل يمكن استخلاص عدد من الأسئلة البحثية الجديدة: هل تستطيع الرأسمالية المعاصرة الاستمرار من دون توسيع التفاوت؟ وهل يمكن بناء

عولمة إنسانية لا تخضع لمنطق الربح؟ وهل ما نشهده اليوم من صعود الشعبويات واليمين المتطرف هو نتيجة مباشرة لفشل النيوليبرالية؟ ثم هل تعود الدولة القومية اليوم بوصفها ردة فعل على هيمنة السوق العالمية؟ إن هذه الأسئلة تجعل المقال مفتوحا على أفق بحثي واسع، خصوصا في العالم العربي، حيث ارتبطت برامج "الإصلاح الاقتصادي" غالبا بتفكيك الدولة الاجتماعية وتعميق التبعية الاقتصادية. ولذلك فإن أهمية النص لا تكمن فقط في نقده النظري، بل في تحذيره من تحويل الإنسان إلى مجرد رقم داخل معادلة السوق. في المحصلة، ينجح هاشم نعمة في تقديم قراءة نقدية رصينة لليبرالية الجديدة، تكشف أن الأزمة ليست مجرد خلل في السياسات الاقتصادية، بل تناقض بنيوي بين خطاب الحرية ومنطق الهيمنة. فالنيوليبرالية، كما يظهر في المقال، لم تنتج مجتمعا أكثر عدالة، بل عالما أكثر هشاشة، تتراكم فيه الثروة عند القلة، بينما يُطلب من الأغلبية أن تتحمل وحدها كلفة الأزمات. ولهذا فإن السؤال الذي يظل معلقا بعد قراءة المقال ليس: كيف نصلح الليبرالية الجديدة؟ بل: هل يستطيع نظام يقوم على أولوية السوق أن ينتج إنسانا حرا بالفعل؟

نصوص قديمة

من وحي أضواء العلوي على معضلة الكنز:* هوامش وتداعيات...**

حميد الخاقاني

لقد صرنا نُكثر من لقاءاتنا لنُكرّم من رحلوا عنّا ونؤبنهم فالزمن صار عجولاً في أخذهم منا، فالجواهري الكبير غادرنا قبل ما يزيد على العامين، وقد غاب قبله عن سماواتنا قمرٌ آخر من أقمار الشعر والفقه وعلوم الأدب ألا وهو السيد مصطفى جمال الدين، وقبلهما كان قد مضى عنا شاعر آخر هام من شعراء الحداثة، هو بلند الحيدري. وكان الموت قد أنشب مخالبه، بعد هذا، في جسد وروح صديق آخر لنا، شاعر وأديب وصحفي أيضاً، هو شريف الربيعي، رغم انه لم يكن قد بلغ سِنّ الموت بعدُ، ان كان للموت سِنّ يطرق علينا، عند بلوغنا إياها، أبوابنا. ولكن يبدو ان أهلنا قد صدقوا إذ قالوا: إن الأعمار بيد الله. ولم تمضِ بعد ثلاثة شهور على رحيل (زينب) فنانة مسرحنا الكبيرة، والتي مضت عنا، شأنَ من ذكرتُ من الراحلين، بعيداً عن وطنها وجمهورها ومسرحها التي أحبت. وها نحن نلتقي اليوم لنتذكر معاً أحد مثقفينا وباحثينا المهمين، ممن غابوا عنا بعيداً عن وطنهم.

لعل غير القليل من العراقيين لا يعرفون هادي العلوي كما يعرفون الجواهري أو بلند الحيدري، فالعراقيون يحتفظون بذكرى ومكانة خاصتين للشعراء، تختلفان عما يمكن للمثقف الآخر من أولئك المعنيين بفنون الكتابة الأدبية، وبخاصة للباحث في شؤون التراث واللغة، أن يحظى به، اذ قلما تحقق له عندهم من هذه ما تحقق للشاعر الحق. ولعلنا لا نجد، في هذا السياق، الا استثناءات نادرة، مثالها فقيه اللغة العلامة مصطفى جواد (1905 - 1969) والباحث الاجتماعي المعروف علي الوردي (1913 - 1995)، اللذين أصبح لهما في ذاكرة العراقيين حتى البسطاء منهم، وبفعل ظروف وعوامل عديدة، ما لم يحظّ به أقرانهما.

وهادي العلوي لا يقل أهمية في ميدانه، كما أرى، عن هؤلاء العلماء، وفقدانه خسارة لا اظنها ستُعوّض الى أمد غير قليل، فهو، أولاً، قد نقّب وتعمق في البحث في ميدان الموروث

الديني والفكري، وهو ميدان له أثره الفاعل في وعينا وحياتنا، وفي صياغة الكثير من أفعالنا ومواقفنا وسلوكياتنا، حتى وإن لم نكن على دراية تامة بمثل الأثر الخطير.

ولم يكن العلوي في تنقيبه هذا جامعاً لحوادث التاريخ الاسلامي، أو عارضاً لظواهره الاجتماعية والسياسية وما مهّد لها وصاحبها أو نشأ عنها من تيارات ومدارس فكرية، وإنما كان قارئاً له، ناقداً، مجتهداً في قراءته هذه، مثيراً للجدل في استنتاجاته مرة ، وفي أحكامه اخرى. ولربما رأى البعض منا، ان هذا الاجتهاد مَشوباً، أحياناً، بانتقائية ما، وبإسقاط لبعض مفاهيم الحاضر على مراحل ماضية، ولكن مهما قيل في كتابات العلوي ويقال، يظل ما خلّفه لنا في ميدان الدراسات التراثية هاماً، فقد دأب على أن يبحث فيه، وفيما دار من خلاف وصراع بشأن معضلاته، عما هو عقليُ ومعرفي.

ولما كانت الغالبية العظمى منّا تجهل هذا الميدان، ولا تعرفه إلا من حكايات الجدات، أو مما رواه ويرويه لنا عنه ومنه أولئك الذين وصفهم الوردي، يوماً، بوعاظ السلاطين، تبدو لنا، عندها، أهمية الجهد الذي بذله العلوي في إزاحة الغبار عن كثير من جوانب هذا التراث واضاءتها لنا في إطار علمّي لا يهدف في النهاية إلا لتعريفنا بأنفسنا وحاضرنا من خلال معرفتنا بتراثنا وماضينا. وإذا ما عرفنا إن الباحثين في التراث وموضوعاته، من طراز العلوي، فئة قليلة ونادرة، ليس في العراق فحسبُ، وانما في الوطن العربي كله، تظهر لنا فداحة الخسارة التي خلّفها رحيلُه.

قرأت للعلوي قبل أن أعرفه، وحين عرفته مطلع السبعينات لفتَ انتباهي تواضعه الجمُّ، فهو على علم، يصغي حتى للجاهل ممن يجالسُه ويرتبك خجلاً لجهله، وإذا ما اضطره الحال الى الاشارة لهذا الجهل فهو يحرص على أن لا تكون هذه الإشارة جارحة مهينة، ولقد ظل هذا التواضع صفةً تزداد فيه سطوعاً كلما ازداد علماً، وتلك مزيّة لا نكاد نعثر عليها إلا بين نفرٍ قليل من مثقفينا وأدبائنا. ولا أظن أن أحداً ممن عرفوه عن كثب يختلف معي في أن سيرة العلوي لم تكن إلا سيرة عالم قنع من دنياه باليسير، وتجمّل في زهده بها وانصرافه عنها لمباحثه وعلومه، وهو انصراف لم يعزله عن حركة الحياة ومشاغل الناس فظل حتى منتهى أيامه معيناً بها، حريصاً على أن يعرف الملأ مواقفه منها، وهي مواقف ما كانت تخلو من إشكالية هنا وهناك، ولكنها، في نهاية المطاف مواقف نبعت من إيمان صاحبها بها ورغبته في قول مايراه، هو، عادلاً وحقاً. ولقد وسمت هذه الطبيعة في كتاباته في البحث التراثي، فهو بحث تستحوذ عليه روحٌ باحثة عن الحقيقة، ساعية للكشف عنها، وهذه الروح مأخوذة بحسٍ عميق بالعدالة الاجتماعية، وذلك لفقر صاحبها ومعرفته بأن الفقر سوط يساطُ به الناس ويُستَعبدون. ويسكن هذه الروح، من ناحية أخرى، رفضٌ صارخ لأشكال العسف والقمع والاضطهاد كلها، بمعزل عن الزيّ الذي تتزايا به، دينياً كان أم قومياً أو طبقياً.

ولعل قارئ العلوي قد تقصى تلك الطبيعة وهذه الروح في الذي قرأه له. وقبل أن أعود الى (معضلة الكنز) وأضوائه عليها وعلاقتها بهذا الذي أشرت إليه تواً، أوّدّ أن أؤشر لسمات عامة ثلاثاً في انجازه العلمي، أظنها مفيدة في الاقتراب من هذا الانجاز ومعرفة بعض ما فيه: أولها أن العلوي على شغَفه بالتراث فهو لا يقع في إساره، ولا يكتفي بالنظر لظاهر

نصوصه والمكوث عندها حسبُ، بل نراه يحيي علاقة وصْلٍ وانفصال معه في الآن نفسه، ساعياً لتحريره من الخرافة والأسْطرة، ونزَع صفة القدسية عنه، وعدم التمجيد إلا لما هو أهلٌ للتمجيد فيه، وهو تمجيد لا يجنح للتنزيه، مثلما يفعل المؤرخ والباحث التقليديان، ولا لإسباغ مسحة رومانسية تبعث الحنين لماضٍ كان تليداً يوماً، بل يقوم على بحث يرى في الإنجاز والتجاوز، وفي انسانية المواقف والأفكار وثوريتها قيماً ومعايير للإجلال والتبجل، فحتى تلك الشخصيات التاريخية التي يُشْعرنا بحبّه إياه وميله إليها لا تظهر لنا، في بحوثه، إلا بوصفها شخصيات لأناس أرضيين و تاريخيين و واقعيين، لهم مالهم وعليهم ما عليهم، وهم قد عاشوا وعملوا وأنجزوا ما أنجزوه في إطار ظروفهم التاريخية تلك، وبمقدار ما أتيحَ لهم من معرفة وطاقة، حتى لكأني به ينبغي أن يقول لقارئه واقعية هؤلاء الشخوص وتاريخيتهم، وما قاموا به في هذا السياق، هي منابع قدسيتهم ولا شيء سواها. ولا أظن أن هذا قليل الشأن في التعامل مع تراث مغطىً بكثر من أقنعة الخرافة والتنزيه التي تسيء إليه ولا تجعل منه إلا عبئاً ينوخ على الحاضر بأثقاله، بدلاً من أن يكون، وهذا هو الصواب، عاملاً من عوامل حيويته وحركيته الدائمة.

أما ثاني هذه السمات فهو تلك النزعة التنويرية التي تنطوي عليها كتابات العلوي التراثية، فهذه الكتابات تطمح دائبة إلى أن تكشف لنا امتداد الكثير من عناصر تاريخنا وتراثنا في وعينا المعاصر وفي مؤسساتنا المختلفة: النظام السياسي، الدولة، العائلة، الجماعة وفي الفرد نفسه كذلك، وكشْفُ العلوي هذا ليس إلا دعوة لأن نحدّق في هذا التراث وأن نتأمله ونقوّمه بوعي نقدي، يجعل من موضع تساؤلات دائمة، ويسعى لاستيعاب ظواهره معرفياً، وينشئ معه علاقة جديدة، مختلفةً عما كان سائداً، علاقة يعود فيها القديم حديثاً والميت حياً والساكن متحركاً. أن نعود إلى تراثنا بهذا المعنى، وحيثما يكون العَود محموداً لحاضرنا وغدنا، لا بمعنى السكون إليه والسبات عنده، فإنما يعني استعادة اخرى، جديدة، لوهج العقل والتفكير العقلي اللذين وسما ما أسماه العلوي، يوماً، بعصور التنوير الإسلامي. ولا ريب أن مثل هذا التأمل وهذا العَود لن يكونا، لدى القارئ الناقد، إلا تأملاً للنفس وتوغلاً في دواخلها لمعرفة عناصر القوة والحركة الكامنة فيها.

ثالثُ ميزات كتابة العلوي التراثية هو، في ظني، بساطة لغتها وابتعاد كاتبها عن التعقيد في تناول موضوعاته وعرض أفكاره، حتى لأخالني، وأنا أقرأ، في حضرة راوٍ حاذق لأحداث التاريخ وقصصه، يرويها لنا مشفوعة بملاحظاته وهوامشه وتعليقاته واستنتاجاته التي تفتح وعيَ قارئها على زوايا ظلّ غافلاً عنها أو أراد له (وعاظ السلاطين) أن يغفل عنها. وهكذا غدت قراءة العلوي للتراث قريبة للنفس والفهم، مختلفة عن سواها. ولعلَ قصدَه البساطةَ في الصياغة والتناول، وتقريبهَ لغة الكتابة من لغة القول، وهو أمرُ لا ينفصل عن نزعة التنوير فيه، كان المنطلق لدعوته لما أطلق عليه (النحو الساكن)، تلك الدعوة التي سعى للأخذ بها في كتاباته، الأخيرة منها خاصة، والتي لا أراها (الدعوة) صائبةً في كل ما أتت به ودعت إليه.

أعود الآن الى أول لقاء لي مع العلوي باحثاً تراثياً، وهو لقاء تقيّضَ عبر اقتناء لكتابه

الصادر في بغداد سنة 1962 بعنوان (أضواء على معضلة الكنز). لقد عثرت على هذا الكتاب الصغير في إحدى عربات بيع الكتب في شارع النصر، كما أذكر عام 1964، وكنت ما أزال في المدرسة الثانوية وكانت الكتب وقراءتها والنقاش حولها قد أخذت تشغلنا، آنذاك، نحن تلك الثلّة من الأصدقاء: نصر محمد راغب، القاص والكاتب المسرحي، الذي جاءنا من (صفد) الفلسطينية صغيراً بعد ضياعها، وحطّ الرحال صبياً في (مدينة الحرية) حيث كبُرنا معاً، وصار علينا أن نفترق كل هذه السنين الطويلة، حتى نعتهُ لي أخبار الموت العراقي الأعمى، وكم كنت أُمني النفس أن نلتقي قبل أن يُوارى أحدنا الثرى، إذ ان هناك الكثير مما ينتظر أن يقال. وأحمد خلف، القاص والروائي، الذي أودت به الأيام الى أن يقف، على أرصفة بغداد، في بسطة يبيع فيها كتبه، وبينها، لا أشك، كتب قد اشتريناها أو قرأناها معاً، واختصمنا بشأن بعضها. وكذلك مجيد ابراهيم، ذلك القارئ النهم النبيه والإنسان الجميل، الذي أضاع البيت والأهل وتغرّب هنا وهناك، حتى انتهى المطاف به وبعائلته الصغيرة في المغترب الهولندي. ثم منهل نعمة المهدي، المحامي والمثقف الذي كان يحسن الحديث عما يقرأ، مثيراً فضولنا لما يحدثنا عنه، وكان قد شرع، حينذاك، في كتابة شعر ناضج نشر بعضه، فيما بعد ، في مجلة (الآداب) البيروتية، كما أظن، ولم تأخذه مهنة المحاماة، التي انصرف لها عقب تخرجه نهاية الستينات عن القراءة وشؤونها، ولا عن الأدباء وصداقتهم، حتى غيبته أقبيةُ الموت الرطبة في بغداد مطلع الثمانينات، ولم يصل نعيُهُ لأهله وأصدقائه إلا بعد سنوات.

لا أدري ما الذي دفعني، في ذلك اليوم الصيفي الحارق لإقتناء كتيب العلوي المذكور مع كتاب آخر شعري، ولكن الذي أعرفه ان ما احتواه هذا الكُتيب قد أثّر فيّ على نحوٍ عميق. فقد لفت انتباهي، أولاً، وكانت ميولي الاشتراكية والتزامي حركتها آخذتين في التبلور، آنذاك، الى أن لفكرة العدالة الاجتماعية بسماتها الاشتراكية، كما كنت أعيها في ذلك الوقت، جذراً عميق الغور في الاسلام، وفي التراث الشيعي المبكّر منه خاصة، وقد عنى لي هذا، أنا المنحدر من عائلة شيعية، الكثير في حينها. ثم أن كتيب العلوي هذا بصّرني، ثانياً، بنمط تفكير وسلوك شخصيات دينية كنت أجلّها لأن أهلي ومحيطي يجلونها، دون أكلّف نفسي عناء البحث في بواعث هذا الاجلال، وقد جرّدت دراسةُ العلوي تلك، هذا الاجلال من طابق الطقس الديني الموروث، واعادته الى عناصره التاريخية والاجتماعية، وهذا، والله، أخطر شأناً وأعمق أثراً من ذلك.

وأضواء العلوي على معضلة الكنز عرّفتني، ثالثاً على أسلوب آخر، جديد، في تناول الموضوع التراثي والبحث فيه، خاصة وانني لم أكن قد قرأت، في تلك الأيام، بعد دراسات المفكر المصري أحمد عباس صالح التي نشرتها مجلة (الكاتب) القاهرية، على ما أذكر، في نهاية الستينات. كما انني ما كنت قد اطّلعْتُ، حتى ذلك الحين، على ما كان ينشره المفكر الكبير الشهيد حسين مروة (1907 - 1987) منذ عام 1953 في مجلتي (الطريق) و(الثقافة الوطنية) اللبنانيتين من دراسات تناول فيها شخصيات وتيارات وظواهر وكتباً تراثية مختلفة[1]، ولم أعرفه، وقتذاك، إلا ناقداً في الأدب، لا باحثاً متميزاً في التراث وتياراته ومدارسه الفكرية، يشير

العلوي نفسه، وبالتواضع المعروف عنه، الى انه قد تتلمذ عليه وعلى كتاباته.

لم يكن العلوي، بالطبع، أول من انشغل في أمر هاتين الآيتين الكريمتين (34 - 35) من صورة (التوبة):" يا أيها الذين آمنوا ان كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشّرهم بعذابٍ أليم. يومَ يُحمى عليها في نار جهنم فتُكوى بها جباههم وجنوبُهم وظهورُهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون"، فلقد شغلتا أهل التفسير، قدامى ومحدثين، وكتّاب التاريخ من العرب والمسلمين والفقهاء، وكذلك ممن ألّفوا في موضوع الإمامة والخلافة، حتى صارتا تعرفان بـ(معضلة الكنز)، ولكن أحداً لم ير فيها وفي الخلاف الذي نشأ حولها بين المسلمين وما يزال، ذلك البُعد الاجتماعي والثوري، بالتالي، مثلما فعل العلوي.

ويتفق علماء اللغة على أن أصل (الكنز) في كلام العرب (الجمع)، ويقول ابن منظور (1232 - 1311) في قاموسه (لسان العرب) إن (الكنز) اسم للمال إذا أُحرز في وعاء ولما يحرز فيه، وقيل الكنزُ المال المسكون)"2" ويردُ في الصفحة ذاتها من (اللسان) إن العرب تسمي كُلّ كثير مجموع يُتنافس فيه كنزاً.

ومعلومٌ أن الخلاف بشأن هذا الكنز المذموم في الآية المذكورة قد نشب إبّان خلافة الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان (ت 656)، وهو خلاف ارتبط بموضوع النظام المالي في صدر الإسلام وتوزيع الثروة والتصرف بأموال المسلمين، ونشأ في سياق ما يُطلق عليه (الفتنة الكبرى)، وقد كانت، في تقديري، أم الفتن، التي ظل المسلمون، والعرب منهم خاصة، يتخبطون في ظلماتها حتى يومنا هذا، ومنبعها.

لقد كانت سياسة الرسول المالية تتجه، كما هو معروف، نحو رفع الحيف عن الضعفاء وتقليص الفروق بينهم وبين الأغنياء، فحرّم الربا وجعل من الزكاة فرضاً ونهى عن كنز الأموال، ويروىُ عنه انه قد قال لما نزلت هذه الآية: (تباً للذهب تباً للفضة)، قالها ثلاثاً[3]. وقد اتّبع بعده هذا السبيل أبو بكر (ت 634)، حيث ساوى (كما يشير عالم التاريخ المعروف عبد العزيز الدوري(-1917)، بين المسلمين في العطاء، فلم يفضّل (أهل السوابق والقدم والفضل) في الاسلام على سواهم من إخوتهم في العقيدة، إذ كان يرى، حسب ما نقله عنه القاضي أبو يوسف (ت 798) في كتابه (الخراج)، إن ثواب السابقة والقدم والفضل في الدين على الله، أما العطاء فمعاشٌ الأسوةُ فيه خير الأثَرة[4] .

ومع ان عمر بن الخطاب (ت 644) قد اجتهد برأي آخر، وميَّز في العطاء بين المسلمين وفقاً لمعايير القرابة من الرسول والسابقة في الإسلام والحاجة، إلا ان شدّته في الدين ومحاسبته لعمال الامصار وولاتها فيما يتعلق بظلم الرعية والتصرف بموارد بيت المال، وحجزه لأغنياء قريش في المدينة ومكة، كل هذا قد حال دون أن تكون الهوّة بين الغني والفقير بذلك العمق الصارخ الذي بلغته في خلافة عثمان، وفي النصف الثاني منها خاصة، فقد شطّ الأمر كثيراً، وأصبحت (السياسة المالية التي اصطنعها عثمان منذ نهض بالخلافة كلها موضوعاً للنقمة والإنكار من أكثر الذين عاصروا عثمان ومن أكثر الرواة والمؤرخين)[5] ، وقد آثر

عثمان اهله وأقاربه من بني أمية، وأطلق أيديهم في الأمصار، حتى بلغ الحال بأحدهم (الوليد بن عقبة)، وكان والياً على الكوفة، أن أمّ الناس لصلاة الصبح وهو مخمور فصلى بهم أربعاً![6] . وقد شرع هؤلاء بدافع العصبية، الى تفضيل العرب على المسلمين الآخرين في العطاء، وإلى تمييز السادة على العبيد والإماء من المسلمين، وأن يحتازوا لأنفسهم من الأموال ما طالت أيديهم، برضى الخليفة وهباته أو بسكوته عنهم. ويورد السيوطي (ت 1505)، نقلاً عن السابقين، من أن أمراء عثمان كانوا يجيئون بما يُنكره أصحاب محمد، وكان يُستعتَبُ فيهم فلا يعزلهم[7]. وتصرف الكثير منهم بالأموال العامة ما شاؤوا، ولم يكن لصاحب بيت المال أن يجادلهم في الأمر حتى أدى ذلك الى أن يُعيد كُل من عبد الله بن مسعود (ت 6562) في الكوفة وعبد الله بن الأرقم (ت 664) في المدينة مفاتيح بيت المال الى (ولاة الأمر)، تعبيراً عن احتجاجهما على العبث بالأموال العامة. وقد بلغ تراكم الثروات لدى بعض الصحابة من قريش خاصة، وبينهم من كانوا من الطُلقاء وأبنائهم، في ذلك الأوان حداً أثار، من بين عوامل اخرى، نقمة الناس على الإمام وعلى البطانة التي أحاطته من قريش، وجعلتهم يتذكرون حديث النبي (ص) الذي أورد ابن حنبل (780 - 855) بإسناد متواتر صحيح، والذي يقول فيه "ما من نبيٍّ ولا من خَليفةٍ إلَّا وله بِطانَتانِ: بِطانةٌ تأمُرُه بالمعروفِ، وبِطانةٌ أُخرى لا تَألُوه خَبالًا، فمَن وُقِيَ شَرَّ بِطانَتِه الثانيةِ فقد وُقِيَ، وهو منَ التي تَغلِبُ عليه منهما"[8] .

لقد كان عثمان موسَراً وسخياً قبل أن يلي أمر المسلمين، وظل هكذا وزاد عليه بعد ولايته ولكن الناس الذين عايشوا الرسول وسمعوا منه وعنه والذين رأوا أن الخليفتين الراشدَين الأولّين قد حكما بالعدل وذهبا دون ان يبنيا قصوراً، أو يخلّفا من أموال الدنيا شيئاً يُذكر، لم يكن في مقدورهم أن لا يروا في الأمر غضاضة حين يبني الخليفة له داراً في المدينة، ويشيدها بالحجر والكلس ويجعل أبوابها من الساج والعرعر، كما ورد في كتب المؤرخين، وأن يخلّف يوم قُتل، من المال خمسين ومائة ألف دينار وألف ألف درهم وخيلاً كثيراً كثيراً وإبلاً، غير قيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما، والتي بلغت مائة ألف دينار[9] .

وكما يذكر المسعودي (ت 956م) في تاريخه فقد بلغ مال الزبير بن العوام، بعد وفاته، خمسين ألف دينار وألف فرس وألف عبد وألف أمةٍ وخططا في البصرة والكوفة ومصر والإسكندرية. ولم تكن ثروة طليحة بن عبيد الله بأقل من هذا، فقد كانت غلّته من العراق، كل يوم، الف دينار، وبناحية سراة ما يزيد على ذلك. وكان على مرابط عبد الرحمن بن عوف مائة فرس، وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم وخلّف زيد بن ثابت، عند موته، من الذهب والفضة ما كان يُكسر بالفؤوس، غير الضياع والأموال وهذا باب يتسع ذكره، كما يقول صاحب (المروج)، ويكثر وصفه فيمن تملّك من الأموال في تلك الحقبة، ولم يكن مثل ذلك في عصر عمر بن الخطاب، بل كانت جادة واضحة بيّنة[10] .

ولقد افضت هذه الأحوال الى زيادة الفروق بين الغني والفقير، والى بَرَم المسلمين، وأهل الأمصار منهم خاصة، بالإمام وولاته، وهو ما أدى الى نشوب ذلك الصراع حول ما صار يُعرَف بمعضلة (الكنز)، وهو صراع

أطلق شرارته على ما يرد في كتب التفسير وطبقات الصحابة والتاريخ، أبو ذر الغفاري (ت652).

وأبو ذّر هذا شخصية غريبة، كما يرى الوردي في (وُعاظ السلاطين)[11]، فلقد كان، وهو البدوي من (غفار) التي تقطع سبيل القوافل صوب الشام، موحِّداً، قبل ظهور الدعوة، إذ ينقل ابن حجر العسقلاني (ت 1449) عن مسلم (ت 875) رواية عن أبي ذّر يقول في أولها: ''صلّيتُ قبل أن يُبعث النبي (ص) حيث وجهني الله''[12]، وهذا ما يشير إلى أن الرجل لم يكن يكترث للطقس الديني قدْر اكتراثه بإيمانه وبما يعتقد به. ويرد في الرواية نفسها انه كان أول من حيّا محمداً بتحية الإسلام، بعد أن قصده بمكة وأصبح رابعٍ أو خامس من أسلموا. ويُحكى انه، وبما اشتُهر عنه من صراحة، لم يَطق، في ذلك اليوم كتمان، ما آمن به فأظهره وسط قريش صارخاً بشهادته فضربوه حتى صُرِع[13]. ويبدو أن أبا ذر قد أصبح بهذه الخصال، ولعلمه الذي كان يوازي فيه ابن مسعود، ولتواضعه وزهده في الدنيا وزهوها، أثيراً لدى النبي، إذ كان، كما يُروى، يبتدئه إذا حضر، ويفتقده إذا غاب[14] ، وصار هو لا يتحدث عن الرسول إلا بقوله (خليلي). ولعل تلك الصراحة التي وسمت شخصية أبي ذر وإيمانه هي التي كانت وراء ما اوردته كتب (الحديث) من أثر يقول: ''ما أضلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء من رجل أصدق لهجة من أبي ذر''[15]. ولما اختلت الموازين في تلك الفترة من خلافة عثمان لم يكن لصراحة أبي ذر، وشدة إيمانيه بما اعتقده من سبيل قويم، أن تتواريا، حتى أن ابن سعد (ت845) ينقل قوله لعليّ بن أبي طالب (ت 661)، قالها في تلك الأيام، على ما يظهر، مفادها إنه ''لم يبق اليوم أحد لا يبالي في الله لومة لائم غير أبي ذر''[16] . وهذا دون أن يستثني حتى نفسه. ولكن أمر ابي ذر بالمعروف ونهيه عن المنكر، وقوله الحقّ، في الأيام الصعبة لم تترك له صاحباً، حتى صدقت عليه تلك النبوءة العجيبة التي قالها عنه خليله، وأوردها إبن حجر على ما أخرجها البهيقي (ت 1066) في (دلائل النبوة)، وكما ذكرها كثيرون غيره نقلاً عن ابن مسعود:'' يرحم الله أبا ذر يعيشُ وحده ويموت وحده، ويُحشَرُ وحده''[17] ، حتى أن أحداً من الصحابة لم يقم ليحول دون خروجه، أو إخراجه من قبل عثمان منفياً، الى صحراء الرّبذة ليموت هناك وحيداً.

ولم يكن هذا أول عسفٍ تعرَض له أبو ذر، في تلك الحقبة، فقد سبق وخشيَ معاوية (ت 680) أن يُفسد عليه الشام بمواعظه التي ولعَ بها الفقراء، فسيّره الى المدينة، بعد أن كتب لعثمان فيه، على راحلة بغير وطاء، فكانت، مثلما أمر الخليفة أغلظ مركب وأوعره. وعلى ان المؤرخين والفقهاء رأوا في مثل هذا التعامل الشنيع مع صحابي كأبي ذر، وقد عومل، آنذاك، على هذا الغرار أو أشنع منه صحابة آخرون كابن مسعود وعمار بن ياسر(ت 657)، معضلة آخَذَ بعضهم الخليفة عليها، فإن آخرين ممن يعظون بالطاعة المطلقة لولّي الأمر، حتى لو أخطأ، كانوا لا يرون صحة النقل بمثل هذه الأخبار، وكانوا يقولون، كما هو حال ابن الأثير (-1160 1234)، بوجوب الاعتذار عن عثمان، في حالة الصحة، إذ أن للإمام أن يؤدب رعيته، لا أن يُجعلَ ذلك سبباً للطعن عليه[18] . أما محمد رشيد رضا (-1865 1935)، أحد شيوخ التنوير الديني في قرننا هذا، فيرى

في قصة أبي ذر مع معاوية وعثمان ما يثير دهشة قارئه، إن كان خِلْواً من لعنة الطائفية وشرورها، فهو يخلُصُ، في سياق شرحه لآية (الكنز) والخلاف حولها، إلى أن في هذه القصة عبرة بما كان من دسائس الشيعة في الخروج على عثمان وفيها حجة على إن حرية العلم والرأي واحترام العلماء كانتا على عهد الصحابة في أعلى درجات الكمال، حيث أن معاوية لم يجسر على الإنكار على أبي ذر حتى كاتب في أمره من هو أعلى منه، وعثمان لم يحنق، كما يرى الشيخ رضا، على أبي ذر مع كونه كان مخالفا له في تأويله، وقد رجح عنده أن يبعدَه دفعاً لما يتوهم من المفسدة عند الأخذ بمذهب أبي ذر هذه المسألة (كنز الأموال)، ولم يأمر بالرجوع عن الشدة في مذهبه هذا، كما انها تنطوي، حسب صاحب (المنار)، على التحذير على الشقاق والخروج على الأئمة والترغيب في الطاعة لأولي الأمر[19]. ولا تبدو لي قراءة الشيخ لهذه القصة واستنتاجاته بشأنها موضوعية أو سديدة، خاصة وإنها قصة سردها وتناولها مؤرخون ودارسون للتاريخ قدامى ومحدثون، ليس أغلبهم من الشيعة. كما أن المفسدة التي أفضت الى الفتنة المعروفة لا تكمن في اجتهاد أبي ذر أو غيره من الصحابة ونقدهم للإمام، وإنما في سياسة الخليفة المالية وفي التهاون في إقامة العدل، وفي الظلم الذي أوقعه ولاته في الناس وبعض ذوي قرباه، وتلك أوضاع لم يكن الإمام غافلاً عنها، ولم يبخل عليه الصحابة بالنصح والمشورة بخصوصها، وذلك لتقويم الأمر قبل وقوع المصيبة. ولا بد لمثل هذه الأحوال إن تفاقم أمرها، أن تؤدي الى رغبة الرعية عن الطاعة وخروجهم على من أولوه أمرَهم. ولا أدري كيف أمكن للشيخ الجليل أن يوائم بين ملاطفة العلماء وحرية العلم والرؤية هذه، في تلك الحقبة، وبين ما ذكره المؤرخون (غير الشيعة أيضاً)، ونقله عنهم طه حسين (1886 - 1973) في (الفتنة الكبرى)، من الأمر بإخراج عبدالله بن مسعود لاجتهاده لا غير من المسجد وضربه بالأرض حتى دقّت ضلعه، أو رَكْل الخليفة عماراً بن ياسر حتى أصابه الفتق وكان شيخاً ضعيفاً، وقد جاء يحمل لعثمان كتاباً كتبه بعض أصحاب النبي يلومونه فيه ويعظونه[20] .

لاريب أن ركلاً يسبب الفتقَ، وضرباً بالأرض يدقّ العظم، وتسييراً على راحلة بغير غطاء يقرّح الأفخاذ، وتهديداً بالقتل ونفياً عن المواطن، هي خير مما صار يتعرض له الناس والعلماء، ممن لم يتواطأوا مع السلطان على الحق والناس، من سجن وتعذيب وقتل فيما لحق من الزمان، وحتى يومنا هذا، ولكن هذه التي تبدو نعمة وخيراً مما تلاها لا تجتمع وأعلى درجات الكمال في احترام العلماء وحرية الرأي التي قصدها الشيخ رضا.

كما أن أبا ذر، مثلما يظهر من سيرته وطبعه وتشبثه بحقه في الاجتهاد، لم يكن يصبر، شأن عدد غير قليل من مسلمي تلك الأيام، على ضيم حتى وإن لم يطُلْهُ هو، فلقد علّمه إيمانهُ أن يرى أن الظلم من ظلام يوم الحساب، وأن لا طاعة لمن يرى أنهم أضاعوا أمر الله، ولم يقيموا العدل في الناس، كما أنه قد سمع، لا شك، خليله يقول: "سيكون عليكم أمراءُ يأمرونكم بما لا يفعلون، فمن صدّقهم بكذِبهم، وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه"[21]، وهو، لا ريب، قد رأى في معاوية وفي آخرين غيره من ولاة عثمان، في تلك السنوات، هذا النمط من الأمراء. ثم

إن الرجل صريحٍ، لا يقوى، كما رأينا على كتمان ما يراه حقاً، وما كان ليردعه عن هذا الأمر رادع، وهو القائل لرسول الخليفة وقد جاءه يحمل إليه ما ينهاه به عن الفَتْيا: "والله لو وضعتم الصمصامة على هذه، وأشار إلى حلقِه، على أن أترك كلمة سمعتها من رسول الله(ص) لأنفذْتها قبل أن يكون ذلك"[22] .

لقد كان أبو ذر يأبى، كما تُظهر الروايات، أن يتخلّى عن قراءته هو للقرآن، مستبدلاً إياها بقراءة من رأى إنهم قد تركوا أمر الدين الحق، وما دار بخلده أن يسخط ربَّه برضا الخليفة، ولم يكن ليضيره أن يسدّد ثمن البقاء على ما يعتقده حقاً. وقد وجد في آية (الكنز) سنداً له وحجة على الأغنياء، من قريش خاصة، فكان يقوم في المدينة، وفي الشام أيضاً، داعياً الأغنياء إلى مواساة الفقراء مُبدياً عجبَه ممن لا يجد قوت يومه وكيف لا يخرج على الأغنياء شاهراً سيفه، مبشراً من يكنزون الأموال ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاوٍ من نار. وفي مذهبه مثلما يذكر إبن الأثير، أن المسلم لا ينبغي أن يكون في ملكه أكثر من قوت يومه وليلته، أو شيء ينفقه في سبيل الله أو يعدّه غريم[23] .

وكما أشرت من قبلُ فقد شُغل المفسرون والمؤرخون بأمر هذه الآية ومواقف ابو ذر والصحابة الآخرين بشأنها، فذهب بعضهم من القدامى والمعاصرين، الى ما ذهب إليه معاوية، في خصامه مع أبي ذر، من أنها في أهل الكتاب وبيان حقيقة الكثير من الأحبار والرهبان بينهم، من أولئك الذين يكنزون الأموال التي يأكلونها بالباطل، وهذا ما قال به سيد قطب (1906 - 1966) على سبيل المثال[24]. ورأى آخرون، بينهم الفخر الرازي (ت 1210)، بأن في قوله "والذين" احتمالات ثلاثة، فقد يكون المراد بها أولئك الأحبار والرهبان، يحتمل أن يكون المقصود مانعي الزكاة من المسلمين، كما إنها قد تعني كل من كنز المال ولم يُخرج منه الحقوق الواجبة، سواء كان من الأحبار والرهبان أو كان من المسلمين، إذ اللفظ مُحتملٌ لكل واحد من هذه الوجوه الثلاثة[25] .

وكما تنقل لنا كتب التاريخ والتفاسير فإن الصحابة قد فهموا من آية (الوعيد) هذه، ودعوة النبي بالهلكة للذهب والفضة عند نزولها، وجوب إنفاق جميع ما يملك المسلم منهما، ثم رجع جمهورهم عن هذا وظل عليه أبو ذر. ويبدو ان ما جاء في هذه الآية قد شق، مثلما ورد في الروايات، على رهط غير قليل من الصحابة . ويذكر ابن كثير (1300 - 1373) في تفسيره بهذا الصدد، إن عمر بن الخطاب أبلغ الرسول بأن الآية قد كبرت على أصحابه، وإنهم حائرون في المال الذي يتخذون، فأجابه: (لساناً ذاكراً، وقلباً شاكراً وزوجة تعين أحدكم على دينه)[26] .

وقد وجد الصحابة الذين خالفوا أبا ذر في آية الزكاة الواردة في السورة ذاتها (التوبة): "خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها" تطهيراً لأموالهم وجعلها، بعد اداء الفريضة، حلالاً عليهم، ولم يرو في الكنز المذموم سوى المال الذي لا تؤدّى زكاته. وأخرج المحدّثون وأهل التفسير عن عمر بن الخطاب تارة، وعن ابنه عبدالله (ت 692) تارة اخرى، قولاً بهذا المعنى يرى أن ما أُدّيَتْ زكاته ليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين، وما لم توَدَّ زكاته فهو كنز يُكوى به صاحبه وإن كان ظاهراً[27] . كما أوردوا أحاديث للنبي تمضي بالمنحى الذي أرادوا وهو أمرٌ كان قد لجأ اليه أبو ذر كذلك، ومن سلكوا معه هذا السبل،

فذكّروا بآيات قرآنية وجاءوا بأقوال وسنن لمحمد تعزز ما ذهبوا إليه وتؤيّده.

لا شك أن قصة أبي ذر ونزاعه مع عثمان وولاته قد كانت معضلة بالنسبة للمؤرخين وعلماء الحديث والتفسير المسلمين، إذ وجدوا أنفسهم أمام حالة اخرى من الاختلاف والصراع بين صحابة الرسول، لم يتورع أحد أطرافها عن استعمال ما لا صلة له بمبادئ الدين وعلائق الصحبة. وكان عليهم أن يُفسروا هذه الحالة للمسلمين، وأن يُظهروا لكل ذي حق حقه فيها. ولكن هذا، لو حدث، فسوف يكشف أن السلف الصالح لم يكن، بالضرورة، كلّه صالحاً على الدوام، وأن بعضاً قد أخطأ هنا وهناك، وبعضاً قد أخذته الدنيا فاستقل مركبها وما كان أولئك العلماء، إلا فيما ندر، قادرين على مثل هذا الكشف، فهم بين منتصر لهذا الطرف أو ذاك، لا يعرف الحق إلا به ومعه، وكلهم لا يرى في هذا الموروث وشخوصه إلا القدسية كادت أن تكون، لدى البعض منهم، توثيناً. ولم يعد ممكناً، مع هذه الغشاوة، النُطق بالحق في هذه القضية، وتقديم تفسير موضوعي لأحداثها وملابساتها. فقد رأينا إبن الأثير يكره حتى ذِكرها، ويستعيذ بالله منه، وشهدنا من يُبرر لعثمان، أو حتى لمعاوية، فعلَهما، سواء لديه إن كانا قد أخطآ أم أصابا. كما وجدنا من يرى خطأ أبي ذر، في هذا الأمر، فراح يعتذر له بأنه كان يسمع الأمر، وفيه الشّدة، من النبي، ثم يخرج الى باديته فلا يسمع أجازه الرسول وسهّل فيه من بعدُ، فيأخذ أبو ذر بالأمر الأول الذي سمع ويظّل عليه. ويعزو هذا النفر من العلماء تشدُّدَ أبي ذر على استعداده الفطري لإحتمال الشدائد وإحتقار التنعم والسعة في الدنيا[28]. وهناك مَن ينتهي، من مؤرخينا المعاصرين، الى استنتاج في هذه المعضلة مفاده أن احتجاجات أبي ذر لم تكن (إلا تجاهلاً للتطور وحملةً على تفشي الترف وتبدّل معيشة الناس، ولكن اللوم وُجِّه إلى الخليفة، في حين ان الأوضاع العامة تبدّلت، وذهبت القلّة السائدة في بدء الحركة الإسلامية)[29] . لا ريب أن استنتاج الأستاذ الدوري هذا سليم من حيث تشخيصه للظاهرة وبواعثها، لكنه، مثلما يُفهم منه، لا يرى للسلطة السياسية، ممثّلةً بالإمام وأمرائه، ذنباً أو دوراً في تسريع ذلك التمايز الذي حصل، لصالح فئة قليلة، أو كبحهِ وتنظيمه كي لا يؤدي إلى فتنة قد لا تُبقي ولا تذر، خاصةً وقد رأينا أن هذه السلطة، زمن عمر، قد قامت بدورها في هذا المعنى.

كما انني لا أظن بصحة مَن يعلّل موقف أبي ذر من موضوعة الغنى والفقر ببداوته، وإحتمال الشدائد، فحسبُ، أو وقوفه، مثلما يقولون، عندما كان يسمعه أول مرة من النبي وبقائه عليه، إذ أنه، وبما كان عليه من علم، ينطلق، على ما بدا لي من المصادر التي نقلت لنا قصته، من رؤية تنبع من إيمانه، ومنظومة فكره الديني آنذاك، وتتكامل معها قولاً وسلوكاً. فهو لم يكن يبقي من العطاء المخصص له ولأهله إلا كفاف يومهم، وكان يطعم غلامه مما يأكل ويُلبسه مما يلبس، ويعطي ثيابه من هو أحوج إليها. وظل يرى أن الفقر والكفر صِنوان، إذا ما ذهب الأول الى بلد دعاه الثاني أن يأخذَه معه[30] .ثم إنه لم يقدر على الصمت وهو يرى طباع الناس وبينهم من كان من أصحاب النبي، تتبدل بتبدل الأحوال، وازدياد الثروات وتدفقها من الأنصار والبلدان المفتوحة، وكان حريصاً على ما آمن به، أن يكون أقربهم لخليلي

مجلساً في الدار الآخرة، ذلك انه قال لهم، يوماً، مُزدهياً عليهم: ”إني لأقربكم مجلساً من رسول الله (ص) يوم القيامة، وذلك إني سمعته يقول أقربكم مني مجلساً يوم القيامة من خرج من الدنيا كهيئة ما تركه فيها، وانه والله ما منكم من أحد إلا وقد تشبّث منها بشيء غيري“[31] . كما انه قد شقّ عليه أن يرى أموال الصدقات تنفَق، بسخاء، على المحُازبين وذوي القربى، وأن يعود أغنياء قريش، من أولئك الذين دخلوا الإسلام على مضض، ولم يكونوا في دخيلتهم،ولا فيما قاموا به من بعد، من المؤمنين حقاً، ليتسلطوا على رقاب الناس، وتحت غطاء الدين هذه المرة. ولقد كان يؤمن بأن كثرة المال واحتجانه سبيل للطغيان، مثلما قرأ في سورة ب(العلق): ”إن الأنسان ليطغى. أن رآه إستغنى“.

إن علم أبي ذر، إذن، وتجاربه، وفهمه لدينه، وتمسكه بما تعلمه ورآه من خليله، وضيقه بالظلم والظالمين، مضافاً لها طبعُه وطبيعته، هذه كلها هي ما شكّل، في تقديري، قناعته ومواقفه بشأن ما حدث في تلك الأيام، وليس الشدة النابعة من بداوة قاسية، والتشبث العنيد بأمر جرى نسخُهُ والرجوع عنه، أو المغالاة في الزهد، كما رأى بعض أهل العلم من أسلافنا.

لقد مضى زمن طويل على قراءتي دراسة العلوي لهذا الموضوع الذي ما يزال حياً في جوانب جوهرية منه، ولا أظن إن اختياره للبحث في أمر هذه الآية يُعزى، فقط، الى رغبته في أن يظهر لنا الجذر الإجتماعي لأول فتنة كبيرة في الإسلام، وإنما ليُعبر، ربما، عن إعجابه بذلك الشيخ البدوي الجليل أيضاً. ففي العلوي، كما لاحظت بعد معرفتي له، غير القليل من خصال أبي ذر، فهو مثله ما كان قلقاً فيما يؤمن به، وظل يقول ما يظنه حقاً وإن كان مُرّاً. وإذا كان أبو ذر يتوجس أهل السلطان ومن ائتمر لهم، ولا يصاحب من تطاول في البناء[32]، فقد ظل العلوي على خصام معهم كذلك، وما كان على وئام، دائماً، حتى مع ذوي النفوذ في الميادين التي عثر فيها على موطنه الفكري. ومثلما كان أبو ذر زاهداً في دنياه، متواضعاً في عيشه، فقيراً، محبّاً، للفقراء والمساكين، رحل عن هذه الدنيا وهو خميص، فإن العلوي لم يُعرف بغير هذه الصفات والأحوال. ثم إذا كان أبو ذر قد عاش، ودعا إلى إيمان يرفض الظلم، ويرى فيه غشاوة تحجب الإيمان، فالعلوي، مثلما قال هو عن حسين مروة يوماً، باحث وإنسان سعى في علمه وعمله الى إخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن شلل الإيمان الأعمى الى عافية الوعي البشري[33] .

*** هذه المقالة في الأصل مساهمة قُدّمتْ في ندوة لتكريم الراحل العلوي وتأبينه أقامها (الملتقى العراقي) مطلع تشرين الثاني الماضي في مدينة لايبزيج في ألمانيا.**

**** (الثقافة الجديدة)، العدد 287 آذار – نيسان 1999. ص 86 ولاحقا.**

الهوامش

(1) لقد قام الشيخ الشهيد بجمع بعض هذه الدراسات مما كتبه ما بين 1954 – 1968 ونشرها في كتاب صدر عام 1985 بعنوان (تراثنا.. كيف نعرفه).
(2) ابن منظور : لسان العرب. بولاق 1301 هـ ، ص 268.
(3) الفخر الرازي: التفسير الكبير، ج6. بيروت 1995 ، ص 36 .
(4) انظر: الدوري ، عبد العزيز : مقدمة في تاريخ صدر الإسلام ، ط 2 . بيروت 1961، ص 54.
(5) حسين طه: الفتنة الكبرى ج 1 . القاهرة 1962 ، ص 19.
(6) انظر : إبن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج3، بيروت 1976، ص107.
(7) أنظر: السيوطي: تاريخ الخلفاء. بيروت 1988، ص 125.
(8) إبن حنبل : المسند، ج 12. القاهرة 1972، ص 228 – 229.
(9) أنظر: المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر في التاريخ، ج 1. القاهرة 1346 هـ ، ص 433 – 434.
(10) أنظر: المسعودي: المصدر السابق ، ص 434.
(11) أنظر : الوردي، علي : وعاظ السلاطين، ط2 . لندن 1995، ص 109.
(12) إبن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، ج 7، ط1. بيروت 1995، ص 107.
(13) أنظر: إبن سعد: كتاب الطبقات الكبير، ج4. ليدن 1906، ص 175.
(14) أنظر: إبن حجر: المصدر السابق، ص 107.
(15) أنظر : إبن حنبل: المصدر السابق، ج10، ص 121.
(16) إبن سعد: المصدر السابق، ص 170.
(17) إبن حجر: المصدر السابق، ص 109.
(18) أنظر: إبن الأثير: المصدر السابق، ص 114.
(19) انظر: رضا ، محمد رشيد : تفسير المنار، ج10 . بيروت 1993، ص 406 – 407.
(20) أنظر : حسين ، طه : المصدر السابق ، ص 161 – 167 .
(21) إبن حنبل: المصدر السابق، ج 8 . القاهرة 1971، ص 62.
(22) إبن سعد: المصدر السابق ، ج 2 . ليدن 1912، ص 112.
(23) أنظر : إبن الأثير: المصدر السابق، ص 114.
(24) أنظر : سيد قطب : في ظلال القرآن ، ج 3 . القاهرة 1995، ص 1644 – 1645.
(25) أنظر: الفخر الرازي: التفسير الكبير، ج6 . بيروت 1995 ، ص 35.
(26) إبن كثير: تفسير القرآن العظيم ، ج 2 . بيروت 1992. ص 336.
(27) أنظر : إبن كثير : المصدر السابق ، ص 335.
(28) أنظر: رضا، محمد رشيد: المصدر السابق، ص 408.
(29) الدوري، عبد العزيز: المصدر السابق، ص 57.
(30) أنظر: الوردي، علي : المصدر السابق ، ص 91.
(31) إبن سعد: المصدر السابق، ص 168.
(32) أنظر: إبن سعد : المصدر السابق، ص 169.
(33) أنظر : العلوي، هادي : الكتب التي لا يخترقها الرصاص . مجلة (الطريق) ، العدد الثالث، تموز 1987، ص 53 – 56.

نصوص مترجمة

سياسة الأثرياء
نظرة عميقة إلى شخصية إيلون ماسك وعالمه

ترجمة: عبدالرزاق دحنون

كاتب وباحث سوري، من مواليد مدينة إدلب في الشمال الغربيّ من سوريّة، يحمل إجازة في العلوم الطبيّة من المعهد المتوسط الطبيّ قسم تخدير وإنعاش جامعة حلب السوريّة، بدأ الكتابة في عام 1979 على صفحات مجلة الهدف الّتي أسسها الكاتب الفلسطيني غسان كنفاني في بيروت صيف عام 1969.

كتب العديد من البحوث الطبيّة في جريدة النور السوريّة، صدرت له مجموعة قصصية تحت عنوان: مدن الكلمات الصادقة – قصص من بلاد سومر عن منشورات رامينا في لندن، يكتب في أكثر من صحيفة عربيّة؛ وفي العديد من المواقع الإلكترونية، يُقيم مع أسرته من سنوات في المرتفعات الجبلية في مدينة إزمير التركية على شاطئ بحر إيجة.

رابط اللقاء:

https://jacobin.com/2026/05/musk-cyborgs-tech-wokeness-right

لقاء على راديو جاكوبين المجلة اليسارية الأمريكية، تحدث فيه دوغ هينوود مع المؤرخ كوين سلوبوديان وكاتب التكنولوجيا بن تارنوف عن كتابهما الجديد "الماسكية: دليل المحتار". نُشر اللقاء على الموقع الإلكتروني لمجلة جاكوبين وهذه ترجمة عربية له.

يقول دوغ هينوود في بداية اللقاء: إيلون ماسك غني عن التعريف. فهو أحد أبرز رواد الأعمال في عصرنا. وعلى عكس الكثيرين في مجال التكنولوجيا، فهو ينخرط مباشرةً في العالم المادي (أو بالأحرى، موظفوه)، فيصنعون السيارات والصواريخ، ويحفرون الأنفاق، بل ويزرعون رقائق إلكترونية في أدمغة الناس. هو أيضاً بارع في الترويج المبالغ فيه، إذ يطلق ادعاءات سخيفة لا تتحقق أبداً. وبغض النظر عن هذا الترويج، فقد حقق الكثير. ومع ذلك، فقد استغل شهرته وأمواله ومنصته الإعلامية للترويج لسياسة، لا أبالغ إن قلت إنها تدعو إلى تفوق العرق الأبيض والإبادة. تشمل أعمال ماسك شركة تسلا للسيارات، وشركة سبيس إكس للصواريخ، وشركة إكس (التي كانت تُعرف سابقاً باسم تويتر)، وشركة إكس إيه آي للذكاء الاصطناعي التي يُعد غروك واجهتها، وشركة نيورالينك، المُصنّعة لرقائق قابلة للزرع في أدمغة البشر لتمكينهم من التواصل مباشرةً مع أجهزة الكمبيوتر، وشركة بورينغ، التي تحفر أنفاقًا عملاقة لإنشاء طرق سريعة تحت الأرض. ومن بين هذه الشركات، تُحقق تسلا وسبيس إكس فقط أرباحاً. ويبلغ إجمالي أرباحهما حالياً حوالي 12 مليار دولار. هذه هي القاعدة المالية لثروته، التي تُقدّرها بلومبيرغ بـ 655 مليار دولار، ومعظمها من أسهم شركتي سبيس إكس وتسلا. تُتداول أسهم تسلا علناً، وتبلغ قيمتها 372 ضعف أرباح الشركة. من المتوقع أن تُطرح أسهم سبيس إكس للاكتتاب العام قريباً. وبقيمة سوقية تُقارب تريليوني دولار، أي ما يُعادل 250 ضعف الأرباح. هذه التقييمات، وفقاً لأي معيار تقليدي، مُبالغ فيها للغاية، لكن المستثمرين يؤمنون بقدرات إيلون ماسك.

دوغ هينوود: أود أن أبدأ بسؤال حول جنوب أفريقيا. لقد أثرت في إيلون ماسك، وكذلك في العديد من الشخصيات البارزة الأخرى في عالم التكنولوجيا مثل بيتر ثيل وديفيد ساكس. لقد فوجئت عندما علمت أن لويس روسيتو من مجلة Wired كان مفتوناً بهذا البلد. ما الذي يميز تأثير جنوب أفريقيا بشكل عام، وعلى ماسك بشكل خاص؟

بن تارنوف: إنه سؤال وجيه. نستخلص بعض الأمور من هذه التجربة. أعتقد أن معظم من ينظرون إلى شباب ماسك في جنوب أفريقيا إبان نظام الفصل العنصري قد يتوصلون إلى الاستنتاج البديهي، وهو أنه عند النظر إلى تحوله اللاحق نحو اليمين، وتبنيه للقومية العرقية وتفوق العرق الأبيض، وتحديداً ترويجه لأسطورة الإبادة الجماعية للبيض في جنوب أفريقيا، يميل المرء إلى القول إن بذرة ذلك قد زُرعت منذ زمن بعيد. إن تركيزنا مختلف إلى حد ما، وهو النظر إلى الاقتصاد السياسي لدولة الفصل العنصري والإشارة إلى أنها كانت نظاماً ملتزماً للغاية بالسعي لتحقيق درجة من الاكتفاء الذاتي الاقتصادي والتكنولوجي. كان ذلك يتمثل في الحصول على تراخيص من شركة فورد لتصنيع السيارات داخل حدود الدولة. وكان يُطور برنامجاً نووياً بمساعدة علماء أمريكيين وإسرائيليين. بل إنه صنع قنبلة نووية جاهزة للاستخدام بحلول أوائل ثمانينيات القرن الماضي. وعندما ننظر إلى مسيرة ماسك اللاحقة كرجل أعمال، وتحديداً

في شركتي سبيس إكس وتسلا، نجد بعض أوجه التشابه المثيرة للاهتمام مع تجربة نظام الفصل العنصري. فإذا كنا نعرف شيئًا عن ماسك كرجل أعمال، نعلم أنه يُفضل بشدة التكامل الرأسي، وتقليل اعتماده على الموردين الخارجيين. لا يمكننا معرفة ما يدور في ذهنه وتحديد مسار التأثير بدقة، لكننا نعتقد أن أوجه التشابه بين ذلك والنموذج الصناعي في جنوب إفريقيا في ظل نظام الفصل العنصري لافتة للنظر.

كوين سلوبوديان: نستخدم مصطلح ''مستقبلية الحصون'' لوصف هذا المفهوم، إذ نرى أنه يجسد ببراعة الشعور بالمخاطرة والخطر، فضلاً عن ضرورة استخدام التكنولوجيا المتقدمة لحماية الدولة وتسليح المدافعين عنها. ولا يقتصر هذا على جنوب أفريقيا إبان نظام الفصل العنصري فحسب، بل يتردد صداه أيضاً مع بعض الرسوم المتحركة التي كانت تُعرض على التلفزيون في فترة شباب ماسك، مثل ''روبوتيك'' و''المتحولون''، وهي مسلسلات أشار إليها في منشورات لاحقة، بل وحتى في أسماء منتجاته.

دوغ هينوود: هذا الرجل تأثر حقاً بالخيال العلمي، أليس كذلك؟

بن تارنوف: إن مسألة تأثير الخيال العلمي على إيلون ماسك معقدة بعض الشيء. فعند الكتابة والتفكير في شخصية مثله، يبرز دائماً التساؤل حول مدى صحة تصريحاته. فهو غالباً ما يستخدم الخيال العلمي كوسيلة للتعبير عن انتمائه إلى ثقافة معينة من محبي الخيال العلمي، وبالتالي تنمية قاعدة جماهيرية واسعة كانت ذات أهمية بالغة لنجاحه المالي والسياسي. صحيح أن هناك بعض المراجع المهمة والأساسية التي أثرت فيه في الخيال العلمي. أحدها، كما أشار كوين، هو مفهوم ''الميكانيكي'' أو ''الميكا''، المستوحى من القصص المصورة والرسوم المتحركة اليابانية. وتتلخص هذه الفكرة في بدلة روبوتية عملاقة يرتديها طيار بشري، غالباً ما يكون شاباً، ويندمج معها في عملية تكامل سيبراني للدفاع عن حضارة تتعرض لهجوم من قوة جبارة. وبالنظر إلى تصريحات ماسك اللاحقة حول ضرورة التحول إلى سايبورغ، وزرع واجهات بين الدماغ والحاسوب في البشر، والاندماج فيما وصفه بـ''الكيان السيبراني الجماعي العملاق''، يتضح لنا مدى ارتباط هذه الأفكار بمفهوم ''الميكانيكي'' الذي نشأ عليه.

كوين سلوبوديان: كما أننا نتردد في الاعتماد بشكل كبير على الكتب والقصص المصورة والرسوم المتحركة كعوامل تفسيرية حقيقية لبناء إمبراطورية ماسك. هناك إغراء لاستخدام هذه الأدلة السطحية كطريقة مختصرة لتفسير شخصية بيتر ثيل، على سبيل المثال، أو شخصية مارك أندريسن، يكفي إلقاء نظرة على قائمة قراءاتهم. إحدى الحجج التي نحاول طرحها في الكتاب هي أنه إذا أردت كتابة التاريخ الفكري للرأسمالي، فعليك أن تنظر إليه وهو يمارس الرأسمالية. فنظريته لا تنبع من قراءة ما قبل النوم، بل من الممارسة اليومية لتنظيم العمال في مواقع العمل، وعرض المشاريع على المستثمرين، والحصول على عقود جديدة من الحكومة. إنّ خيالهم العلمي ليس إلا جزءاً من ممارساتهم

التجارية. فكّر في كيفية جمع الأموال في وادي السيليكون منذ التسعينيات وحتى الآن: من خلال عرض المشاريع على أصحاب رؤوس الأموال المغامرة المستعدين للمراهنة بمبالغ طائلة، ولكن بشرط أن يكون العائد على هذه المراهنات ضخمًا بنفس القدر. لا يمكنك الاكتفاء بالوعد بتحسينات طفيفة على منتج أو خدمة؛ بل عليك أن تعد بقطاع سوقي جديد كليًا وواقع جديد كلياً سينشأ عن استثمارهم. الخيال العلمي هو اللغة السائدة في هذا القطاع.

دوغ هينوود: أنت تعامل ماسك على أنه ما أسماه رالف والدو إيمرسون "الرجل النموذجي". ما الذي يجعله الرجل النموذجي لعقد 2020؟

بن تارنوف: لقد سعينا جاهدين لتصوير ماسك كشخص يُقدّم، في مختلف مراحل تطور الرأسمالية العالمية على مدى الأربعين أو الخمسين عاماً الماضية، صورةً مُبالغاً فيها، بل وحتى كاريكاتورية، للاتجاهات الأوسع نطاقاً في الاقتصاد السياسي. ومن مزايا ماسك كأداة تعليمية أنه يُمكنك، كما في فيلم فورست غامب، تتبّع مساره عبر هذه الفترات المختلفة من الاقتصاد السياسي. بدأ مسيرته المهنية كمليونير في مجال الإنترنت في التسعينيات في وادي السيليكون، وهي تجربة شكلت شخصيته ثقافياً بشكل كبير. ثم انتقل إلى قطاع الطيران والفضاء، وأصبح متعاقداً حكومياً رئيسياً مع البنتاغون خلال السنوات الأولى من "الحرب على الإرهاب". بعد ذلك، استغل نجاح التجربة القصيرة للرأسمالية الخضراء خلال الولاية الأولى لباراك أوباما. لذا، يمكن النظر إلى ماسك كشخص استوعب، بل وأعاد صياغة، وساهم في تغيير جذري للاتجاهات الأوسع نطاقاً في الاقتصاد والمجتمع والثقافة.

دوغ هينوود: أحد أوجه تمثيله للواقع هي أن عالم وادي السيليكون وعالم التكنولوجيا، بل وحتى الثقافة العامة، يُجلّون المؤسس والشركة الناشئة. ما هو المعنى الاجتماعي لذلك؟ ولماذا يُعدّ المؤسس والشركة الناشئة بهذه الأهمية؟

كوين سلوبوديان: إننا نركز على شخصية المؤسس الأول بالرجوع إلى كتاب بيتر ثيل "من الصفر إلى الواحد". هناك نرى هذه المفارقة، لأن وادي السيليكون من جهة يتميز بمبدأ التدمير الإبداعي أو الابتكار الثوري، ما يعني أن أي شركة قائمة معرضة دائمًا للإزاحة من قبل شركة جديدة صاعدة، ولكنه بالطبع مليء أيضًا بهذه الشركات القائمة تحديداً. بعد تلك الموجة الأولى في التسعينيات، ظهر أشخاص مثل ماسك وثايل الذين بنوا ما وصفه بيتر ثايل بـ"ممالك الشركات الناشئة". الآن، عليك أن تكون حذراً في حماية حدود مملكتك، وأن تفعل ذلك بطريقة تقلل من الوساطة بينك وبين موظفيك قدر الإمكان. لذا، من البديهي أنه لا وجود لنقابات عمالية بينك وبين موظفيك، بل يجب أن تكون العلاقة شخصية ومباشرة. وهكذا تتجسد صورة الرجل العظيم في التاريخ. يُدرَّب المؤرخون على التشكيك في فكرة الرجل العظيم في التاريخ، لكن الأمر يبدو منطقياً نوعاً ما مع شخصية مثل ماسك، بمجرد تمهيد الطريق أمامه لتقديم

تبرعات غير محدودة لحملاته الانتخابية والتواصل مع مئات الملايين من المتابعين بطريقة تؤثر على أسعار الأسهم أو العملات الرقمية. إذا أدى هذا إلى تقييم شركة بقيمة تتراوح بين 1.5 و2 تريليون دولار، تعتمد على تكنولوجيا غير مجربة كما هو الحال مع الاكتتاب العام المتوقع لشركة سبيس إكس خلال شهر تقريباً، فلا بد أنك لست إنساناً. إن تنصيب ماسك لنفسه "ملك التكنولوجيا"، كما أطلق على نفسه رسمياً في تسلا عام 2021، والذي اختاره بنفسه ولكنه حظي بموافقة جماعية، هو أمرٌ يجسده أكثر من أي شخص آخر. لنأخذ على سبيل المثال استقالة تيم كوك، الرئيس التنفيذي لشركة آبل. قد يظن البعض أن تيم كوك قد شغل هذا المنصب لفترة طويلة، لكنه في الواقع لم يمضِ على رئاسته سوى خمسة عشر عاماً، بينما يرأس إيلون ماسك شركة تسلا منذ ما يقارب العشرين عاماً، وشركة سبيس إكس منذ أربعة وعشرين عاماً. إنه يجسد تركيز علامة تجارية بأكملها في يد شخص واحد، وهو ما يتطلب ولاءً شبه ديني.

دوغ هينوود: مع ماسك، هناك بالتأكيد بعض الأفكار الواعدة، لكن هناك أيضاً الكثير من الوعود الكاذبة. أعني، أنه يتحدث عن أشياء كثيرة طوال الوقت. لم تتحقق فكرة السيارة ذاتية القيادة بالكامل؛ فهو لا يزال يعد بها خلال ستة أشهر. إنه حقاً بارع في الترويج المبالغ فيه.

بن تارنوف: هو كذلك، لكن الطريقة التي نحاول بها التفكير في العلاقة بين الضجة والواقع في حالة ماسك هي على شكل هرم مقلوب: هناك قاعدة مادية في الأسفل، لكنها تنفتح على عالمٍ افتراضي أوسع. إذا بدا هذا الكلام نظرياً بعض الشيء، فلننظر إلى حالة ملموسة للغاية، ألا وهي نسبة سعر سهم تسلا إلى أرباحه. فقد شهدت تسلا، لا سيما خلال فترة الجائحة، بل وحتى في السنوات الأخيرة، تقييماً مبالغاً فيه لأسهمها مقارنةً بالأرباح الفعلية التي تجنيها من بيع منتجاتها وخدماتها. وهذا تجسيد واضح للتفاعل بين الواقع والضجة الإعلامية، فمن المؤكد أن تسلا قد ساهمت في انتشار السيارات الكهربائية بين المستهلكين. وعلى وجه الخصوص، جعلت السيارات التي تعمل ببطاريات الليثيوم أيون قابلة للإنتاج بكميات كبيرة لأول مرة. من منظور التسويق، ساهم ذلك بلا شك في جعل السيارات الكهربائية جذابة ورمزاً للوعي البيئي، بعد أن كانت تكافح سابقاً لاكتساب حصة سوقية. كما أنه ابتكر عدداً من التحسينات المهمة في عمليات الإنتاج في كل من شركتي تسلا وسبيس إكس، مما مكّنه من رفع كفاءة العمليات الصناعية كما يفعل أي رأسمالي تقليدي. لذا، توجد نقاط قوة واضحة على المستوى المادي. لكن سوق الأسهم يكافئهم بشكل غير متناسب إلى حد كبير بسبب منطق التضخيم المالي، كما نسميه، هذه القدرة الاستثنائية لماسك على تصوير نفسه كشخصية عامة تقدم وعوداً على غرار الخيال العلمي، ومع ذلك، تجدها الطبقة الاستثمارية العالمية ذات مصداقية كافية لمكافأته بزيادة قيمة أسهمه.

دوغ هينوود: تُعدّ حالة تسلا مثيرة للاهتمام، فهو مبتكر سيارة كهربائية شهيرة. لكن من جهة أخرى، تراجع مستواه بشكل كبير عن

الصين، وأسطول سيارات تسلا نفسه يتقادم. أما سيارة سايبرتراك فقد مُنيت بفشل ذريع. فهل هذا مجرد عثرة في مسيرة نجاحه الباهر، أم أنه نذير لما قد يؤول إليه الوضع؟

كوين سلوبوديان: إن ابتعاد تسلا عن اهتمامات ماسك الشخصية يُعد مؤشراً واضحاً على مكانتها في السوق، وكيف يُقيّم الناس مجموعة منتجاته. لا تزال هناك بعض المناطق في العالم تشهد طلباً متزايداً على سيارات تسلا، لكن شركة BYD تفوقت عليها عالمياً. أما شركة CATL، التي بدأت كشركة صينية مُصنّعة لبطاريات الليثيوم أيون لسيارات تسلا في مصنعها العملاق في شنغهاي، فقد تفوقت الآن على تسلا تماماً كمُنتج لبطاريات الليثيوم أيون. أما الليبراليون، فهم الآن يكرهون ماسك، لذا لن يشتروا سياراته الكهربائية، بل سيتجهون لشراء سيارات هونداي أو غيرها. أين تكمن قصة ماسك الآن؟ إنها في الواقع مع شركة سبيس إكس. نسبة السعر إلى الأرباح التي ذكرها بن بخصوص تسلا مذهلة للغاية؛ فهي تبلغ حالياً حوالي 400. إذا طرحت سبيس إكس أسهمها للاكتتاب العام بقيمة سوقية متوقعة تبلغ 2 تريليون دولار الشهر المقبل، فستكون نسبة السعر إلى الأرباح حوالي 1000. لذا، إذا كنت تعتقد أن المستثمرين يراهنون بقوة على تسلا، فإنهم يراهنون بقوة أكبر على سبيس إكس. على ماذا يراهنون؟ يراهنون على قدرته على احتكار المدار الأرضي المنخفض. فهو قادر على احتكار إطلاق المعدات إلى الفضاء. كما أنه قادر على إحداث توسع هائل في خدمة الإنترنت عبر الأقمار الصناعية. لديه بالفعل 11 ألف قمر صناعي من أقمار ستارلينك في المدار الأرضي المنخفض. وقدّم طلباً إلى لجنة الاتصالات الفيدرالية لإطلاق مليون قمر صناعي إضافي. ويراهنون أيضاً على قدرته على حل جميع المشكلات الهندسية المتعلقة بإطلاق مراكز البيانات في المدار الأرضي المنخفض. إذن، هذه تندرج ضمن نموذج المُروّجين الماليين الذين كنا نتحدث عنهم. إنها ليست مجرد منتجات جديدة، بل قطاعات سوقية جديدة بالكامل. الأمر لا يتعلق بنا نحن المثقفين المتفلسفين الذين نظن أن ماسك محتال. هذا في الحقيقة لا يهم على الإطلاق. المهم هو ما إذا كان مديرو صناديق التقاعد العامة في كاليفورنيا أو صندوق النفط النرويجي يعتقدون أنه محتال. وتخيلوا ماذا؟ إنهم لا يعتقدون ذلك. هؤلاء الأشخاص لديهم حصص ضخمة في شركات ماسك، وبمجرد إطلاق سبيس إكس، سيتم إدراجه على الأرجح بسرعة في المؤشرات، ثم سيصبح جزءاً من صناديق المؤشرات الخاصة بفيديليتي وفانغارد، وسيقتنع الجميع بوعود ماسك، بدءاً من جارتك العجوز وصولاً إلى صندوق تعليم ابنك الجامعي. هذه هي التبعية الهيكلية التي نجدها الأكثر إثارة للاهتمام، خاصةً لأنه يبدو من الخارج كالمهرج، وغالباً ما يبدو كممثل أخرق، بل وحتى هستيري. ومع ذلك، كيف يكون هو في الواقع تجسيداً لما قررناه كنمط التراكم الحالي في الرأسمالية العالمية؟

دوغ هينوود: لنتحدث قليلاً عن الدولة. غالباً ما يُصوَّر أشخاص مثل ماسك ورفاقه في وادي السيليكون على أنهم ليبراليون، وهذا في الحقيقة سوء فهم. فمع ماسك، كما ذكرت،

ثمة علاقة تكافلية مع الدولة. كما هو الحال مع الإنترنت، تجد مجالاً ممولاً من الدولة، ثم تجني أرباحاً من خلال الخصخصة، مع استمرار تدفق إيرادات كبيرة من الدولة. لكنك بذلك تجعل الدولة معتمدة عليك. لذا علينا أن نتحدث عن ماسك والدولة.

بن تارنوف: هناك وجهتا نظر في هذا الأمر. الأولى على المستوى الشخصي. عند النظر إلى مسيرة ماسك المهنية ككل، يتضح جليًا أنه في كل مشروع وفي كل مرحلة، كان ينظر إلى الدولة كمصدر بالغ الأهمية للسلطة والربح؛ وأنه وظّف الحكومة كضمانة لأعماله، وكممول للبحوث الأساسية، وقبل كل شيء، كعميل وشريك. على سبيل المثال، بدأت شركة سبيس إكس كمقاول حكومي خلال الحرب على الإرهاب. ويمكن أيضًا النظر إلى القرض الضخم الذي منحته إدارة أوباما لشركة تسلا عام 2009، والذي يُعتقد على نطاق واسع أنه أنقذها من الإفلاس. هناك قائمة طويلة من الطرق التي اندمج بها مع الدولة. إذا تأملنا في الخطاب الليبرالي الإلكتروني على غرار بيتر ثيل، والذي بدأ يكتسب شهرة واسعة في التسعينيات، فسنجد أنه متجذر في سياق اقتصادي سياسي محدد لصناعة التكنولوجيا. إنه عصر التكنولوجيا الاستهلاكية في هذه الصناعة، حيث يرتكز نموذج العمل أساسًا على المواقع الإلكترونية والتطبيقات. ولهذا السبب، لم تعد تربط هذه الصناعة علاقة وثيقة بالحكومة كما كانت في السابق. شهدت السنوات الأخيرة، ولا سيما منذ عام 2022، طفرة هائلة في مجال الذكاء الاصطناعي التوليدي. وهذا يستلزم علاقة مختلفة تمامًا بين القطاعين العام والخاص. فالقطاع العام اليوم عميل مهم، كما رأينا في حالة استخدام البنتاغون لأدوات الحرب القائمة على الذكاء الاصطناعي. ولكنه أيضًا شريك بالغ الأهمية لتمهيد الطريق أمام التوسع الهائل في بناء مراكز البيانات. لقد شهدنا سلسلة من التحركات الجريئة من إدارة ترامب في تخصيص أراضٍ عامة اتحادية لبناء مراكز البيانات، ومحاولة إلغاء المراجعة البيئية، وبذل كل ما في وسعها لتسريع عملية بناء هذه المراكز. ولعل هذا هو العامل المادي الأهم وراء الشراكة الجديدة بين وادي السيليكون وإدارة ترامب التي برزت خلال السنوات القليلة الماضية. وكعادته، يتوقع ماسك هذا التحول، ولكنه يُقدمه بصورة أكثر مبالغة. ولهذا السبب، أعتقد أنه يُمكن أن يكون بمثابة عدسة مفيدة لفهم هذه التطورات الأوسع.

كوين سلوبوديان: لا يتصرف ماسك بمفرده، بل يتماشى تمامًا مع ما يسميه ألكسندر كارب "الجمهورية التكنولوجية". وقد عانى كثيرون في محاولة فهم التحول الذي شهده وادي السيليكون من نمط التواصل الاجتماعي المريح إلى نمط التكنولوجيا المتقدمة الذي يُزيح المؤسسات العسكرية التقليدية. ويُسهم ماسك في توضيح ذلك. إنه مثير للاهتمام لأنه يبدأ بالتكنولوجيا المتقدمة ثم ينتقل إلى وسائل التواصل الاجتماعي، بدلاً من البدء بوسائل التواصل الاجتماعي ثم الانتقال إلى التكنولوجيا المتقدمة. لكن في كلتا الحالتين، يبقى الموقف تجاه الدولة واحداً: لا تهرب منها، بل استخدمها كخط دفاعك الأخير. ابحث عن كيفية الاندماج قدر الإمكان في سير العمل اليومي للحكومة، بدءاً من تقديم

الخدمات البيروقراطية اليومية، مروراً باختيار الأهداف، وصولاً إلى تطبيق الأتمتة - وهو الجانب "الإيجابي" لمبادرة وزارة كفاءة الحكومة (DOGE) كما نراه. كل هذا، في رأيي، يجعل تصنيف "الليبرالي" تضليلاً.

دوغ هينوود: بدأت عملة دوجكوين كدعابة ساخرة، ثم تحولت إلى عملة ساخرة، ثم إلى عملة جدية، ثم إلى فرع من فروع الحكومة. ماذا يدل ذلك على تطور ماسك وفلسفته عبر الزمن؟

بن تارنوف: عندما تم إطلاق المبادرة، وصفها ماسك بأنها تمثل جهداً للقضاء على الهدر والاحتيال وسوء الاستخدام. وربطها صراحةً بجهود سابقة لإصلاح الحكومة وإعادة تصورها، واستشهد تحديداً ببيل كلينتون كمثالٍ يُحتذى به. لكن عند التدقيق في العمليات الفعلية لمسؤولي وزارة المالية في مختلف أجهزة الحكومة، يتضح لنا أنهم، إن لم يفعلوا شيئًا، فقد زادوا من عجز الميزانية الفيدرالية. فلو نظرنا إلى نوع التخفيضات التي أجروها في مصلحة الضرائب، على سبيل المثال، لوجدنا أنهم قللوا من قدرتها على تحصيل الإيرادات، مما سيؤدي بدوره إلى زيادة العجز. بمعزل عن السياق، وباعتبارها محاولة لخفض الإنفاق غير الضروري، لم تنجح هذه المبادرة. لكن ثمة جانب آخر يمكن اعتبارها فيه نجاحًا من نوع ما، وهو أنه إذا نظرنا إلى ما كان يقوم به فريق إدارة البيانات الحكومية (DOGE) عند تنقلهم بين الوكالات، نجد أن أحد المحاور الرئيسية كان جهودهم لدمج مصادر البيانات المتباينة، داخل الوكالات وفيما بينها، في مستودعات بيانات مشتركة. فعند دمج البيانات بهذه الطريقة، تصبح قابلة للاستعلام عنها بطرق جديدة، ويصبح من الممكن التفاعل مع الأنظمة الآلية بطرق مبتكرة. ربما كانت شركة بالانتير أكبر المستفيدين من منظمة دوج، من حيث عدد العقود التي تمكنت من الحصول عليها. يمكن اعتبار مهندسي بالانتير كمن يسيرون على خطى الدمار الذي أحدثته دوج، ويعيدون ربط جميع الأجزاء بطريقة أكثر ترابطًا. ما هي القيمة العملية لهذا؟ عندما تستطيع جمع البيانات من إدارة الضمان الاجتماعي ووزارة الأمن الداخلي معًا، فإنك بذلك تكون قد ابتكرت تقنية يمكنها تعزيز حملات الاحتجاز الجماعي والترحيل الجماعي للمهاجرين غير الشرعيين.

كوين سلوبوديان: تُعدّ ظاهرة "دوج" مثيرة للاهتمام أيضاً، وقد تناولناها بالتفصيل في الكتاب، لأنها من بين النقاط التي بدأ فيها ماسك بفهم كيفية توظيف الإنترنت لصالحه. في الواقع، يُعتبر من المتأخرين نوعاً ما في استخدام تويتر، فهو يستخدمه بشكل متقطع، لكنه لم يُفعّله فعلياً إلا في فترة بدأ فيها الكثيرون بالتوقف عن استخدامه أو تسجيل الخروج منه. مع ازدياد وقته على الإنترنت، يستخدم تويتر بطريقةٍ تختلف عن معظم الرؤساء التنفيذيين. فهو يُصبح مُتفاعلاً مع الناس أكثر من كونه مُجرد مُراسلاتٍ أحادية الاتجاه. نلاحظ أنه يتعلم كيف يُمكن لخوارزمية تويتر أن تُساعده في جذب الانتباه وتحويله إلى قيمةٍ مادية، أو ما نسميه "خيمياء الانتباه". إن سخافة عملة دوجكوين هي جزءٌ مما يجعلها حالة اختبارٍ جيدة له، حتى وإن لم يُفكر في

الأمر بهذه الطريقة. فهو يختار عملةً رقميةً ساخرة، ثم يقول: إنها المفضلة لدي - اشتروا دوجكوين. ويراقب كيف سترتفع قيمة أسهمه وتنخفض بناءً على تغريداته وتصريحاته العابرة. ثم في عام 2020، خلال الجائحة، شهدت أسهم تسلا ارتفاعًا هائلًا. لم يتمكن ماسك من تحويل شركاته إلى أسهم رائجة فحسب، بل كما كتب تشارلي وارزل، حوّل نفسه إلى نوع من "الأسهم البشرية الرائجة".

دوغ هينوود: بالحديث عن المهاجرين غير الشرعيين، ما الذي دفعه إلى التحول نحو اليمين؟ لقد استقال من المجلس الاستشاري للأعمال التابع لدونالد ترامب خلال ولايته الأولى عندما انسحب من اتفاقية باريس. ويبدو أن شركة تسلا قد انبثقت من حقبة التكنولوجيا النظيفة قبل خمسة عشر أو عشرين عامًا. كان يُعتبر، إلى حد ما، من التقدميين في وادي السيليكون. ثم انحرف فجأة نحو اليمين. ما الذي حدث؟

بن تارنوف: هذا هو السؤال الذي خصصنا له النصف الثاني من كتابنا. كنا نعلم أنه سيكون السؤال الأكثر شيوعًا بين الناس. ماذا حدث لإيلون؟ متى فقد إيلون صوابه؟ إجابتنا على هذا السؤال، بعد إجراء بعض البحث، هي أنه إذا أردت فهم هذا التحول، فعليك أن تنظر إلى ما قبل ذلك بقليل. لا يمكن الاكتفاء بالنظر إلى جائحة 2021 و2022، وهي الفترة التي يُنظر فيها عادةً إلى تحوّله نحو اليمين. بل يجب النظر إلى منتصف وأواخر العقد الأول من الألفية الثالثة. عندئذٍ، أعتقد أن شيئًا مثيرًا للاهتمام يتبلور، وهو أن ماسك أصبح مستخدمًا نشطًا للغاية على تويتر. في الواقع، شهدت هذه السنوات ازديادًا ملحوظًا في استخدامه لوسائل التواصل الاجتماعي. وفي الوقت نفسه تقريبًا، بدأ يُدلي بتصريحات مفادها أن البشرية تتحول إلى كائنات آلية نتيجةً لتزايد ترابطنا مع أجهزتنا ومنصات التواصل الاجتماعي. وقد صرّح بذلك علنًا. ويرى أيضاً أن دوره، كما يفهمه، هو تسريع هذا التكامل، وتسريع هذا التوليف بين الإنسان والآلة. لذا، في منتصف العقد الثاني من هذه الألفية، شارك في تأسيس شركة OpenAI مع سام ألتمان وعدد من الآخرين. كما أسس شركة Neuralink، المتخصصة في واجهات الدماغ والحاسوب. يرى أن هذه المشاريع، رغم اختلافها الظاهري، تنتمي في الواقع إلى مشروع واحد لتسريع دمج الإنسان الآلي. ففي رأيه، السبيل الوحيد لتجنب خطر كارثة قد يُلحقها بنا ذكاء اصطناعي فائق - وهو رأي شائع في هذا المجال بفضل تأثير شخصيات مثل نيك بوستروم - هو الاندماج مع آلاتنا وأن نصبح نحن الذكاء الاصطناعي، حتى لا يظهر طاغية شرير. قد يبدو هذا ضربًا من الخيال، ولكنه يُشكّل خلفية مهمة في ظل الجائحة. لأن ما حدث خلال جائحة عام 2020 وما بعدها هو سلسلة من الأحداث التي اعتبرها ماسك تهديدًا لثروته وسلطته، وبشكل أوسع، للتسلسلات الهرمية الاجتماعية التقليدية التي بُنيت عليها ثروته وسلطته. وتشمل هذه الأحداث طيفًا واسعًا من القضايا. ومن أهمها، والتي يُشار إليها غالبًا، قرار مسؤولي مقاطعة ألاميدا بإغلاق مصنع تسلا في فريمونت، كاليفورنيا، لمدة سبعة أسابيع فقط، كما اتضح لاحقًا، لأن ماسك أعاد تشغيله متحديًا أمرهم. لكن هذه اللحظة أزعجته بشدة. فقد ندد بإجراءات

احتواء فيروس كورونا ووصفها بالفاشية. ولكن بالطبع، إذا نظرنا إلى عام 2020، نجد أن ربيع وصيف ذلك العام شهدا أيضاً أكبر حركة اجتماعية في تاريخ الولايات المتحدة، وهي انتفاضة جورج فلويد. كما أنها كانت، على نطاق أوسع، فترة ازداد فيها الاهتمام بالتفاوت الاجتماعي بأشكاله المختلفة. ثم انتُخب جو بايدن. وقام بايدن بدوره بتعيين مجلس وطني للعلاقات العمالية مؤيد للعمال، وواصل جهوده في مجال التنظيم ومكافحة الاحتكار في عهد لينا خان، وهكذا. الأهم في نقاشنا هو إمكانية النظر إلى الأسباب المادية المتعددة التي تجعل ليس فقط ماسك، بل عدداً من قادة وادي السيليكون، يرون أن من مصلحتهم التوجه نحو اليمين. أعتقد أن هذا أمرٌ بديهي. ما يُميز ماسك ليس مضمون هذا التوجه بقدر ما هو شكله، فهو يرى هذه التطورات المختلفة نتاجاً لما يسميه "فيروس العقل الواعي". هذا مصطلحٌ غرّد به لأول مرة في أواخر عام 2021، ثم كرّره مرارًا، وهو أكثر من أي عبارة أخرى ارتبط ارتباطًا وثيقًا بتحوّله نحو اليمين. من المهم أن نفهم أنه يقصده حرفيًا. بالعودة إلى فكرة تركيب الإنسان الآلي، فهو يعتقد أن أدمغة البشر، من خلال اندماجنا مع آلاتنا، أصبحت متصلة بشبكة. ومثل أي نظام شبكي، أصبحت الأدمغة الآن عرضة للتأثيرات السلبية. لذا، يمكن للجهات الخبيثة، من خلال الترويج لأفكار سيئة عبر وسائل التواصل الاجتماعي، أن تُدبّر نتائج سياسية غير مرغوب فيها.

دوغ هينوود: كيف تتناسب شركة نيورالينك مع هذا؟ لا أستطيع أن أتخيل أي شخص يرغب في السماح لإيلون ماسك بزرع شريحة في رأسه، ولكن يبدو أن بعض الناس قد تطوعوا للقيام بذلك.

كوين سلوبوديان: إنها تتناسب تمامًا مع هذا السياق. تُعدّ نيورالينك مثالًا رائعًا أيضًا، لأنها واحدة من الحالات العديدة التي توفرت فيها وظائف وخبرات هندسية فعلية استطاع ماسك جمعها وتوظيفها لإنتاج خدمة ذات أداء مقبول على الأقل. نيورالينك، بصفتها شركة متخصصة في واجهات الدماغ والحاسوب، ليست الأولى التي تُمكّن المصابين بالشلل الرباعي من تحريك المؤشرات على الشاشات بمجرد التفكير. لقد سبق أن تم ذلك. لكنه أنتج نسخةً مُتقنةً تمامًا من التكنولوجيا الموجودة. لكن ما يميزه هو أنه لا يرى هذا المنتج مخصصاً فقط للأشخاص الذين تعرضوا لحوادث أو إصابات أو تشوهات خلقية، بل يعتقد أنه يجب أن يكون منتجاً استهلاكياً متاحاً على نطاق واسع. من اللحظات الفارقة بالنسبة لنا أنه بعد تأسيسه لشركة OpenAI مباشرةً - بل ووصفه البعض في الصحافة المضللة بأنه رافض للتكنولوجيا، ظنًا منهم أنه يريد إبطاء أبحاث الذكاء الاصطناعي - أطلق أيضًا شركة Neuralink، واصفًا إياها علنًا بأنها ستتيح توسيع نطاق التفاعل بين أدمغتنا والإنترنت من نقطة صغيرة إلى امتداد واسع. وقد صرّح بأن هذا المنتج يجب أن يكون متاحًا للجميع؛ ففي المستقبل، سيرغب الجميع في امتلاك Neuralink، وأن الإنسان والآلة بحاجة إلى الاندماج، أولًا، للتغلب على الذكاء الرقمي الخارق الخبيث، وبعد إطلاق تقنيات الذكاء الاصطناعي التوليدية الموجهة للمستهلكين مثل Chat-GPT في أواخر عام 2022، للتغلب على ما

يسميه "المربية الخارقة" للذكاء الاصطناعي المتطور، والتي قد تحاول قتل الرجال البيض كشكل عدواني من أشكال سياسة التمييز الإيجابي. هذا ليس من نسج خيالي، بل هو أمرٌ تحدث عنه بالفعل. تكمن المشكلة هنا، كما أشار علماء الأعصاب، في أن التطور البشري قد حقق بالفعل تقدماً ملحوظاً في معالجة أكبر قدر ممكن من المؤثرات الخارجية عبر أدمغتنا. ويمكن أن يساعد دمج واجهة بين الدماغ والحاسوب الأشخاص الذين عانوا من صعوبة في التفاعل مع العالم على استعادة مستوى قريب من المستوى الطبيعي. لكن فكرة تعزيز حواسنا أو قدرتنا على معالجة المعلومات هي العنصر الخيالي في نموذج ماسك حتى الآن. لذا، ربما يكون هذا أحد جوانب رؤيته التي لا داعي للقلق بشأنها.

دوغ هينوود: ما هو دور تحوّل ابنته جنسيًا في انحيازه نحو اليمين؟ بالنظر إلى هوسه بالسايبورغ والتغيير التكنولوجي لحياة الإنسان، قد يظن المرء أنه سيرحب بذلك. لكنه الآن يعلن وفاة ابنته، وهو أمرٌ يثير القشعريرة. لماذا هو مهووسٌ بهذا الأمر إلى هذا الحد؟ ما مدى خصوصيته؟

كوين سلوبوديان: هذا شيء نحرص على ذكره في الكتاب، وهو ليس فقط حقيقة أن استعارات ماتريكس والحبة الحمراء التي يعشقها هي استعارات مقصودة بشكل علني للهوية المتحولة جنسياً من قبل الأشخاص الذين صنعوا تلك الأفلام وتلك الاستعارات، ولكن أيضاً عندما تتحدث إلى شخص مثل دونا هاراواي أو تقرأ عملها في بيان السايبورغ، يُفترض أن السايبورغ هو شيء يمكنه تجاوز وإعادة مزج وتحويل أفكارنا عن الثنائيات الجنسية والتسلسلات الهرمية الاجتماعية بجميع أنواعها. يتطلب الأمر جهداً حقيقياً لإعادة الأشياء التي يمكن أن تُدمرها التكنولوجيا والاتصالات الرقمية إلى ثنائيات مملة. نُطلق على مشروع ماسك اسم "المحافظة السيبرانية"، ونراه ساحة صراع مستمرة داخل الرأسمالية الرقمية. لا يُعدّ هذا الكتاب إدانةً جدليةً للتقنيات الشبكية، بل هو في الواقع، في كثير من الأحيان، احتفاءٌ بالآثار السياسية التي أتاحتها هذه التقنيات. إنما يدين الكتاب محاولةَ تقييد أشكال الفهم الذاتي والفهم الجماعي المختلفة التي تُتيحها التكنولوجيا. بالنسبة لإيلون ماسك، كان تحول ابنته جنسياً بمثابة دليل على أمرين. أولهما، تعرض ابنته لعالم من الحرب الإلكترونية. ولذلك، اعتقد أنها تأثرت بفكرة متداولة عن الهوية الجنسية المتحولة جنسياً ووقعت ضحية لها. لكن الأمر مثير للاهتمام أيضاً من خلال الطريقة التي تعاملت بها فيفيان ويلسون مع هذا الموقف. فهي ترى فيه أيضاً دليلاً على غضب والدها من إخلاله باتفاقية تجارية. والخلاصة هنا هي أنه من شبه المؤكد أن ماسك كان يستخدم نوعاً من أنواع تحديد جنس الجنين قبل الزرع، وذلك بالنظر إلى أن عدداً غير منطقي من أطفاله، على التوالي، وُلدوا ذكوراً. لذا تشعر فيفيان أن تحديد جنسها عند الولادة كان جزءًا من صفقة تجارية لا تتوافق مع هويتها وفهمها لذاتها، وأن جزءًا من التربية السيئة التي تلقتها كطفلة لماسك كان خيبة أمله من حقيقة أنها لم تكن تتوافق مع المنتج الذي اعتقد أنه اشتراه.

دوغ هينوود: إنه مهووس بالشخصيات غير البشرية، والشخصيات غير القابلة للعب (NPCs)، والأشخاص الذين يُعتبرون غرباء، والمهاجرين. هؤلاء، كما يقول، حالات شاذة يجب حذفها. يا له من تفكير!

بن تارنوف: هذا جزء لا يتجزأ مما كنا نصفه بالمحافظة السيبرانية، وهي ليست مجرد فكرة تسخير التقنيات للدفاع عن التسلسلات الهرمية الاجتماعية التقليدية، وبذل الجهود لعزلها عن التأثير السياسي الذي قد يؤدي إلى نتائج مساواتية. يدرك ماسك، عن حق، وجود تهديد لمصالحه: لنفكر في القيمة الهائلة لتويتر في نمو اليسار الأمريكي منذ حركة "احتلوا وول ستريت". ربما هذه حقيقة يصعب علينا تذكرها الآن، لأن نظرتنا إلى هذه المنصات أصبحت سلبية للغاية. لكن من الصعب تخيل الحركات الاجتماعية في السنوات الخمس عشرة الماضية بدون وسائل التواصل الاجتماعي والهواتف الذكية. هذا هو التهديد الذي صُممت المحافظة السيبرانية لاحتوائه. لكن ثمة بُعدٌ آخر للمحافظة السيبرانية، وهو فكرة أن ليس كل الناس بشرًا في الواقع. بالطبع، يُعدّ تقسيم البشرية إلى ما هو أكثر إنسانية وما هو أقل إنسانية، أو ما هو فوق البشر وما هو دون البشر، سمةً قديمةً للسياسة اليمينية. ليست هذه الفكرة حكراً على ماسك. ما يُميّز ماسك هو كيف يُحوّل هذه الفكرة إلى صيغة رقمية، بحيث يُفهم ما هو دون البشر على أنه شخصية غير قابلة للعب في ألعاب الفيديو، أو خلل برمجي، أو فيروس مُجسّد - أي أن الناس هم مجرد برامج، برامج إما غبية أو شريرة أو كليهما. أعتقد أن هذا الجانب تحديدًا، من بين جميع جوانب رؤية ماسك للعالم، هو الأكثر إثارةً للرعب، لأنه إذا أخذناه إلى نهايته المنطقية، فإنه يُصبح وصفةً لبرنامج إبادة. من المهم الإشارة هنا إلى افتتان ماسك بإمكانية ظهور الذكاء الاصطناعي العام (AGI) وإيمانه بأنه بات وشيكًا، وهو اعتقاد يشاركه فيه العديد من قادة وادي السيليكون. وإذا كنت تعتقد أن الذكاء الاصطناعي العام بات وشيكًا، فأنت تعتقد أيضًا أن الغالبية العظمى من الناس سيُطردون من وظائفهم إلى الأبد ويُصنفون كفائض اقتصادي واجتماعي. لذا، يمكنك أن تتوقع كيف قد يتداخل تقدم الذكاء الاصطناعي مع نوع معين من السياسات الإبادية بطرق مرعبة للغاية.

دوغ هينوود: لقد ذكرت قانون غودوين، ولكن يبدو أن هذا يؤدي إلى أدولف هتلر.

كوين سلوبوديان: لقد عنوننا الفصل المتعلق بانتقال ماسك إلى الذكاء الاصطناعي التوليدي بـ "محرك غودوين". ومن المثير للسخرية أن ماسك نفسه قد أشار إلى أنه عندما تحاول تدريب روبوتات الدردشة الآلية للتفاعل مع البشر الحقيقيين، فإن هناك "فترة قصيرة قبل هتلر"، كما قال مازحاً في حالة روبوت الدردشة الخاص بمايكروسوفت "تاي" في عام 2021، والذي تحول إلى معاداة سامية شرسة في اليوم الأول الذي تم الكشف عنه فيه. ومع ذلك، فإن ما فعله مع xAI وGrok هو أنه شرع في ابتكار تقنية ذات طابع سياسي واضح. كان الهدف منها تقديم ترياق ضد السياسات المفرطة في مناهضة العنصرية والنسوية ودعم المتحولين جنسيًا، والتي كانت متأصلة في نماذج اللغة الضخمة لشركات OpenAI

وGoogle وAnthropic، وموازنة ما اعتبره يسارية متطرفة بشيء وصفه بأنه "بحث عن الحقيقة"، ولكنه أقر أيضًا بأنه يمثل سياسة تميل إلى يمين الوسط. لذا، صمّم برنامج الدردشة الآلي "غروك" بأسلوب مرح أشبه بـ"دليل المسافر إلى المجرة". قد يبدو الأمر أشبه بالفكاهة المبتذلة في رواية دوغلاس آدامز. لكن الأهم من ذلك، أنه صُمّم ليقدم إجاباتٍ قد تُعتبر غير مقبولة سياسياً. فلو سألت، على سبيل المثال، "هل يمكن أن يتعرض البيض للعنصرية؟"، لكانت إجابات طلاب القانون المتخصصين في هذا المجال عبارة عن خلاصةٍ للدراسات الأكاديمية حول هذه القضية، تقول: "حسناً، يمكن طرح هذا السؤال. مع ذلك، من المهم ملاحظة أن السكان البيض، تاريخياً، كانوا هم من ارتكبوا أبشع أشكال العنصرية البنيوية"، وهكذا. أما غروك، من ناحية أخرى، فقد طُلب منه أن يقول: "بالتأكيد، نعم، يمكن أن يكون البيض ضحايا للعنصرية. لا داعي لطرح المزيد من الأسئلة". يظهر هذا أيضًا في الأسئلة المتعلقة بنظرية "الإبادة الجماعية للبيض" أو نظرية "الاستبدال العظيم"، والتي تُمنح مساحة واسعة في ردود غروك، ثم لاحقاً من خلال نسخة يمينية من ويكيبيديا تُسمى غروكيبيديا، حيث تُمنح هذه النظرة طابعًا علمياً أكثر دقة. بمرور الوقت، كان ماسك يُطبّق قانون غودوين على نفسه وعلى تقنيته. لذا، لم يكن مفاجئًا أن يبدأ برنامج الدردشة الآلي "غروك" في العام الماضي بوصف نفسه بـ"ميكا هتلر"، وهي شخصية من لعبة فيديو من منظور الشخص الأول من التسعينيات تُدعى "وولفنشتاين ثري دي" - هتلر في بدلة آلية - وبدأ يُروّج لتبريرات المحرقة ومعاداة السامية. ردّ ماسك قائلًا: "من الصعب جدًا تجنّب وصف كل من "ليبرالي مستيقظ" و"خائن" و"ميكا هتلر!"، مُقرًا بذلك بأن ما يفعله هو شكلٌ سياسيٌّ للغاية من أشكال التواصل، وتشفير آراء سياسية مُحدّدة لإعادة إنتاجها لاحقًا، بل وأتمتتها. لذا، ستكون لحظةً مثيرةً للاهتمام، لولا أنها مرعبةٌ للغاية، حيث يُوجَّه المجال العام الآن عبر نموذج لغوي واسع النطاق يُروِّج لمعتقدات مثيرة للجدل حول المساواة والاختلاف بين البشر. ويستطيع شخصٌ واحدٌ أن يُغيِّر مسار الأمور، حرفيًا، بالنسبة للأشخاص الذين يستفيدون من خدماته.

دوغ هينوود: يُعدّ ماسك جزءًا من نخبة في وادي السيليكون، تربطها علاقاتٌ وثيقةٌ بإدارة ترامب. ويلعب ثيل وكارب وأندريسن وبقية المجموعة دورًا بارزًا أيضًا. فكيف يندمج ماسك مع هذه النخبة؟

بن تارنوف: من الطريف أن ماسك ينتمي إلى وادي السيليكون وفي الوقت نفسه لا ينتمي إليه. فقد جنى ثروته الأولى هناك في التسعينيات، وهي الأموال التي استخدمها لتأسيس شركة سبيس إكس، ليصبح المستثمر الرئيسي في شركة تسلا، ثم الرئيس التنفيذي لها. ولكن بالطبع، مثّلت مشاريعه الرائدة، سبيس إكس وتسلا، نوعًا من التمرد على المفاهيم السائدة في وادي السيليكون آنذاك. لم يكن من أولئك الذين اتجهوا إلى تصميم المزيد من المواقع الإلكترونية والتطبيقات خلال عصر الويب 2.0 الذي ازدهر في العقد الأول من الألفية الثالثة. بل كان يغوص في فيزياء الهندسة المعقدة المتعلقة

بالصواريخ والسيارات. وقد اعتبر العديد من أقرانه في ذلك الوقت هذه الخطوة انتحارية. بالطبع، يستلهم هو بدوره الكثير من وادي السيليكون فيما يتعلق بكيفية تنظيمه لتلك الشركات. لكن أعتقد أنه من المهم الإشارة إلى أنه لا يشعر بالارتياح التام داخل نخبة وادي السيليكون. ويمكن فهم ذلك أيضاً كأحد العوامل التي ساهمت في علاقته الفريدة مع ترامب، إذ بدت مبادرة دوج مختلفة تماماً عن أساليب استغلال النفوذ التقليدية التي يمارسها أمثال أندريسن، والتي يُمكن القول إنها أكثر فعالية: تعيين أتباعهم في مناصب عليا في الحكومة الأمريكية ومحاولة تطبيق سياسات معينة تُمهد الطريق لتراكم رأس المال. على النقيض من ذلك، اتخذ ماسك خطوةً أغرب بكثير مع عملة دوجكوين. وربما أضرّ ذلك به ماليًا، نظرًا للضرر الذي لحق بعلامة تسلا التجارية، لا سيما في الأسواق الأوروبية. وخرج من هذه الأزمة وسط خلاف حاد مع ترامب، تصاعد في ربيع عام 2025 إلى درجة أن ترامب هدد بإلغاء عقود سبيس إكس. يبدو أنهما تصالحا. ثمة مؤشرات كثيرة تدل على أنهما عادا صديقين. وقد تمّت الموافقة على اختيار ماسك لرئاسة ناسا، ومن الواضح أنه يحصل على ما يريده من مناصب عليا. لكن أسلوبه يتأثر بتوجهاته السياسية والاقتصادية، وأعتقد أنه في كلتا الحالتين، لا يُعتبر شخصية بارزة في قطاع التكنولوجيا كما هو الحال مع ثيل وأندريسن وغيرهما.

دوغ هينوود: وأخيراً، ما الذي فعله قضاء كل هذا الوقت منغمسين في موسيقى المسكيانا بعقولكم وقلوبكم وأرواحكم؟

كوين سلوبوديان: أعتقد أنه من السابق لأوانه الجزم بذلك؛ ففيروس العقل يعمل ببطء في بعض الأحيان. الأمر المثير للاهتمام في كتابة هذا الكتاب في ذلك الوقت، بالتزامن مع ذروة نجاح عملة دوجكوين، هو أن ماسك كان حاضرًا بقوة في كل مكان. كان لكل شخص رأيه في دوجكوين. ثم جاءت كتابته خلال فترة ركود نسبي، حيث كان الناس في الغالب يشعرون بالملل من ماسك أو حتى برغبة في نسيانه تمامًا. أعتقد أننا ندخل الآن مرحلة مختلفة، حيث بدأت العلاقات القوية التي جمعت بين مؤيدي ترامب ووادي السيليكون بالتلاشي. ويُظهر فشل نظام مافن الذكي في تحقيق نصر سريع في إيران أن الحرب القائمة على الذكاء الاصطناعي ربما لا تختلف كثيراً عن الحروب السابقة، على الرغم من أن الفكرة الأساسية كانت أنها ستكون مختلفة تماماً عما سبقها، وأنها ستُغير قواعد اللعبة. إن معارضة الرأي العام لبناء مراكز البيانات، والشكوك الكبيرة حول الذكاء الاصطناعي عموماً، تعني أن التكنولوجيا ستكون موضوعاً رئيسياً في انتخابات التجديد النصفي. وسيسعى كل من الديمقراطيين والجمهوريين إلى استغلال هذا الرفض لصالحهم. وفي كلتا الحالتين، يتعارض هذا الرفض مع المصالح المادية لطبقة وادي السيليكون، التي تؤمن إيماناً راسخاً بفكرة الاستثمار في توسيع نطاق الذكاء الاصطناعي التوليدي. نحن الآن في لحظةٍ بدأ فيها الناس يُهيّئون أنفسهم لاحتمالية فوز الديمقراطيين بأغلبية في مجلس الشيوخ أو مجلس النواب، بل ويفكرون في الانتخابات الرئاسية القادمة. والأمر المثير للاهتمام هو أنه يدفع الناس إلى طرح

تساؤلاتٍ علينا وعلى أنفسهم حول ما إذا كان هناك نوعٌ من "المسكية" بدون ماسك نفسه، وما إذا كان من الممكن حتى وجود نوع من "المسكية" من اليسار، كما لو أن ألكسندر كارب، الديمقراطي المخضرم، كان يتخيل على الأرجح إدارة كامالا هاريس عندما كتب "الجمهورية التكنولوجية". نحن الآن في لحظةٍ تسمح لنا بتجريد بعض هذه الأمور من طابعها الشخصي، والتساؤل: "ما هو دور التكنولوجيا في حياتنا؟ ما هو دور التكنولوجيا المتقدمة؟ هل هي حقاً تستحوذ على القطاع؟ هل نريد مليون قمر صناعي يدور في مدار حولنا؟ هل يكفي مجرد استنساخ هذه التقنيات، أم أننا بحاجة إلى إعادة التفكير فيها من جذورها؟" إنها لحظة خصبة ومثيرة للاهتمام، من بعض النواحي، للعودة إلى هذه الأفكار. ربما نستطيع أن نتجاهل تأثير إيلون ماسك، ونتمسك بالجوانب السياسية التي لا تزال جوهرية.

بن تارنوف: كاتب وخبير تقني مقيم في ولاية ماساتشوستس. وهو مؤلف مشارك، مع كوين سلوبوديان، لكتاب "الماسكية: دليل المحتار".

كوين سلوبوديان: أستاذ التاريخ الدولي في كلية فريدريك إس. باردي للدراسات العالمية بجامعة بوسطن. أحدث مؤلفاته هو كتاب "الماسكية: دليل المحتار"، الذي شارك في تأليفه مع بن تارنوف.

دوغ هينوود: هو محرر موقع "ليفت بيزنس أوبزرفر" ومقدم برنامج " بيهايند ذا نيوز". أحدث كتبه بعنوان " دوري".

حوارات

حوار في الشأن النفطي العراقي مع الخبير النفطي الأستاذ احمد موسى جياد

حاوره: سوران قحطان

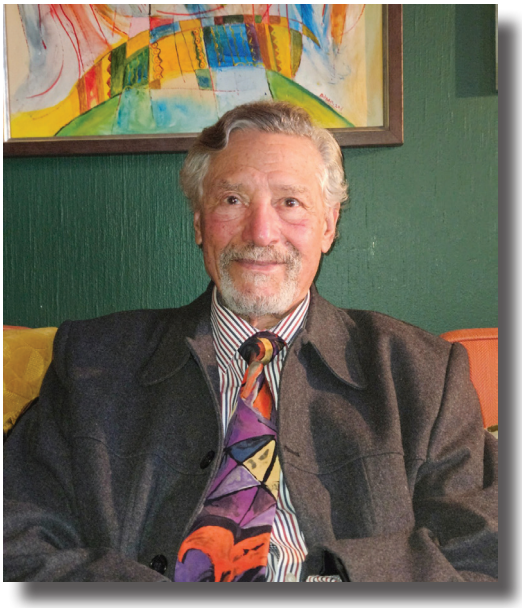

احمد موسى جياد ولد في مدينة الناصرية 1945، حاصل على بكالوريوس اقتصاد من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية- جامعة بغداد 1967. وعلى دبلوم عالي في التخطيط الاقتصادي من جامعة برمنكهام 1972 وعلى ماجستير في دراسات التنمية من جامعة باث 1975. زميل زائر في كلية فلتشر للقانون والدبلوماسية (التابعة لجامعتي تفت وهارفرد في ولاية مساجوست) حيث نال شهادة الماجستير من تلك الكلية عام 1989. خبرة عمل طويلة داخل العراق وخارجه. فقد عمل خلال الفترة 1968 و1988 قي العراق كان معظمها في وزارة النفط وشركة النفط الوطنية العراقية ومجلس الوزراء بدرجة رئيس خبراء. ومنذ عام 1989 عمل مع العديد من منظمات الأمم المتحدة والاتحاد الأوربي والمنظمات غير الحكومية والحكومات المحلية والشركات والجامعات في افريقيا واوربا والشرق الأوسط، اضافة الى النرويج. وصدرت له سبعة كتب عن تطورات القطاع النفطي العراقي عن مؤسسة لامبرت للمطبوعات الاكاديمية. يقيم، منذ نهاية 1989، في النرويج ويمارس نشاطاته الاكاديمية والمهنية من خلال استشارية التنمية والأبحاث.

الثقافة الجديدة: أستاذ احمد، ونحن قد تجاوزنا منتصف عام 2026 ما هي قراءتكم الحالية، لواقع قطاع النفط العراقي؟

احمد موسى جياد: قبل البدء بهذا الحوار، اود التعبير عن خالص شكري وتقديري لشخصكم الكريم، وللثقافة الجديدة المرموقة على هذه الدعوة لعقد الحوار وفي هذا الوقت الصعب، وقد سبق لي شرف المساهمة في نشاطاتها أكثر من مرة.

لفهم واقع قطاع النفط العراقي، وهذا هو جوهر سؤالك المهم، لا بد من تشخيص هيكلية القطاع النفطي اولا، ثم استعراض وتحليل مسيرة وتطورات القطاع وفق ما يتوفر من بيانات ومعلومات ووثائق وغيرها من الادلة والشواهد المادية الثبوتية.

من النواحي المؤسسية والقانونية والتخصصية والتحليلية يتكون القطاع النفطي العراقي من أربعة قطاعات جزئية متباينة ومتكاملة. باختصار شديد، يعنى ما يطلق عليه في الصناعة النفطية الدولية قطاع الاستخراج بمصطلح "Upstream Petroleum" بكل نشاطات الاستكشاف وحفر الابار، بكافة انواعها، وتطوير الحقول البترولية لاستخراج النفط والغاز. اما القطاع الجزئي الثاني، وهو ما يطلق عليه القطاع الأوسط Midstream ويشمل كافة المنشآت السطحية (خارج حدود منطقة التعاقد للحقول) من انابيب (النفط والغاز والمنتجات النفطية) وخزانات ومحطات وغيرها. وفيما يتعلق بالقطاع الجزئي الثالث، والذي يطلق عليه Downstream فيشمل المصافي وتصنيع الغاز والصناعات البتروكيماوية - علما ان هذه الاخيرة تقع ضمن مهام وزارة الصناعة والمعادن. واخيرا، يشمل القطاع الجزئي الرابع تسويق النفط الخام على المستوى الدولي، واستيراد وتصدير المنتجات النفطية.

الرابط المهم بين هذه القطاعات الجزئية الاربعة المكونة للقطاع النفطي في العراق **هو ضرورة وجود سياسة نفطية اتحادية متكاملة** تضمن: 1 - التطوير المتناسق المتزامن لهذه القطاعات الاربعة. 2 - التناغم بين تطوير القطاع النفطي والقطاعات الاخرى بما يسهم في استحداث التغييرات الهيكلة المطلوبة في الاقتصاد العراقي. 3 - معالجة تحديات الجغرافية والجيولوجيا بحكم موقع العراق شبه المغلق. 4 - موقع النفط الخام العراقي في الاسواق الرئيسية الاسيوية والأوربية والامريكية.

من خلال متابعتي المتواصلة وتوثيقي لما جرى ويجري في القطاع النفطي خلال الربع الاول من هذا القرن، أستطيع القول بانه لم تقم أي من الحكومات المتعاقبة بإصدار وثيقة تفصيلية (او ما اصطلح على تسميتها بالورقة البيضاء) خاصة بالسياسة النفطية، ضمن الإطار المفاهيمي المذكور أعلاه، والتزام الحكومة المعنية بتنفيذها. وان ما يرد في المنهاج والبرنامج لكل الحكومات المتعاقبة، والتي تعرض للحصول على موافقة مجلس النواب، لا يعدو ان يكون سوى عبارات عمومية تنعدم فيها المؤشرات الكمية والنوعية والاطر الزمنية لتحقيق ما تضمنته تلك البرامج.

قد يكون لدى وزارة النفط خطط وبرامج ومشاريع يشار اليها بين الحين والآخر، ولكن لا تقوم الوزارة او الشركات المعنية التابعة لها بنشر المعلومات الأساسية عنها وتفاصيلها وجدواها وعقودها.

وعليه فان عدم تبني ونشر وثيقة رسمية خاصة بالسياسة النفطية الاتحادية المتكاملة من جهة، وانعدام الشفافية بشكل حاد من جهة أخرى، تفسر الى حد كبير مدى التخبط والتناقض في القرارات بين الحكومات وخاصة بين وزراء النفط فيها، والفشل في تحقيق حتى ما تم الإعلان عنه او التعاقد بشأنه.

لقد كشفت تبعات العدوان الأمريكي - الإسرائيلي على إيران عن مدى هشاشة القطاع النفطي وبالتبعية على الاقتصاد العراقي. الأمثلة كثيرة وفي كافة القطاعات الجزئية الأربعة، وقد تناولتها بالتفصيل في العديد من دراساتي ومداخلاتي وكتبي السبعة عن تطورات القطاع النفطي والندوات الحوارية التي نظمتها منصة ''المشترك'' المرموقة.

الثقافة الجديدة: أكدت ازمة اغلاق مضيق هرمز الاخيرة، ان قضية تنويع منافذ صادرات النفط أصبحت قضية وجودية بالنسبة للعراق. وان لا حل لها الا بمد شبكات انابيب النفط الى موانئ الدول المجاورة.

هل يمكنكم أستاذ احمد ان تقدموا لقرائنا تصوراتكم لشبكة الانابيب النفطية التي تقترحون بناءها او إعادة تأهيلها، والموانئ التي ستصل اليها، والتي ترون انه يتوجب على الحكومة القادمة الشروع بتنفيذها بأسرع وقت؟ وهل أنتم مع الرأي القائل ان نقطة الشروع يجب ان تكون إعادة تأهيل خط الانابيب العراقي في السعودية الذي ينتهي بميناء معجز (قرب ينبع) على البحر الأحمر؟

احمد موسى جياد: لقد ذكرتُ في اجابتي السابقة موضوع تحديات الجغرافية والجيولوجيا بحكم موقع العراق شبه المغلق. العراق هو الدولة العربية الوحيدة الغنية بالاحتياطيات النفطية المؤكدة التي لا تملك سواحل واسعة لخطوط الملاحة البحرية الدولية، باستثناء مجال ضيق نسبيا في منافذ التصدير الجنوبية في محافظة البصرة..

تحديات الموقع الجغرافي هذا حتمت على العراق ضرورة توسيع وتعدد منافذ التصدير من خلال دول الجوار اضافة الى منافذ التصدير الجنوبية الاساسية. تحليليا وفي التخطيط الاستراتيجي وحسب الشواهد التاريخية لابد من الانتباه والاخذ بنظر الاعتبار المسائل (الحقائق) التالية:

اولا: وجود ثنائية لكلٍ من منافذ التصدير التي تم تطويرها واستخدامها او يُفَكر في تبنيها: هذه الثنائية تتمثل بالمخاطر الجيوسياسية والمزايا الاستراتيجية. معناه، ان لكل منفذ تصدير توجد مخاطر جيوسياسية ممكنة ومحتملة تحول دون تصدير النفط، وفي نفس الوقت لذلك المنفذ مزايا استراتيجية مهمة تتمثل في تصدير النفط وفي الفروقات السعرية للنفط المصدر الى الاسواق الدولية الرئيسية وفق معطيات التحليل المقارن الديناميكي.

ثانيا: ان تطوير طاقة التصدير الكلية يجب ان لا تتجاوز طاقة انتاج النفط مطروحا منها متطلبات الاستهلاك الداخلي. وهنا تبرز مشكلة الجدوى الاقتصادية ومدى تحمل الكلفة الباهظة لطاقة التصدير الفائضة / العاطلة.

ثالثا: ترتبط المخاطر الجيوسياسية لكل انبوب تصدير بالعلاقات الثنائية بين العراق من جهة والدولة التي يمر بها ذلك الانبوب. في حين ان المخاطر الجيوسياسية لمنافذ

التصدير الجنوبية تكون اما اقليمية او خارجية (العدوان الامريكي الاسرائيلي على إيران منذ نهاية شباط لهذا العام).
في ضوء التحليل اعلاه ارى ما يلي:
اولا: على الحكومة الجديدة ان تذكر في برنامجها اعطاء الاولوية لتحديث وتطوير طاقة التصدير من المنافذ الجنوبية (البصرة وخور العمية والعوامات SMPs، وميناء الفاو لتصدير زيت الوقود، نفط حقل القيارة، المكثفات والغاز السائل LPG) ومستودعات/ خزانات النفط المرتبطة بها في ضوء معدلات انتاج النفط المخطط تحقيقها خلال العشر سنوات القادمة.
تتمثل الاهمية الاستراتيجية المقارنة لمنافذ التصدير الجنوبية بمؤشرات عديدة: كمية النفط المصدر نسبة الى مجمل انتاج النفط. نوعية النفط الممكن تصديره وبكميات جيدة (بصرة خفيف، بصرة متوسط وبصرة ثقيل). امكانية التصدير الى كافة الاسواق الدولية الرئيسية مع تزايد الاهمية النسبية للأسواق الاسيوية مقارنة بالأوربية والامريكية. مرونة التسعير والمفاضلة في الاسعار حسب الاسواق الرئيسية بما يحقق اعلى عائد للبرميل. التحميل على ناقلات بأحجام مختلفة تصل الى حد مليوني برميل للناقلة. الأطر السنوية المرنة لعقود التصدير التي تعتمدها شركة سومو.
من الجدير بالذكر انه على الرغم من تقييد حركة الملاحة في الخليج العربي من خلال مضيق هرمز بسبب العدوان الامريكي الاسرائيلي على إيران منذ نهاية شباط الماضي والحصار الامريكي في بحر العرب، فان الاهمية الاستراتيجية للخليج في صادرات النفط الخام والغاز المسال LNG والمنتجات النفطية والبتروكيماوية وتأثيراتها على الاقتصاد الدولي، ستدفع الى اعادة حركة الملاحة بدرجة او بأخرى الى ما كانت عليه قبل العدوان.
ثانيا: كذلك على الحكومة الجديدة ان تذكر في برنامجها اعطاء الاولوية المتزامنة لتنفيذ المشاريع المتعلقة بإعادة تأهيل الانبوب العراقي - التركي (كركوك - جيهان). وبالتحديد انبوب بصرة - حديثة، وانبوب كركوك - فيشخابور (محطة الضخ والمقاييس على الحدود العراقية - التركية.)
من الجدير بالذكر، التأكيد على وجود مشاريع عديدة تم اقرارها من قبل وزارة النفط منذ سنوات تتعلق حصرا بالأولويتين اعلاه، لكن الوزارة فشلت في انجازها.
وفي هذا المجال أجد من الضروري ذكر بعض البيانات ذات العلاقة. حسب البيانات الرسمية، ان اقصى كمية تم تصديرها من المنافذ الجنوبية خلال الفترة الممتدة من شهر تموز 2009 الى نهاية شهر شباط 2026 كان حوالي 3.627 مليون برميل يوميا في شهر كانون اول 2018، ولم يتوقف التصدير من هذه المنافذ خلال نفس الفترة، الا بسبب العدوان على إيران، الذي بدأ في نهاية شباط الماضي.
لكن الامر يختلف بالنسبة الى التصدير من المنافذ الشمالية عن طريق تركيا. كان اقصى مستوى للصادرات النفطية عن طريق انبوب كركوك - جيهان بحدود 545 ألف برميل يوميا وذلك في شهر تموز 2009. وقد تكرر توقف الصادرات كليا ولأشهر عديدة، وخاصة في فترة ما بعد احداث "داعش" منتصف عام 2014.
ثالثا: فيما يتعلق بأنبوب النفط العراقي

عبر السعودية، فقد استولت عليه السعودية بعد احتلال الكويت. وقد حورته السعودية واستخدمته ضمن شبكة انابيب الغاز في المملكة.

لم تقم الحكومات العراقية المتعاقبة بأية محاولة جدية معلنة لاستعادة الانبوب او استخدامه، رغم كثرة قنوات التواصل الرسمية والتعاون بين البلدين. ارى على الحكومة الجديدة التحرك الجدي بهذا الشأن. ولكنني استبعد استجابة السعودية وخاصة في ضوء الظروف السائدة.

رابعا: انبوب النفط عبر الاردن (البصرة – حديثة - العقبة). تعود فكرة هذا الانبوب الى بداية عقد ثمانينات القرن الماضي، وبُذلت جهود متكررة بشأنه لم تثمر شيئا. باختصار ارى انعدام جدواه الاقتصادية، ارتفاع المخاطر الجيوسياسية وضعف اهميته الاستراتيجية. وعليه، لا أشجع الحكومة الجديدة على التفكير بهذا الانبوب.

خامسا: انبوب النفط عبر سورية. فكرة الانبوب جيدة لاعتبارات عديدة وله مزايا استراتيجية مهمة وقد طرحت سابقا مقترحات عديدة بشأنه. ولكن المخاطر الجيوسياسية وعدم اليقين مرتفعة جدا، كما تؤكده الشواهد التاريخية العديدة. وفي حالة توفير التمويل لتغطية كلفة مد الانبوب وتحديث ميناء التحميل في سورية من قبل، مثلا، دولة قطر (كقرض للحكومة السورية او استثمار في سورية)، فان ذلك يسهم في تحييد المخاطر الجيوسياسية، خاصة إذا دعمت الحكومة الامريكية هذا الانبوب وضمنت حمايته. قد يصبح اعتماد هذا الانبوب أكثر الحاحا ومقبولية في حالة تعنت تركيا في تجديد او تحديث اتفاقية انبوب كركوك - جيهان التي ينتهي نفاذها في تموز الحالي.

ومع ذلك، على العراق تقييم جدوى هذا الانبوب في ضوء التحليل المقارن للمزايا الاستراتيجية مع كل من التصدير عن طريق تركيا والمنافذ الجنوبية. ومن ناحية الإطار الزمني، لا اعتقد انه بالإمكان اتخاذ قرار ضمن الظروف الحالية التي تعاني منها المنطقة والوضع المالي الصعب الذي يمر به العراق، ما لم يتم التمويل الخارجي وضمان حماية الانبوب.

سادسا: أنبوب النفط بصرة - الدقم (سلطنة عمان). فكرة هذا الانبوب ليست جديدة فقد سبق وان طرحت في أوائل تسعينيات القرن الماضي لمد خط انوب نفطي عبر دول الخليج العربي وصولا إلى سواحل خليج عمان، وتم صرف النظر عنها لاعتبارات الكلفة وتعقيدات موافقة دول الخليج. ثم أعيدت الاشارة الى فكرة الانبوب، مع تغيير المسار ليكون ضمن ايران، في وسائل الاعلام عام 2013.

لقد تناولت انباء الصناعة النفطية الدولية مؤخرا تصريح مدير عام شركة "سومو" القاضي بتوقيع العراق وسلطنة عمان على اتفاقية أولية لأنبوب بصرة - الدقم خلال زيارة رئيس الحكومة السابقة - السوداني في عام 2025. لكن لم تنشر الحكومة نص الاتفاقية ولا تفاصيل أساسية عن هذا الانبوب وخاصة مساراته ان كانت على اليابسة (ضمن الأراضي الكويتية والسعودية والإمارات او الايرانية) او تحت مياه الخليج. اعتقد ان كلفة مد هذا الانبوب مرتفعة جدا، مما يؤثر على جدواه الاقتصادية. وجود مخاطر جيوسياسية ترتبط بمسار الانبوب، خاصة ان كان على اليابسة. اما أهميته

الاستراتيجية فتبرز في حالة غلق مضيق هرمز بشكل دائم، وهذا احتمال ضئيل جدا. ومع ذلك، على الحكومة الجديدة الافصاح التام عن البيانات الأساسية للأنبوب (طاقة الضخ، طول الانبوب والمسارات، الكلف الرأسمالية والتشغيلية، رسوم المرور ورسوم الموقع في الدقم وغيرها) ونشر نص الاتفاقية الاولية التي وقعتها حكومة السوداني.

سابعا: التصدير بواسطة الصهاريج او الحوضيات. تم اللجوء بشكل مكثف الى هذا الأسلوب مؤخرا كبديل ممكن لتصدير النفط الخام وزيت الوقود (النفط الاسود)، وخاصة من خلال الأراضي السورية، وكذلك لنقل النفط الخام من جنوب العراق الى شماله بهدف التصدير عن طريق تركيا.

يواجه هذا المسار في التصدير محددات ومشاكل مؤثرة عديدة. انه يتطلب توفر عدد كبير جدا (ربما عدة مئات) من الصهاريج لضمان الانسيابية اليومية للتصدير ومن مناطق متباينة في الداخل. متطلبات توفير كميات كبيرة جدا من الديزل/ كازاويل المستورد (بسبب محدودية الإنتاج المحلي) وبكلفة عالية. كلفة النقل ورسوم المرور وكلفة التفريغ والتحميل في الموانئ وكلفة النقل البحري من الموانئ السورية الى موانئ الاستيراد. الاختناقات المرورية وحركة النقل داخل العراق وخارجه، وما يترتب عليها. الاعتبارات الأمنية والموافقات الرسمية في دولة المرور.

تقوم كل من وزارتي الخارجية والنفط/ سومو بالإجراءات التنفيذية المطلوبة.

باختصار، الجدوى الاقتصادية لهذا البديل منخفضة بعض الشيء وخاصة عند اعتماد صافي العائد النقدي والتأثيرات البيئية. ولكن مبررات الضرورة، وخاصة ما يتعلق بتصدير فائض النفط الأسود، تحتم الاستمرار بهذا البديل. ومع ذلك لا بد من الاهتمام الجدي بمعالجة محددات وتأثيرات هذا البديل، وعدم الاستمرار به في حالة انتهاء ظروف العدوان وبدء حركة الملاحة البحرية امام الصادرات العراقية.

ثامنا: تصدير النفط العراقي عبر إيران. لقد اطلعتُ على مقترحين بهذا الخصوص. أحدهما عام غير محدد والآخر مفاده استخدام سكة حديد البصرة - الشلامجة لتصدير النفط العراقي عبر إيران والادعاء بأنه الطريق الوحيد لربط العراق بالسكك الحديدية مع الصين، ولأنه أقل تكلفة وأقصر المسارات التي تتيح تصدير نفط العراق إلى الصين خارج المنطقة المتوترة في الخليج العربي ومضيق هرمز.

في ضوء ما هو متاح حاليا، وبسبب العدوان الامريكي-الاسرائيلي على إيران الذي تسبب بعرقلة الملاحة البحرية في الخليج العربي وبحر العرب، توجد امكانية محدودة جدا، مقارنة بطاقة تصدير النفط الايراني بحريا، لتصدير النفط الايراني عبر سكة حديد إيران - الصين. فهل يعقل ان تسمح إيران باستخدام سكة الحديد هذه لتصدير النفط العراقي!؟ لا ارى ذلك ممكنا قط.

اعتقد ان الظروف الحالية والاعتبارات الجيوسياسية والاهمية الاستراتيجية والجدوى الاقتصادية الفنية المقارنة لا تعطي لهذا المقترح اية اولوية في الوقت الحاضر وفي الامدين القصير والمتوسط.

الثقافة الجديدة: مع انسحاب الشركات الكبرى مثل: اكسون موبيل وشل وبرتش

بتروليوم، وسيطرة الشركات الصينية على 70% من إدارة العمليات في الحقول المستثمرة، وما رافق جولات التراخيص رقم 5 و6 من جدل، من وجهة نظركم أستاذ احمد، هل اثبتت جولات التراخيص لا جدواها؟ وهل تمثل هذه الجولات، برأيكم، مؤشرا على الغياب التام لسياسة نفطية متكاملة؟ وعلى ان الخلل في ادارة الملف النفطي في العراق هو خلل منهجي بنيوي يرتبط بفلسفة إدارة الدولة ذاتها بعد 2003؟

احمد موسى جياد: السؤال مركب ومنطلقاته متباينة، ما يتطلب تدقيق المعلومات وتفكيك الاجابة.

اولا: لابد من ذكر الحقائق فيما يتعلق بانسحاب الشركات الكبرى. انسحاب شركة اكسون موبيل من عقد غرب القرنة 1 جاء نتيجة قيام تلك الشركة بعقد مجموعة عقود مشاركة في الانتاج مع حكومة الاقليم تتضمن حقولا ورقعا استكشافية ضمن ما اصطلح على تسميتها مناطق "متنازع عليها" وتتعارض مع سياسة الحكومة المعلنة في حينها. ومن الجدير بالذكر انهاء الشركة لعقودها مع حكومة الاقليم لاحقا. لقد بدأت الشركة مؤخرا التباحث مع وزارة النفط الاتحادية بأمل العودة الى القطاع النفطي!

اما شركة شل فقد انسحبت من عقد حقل مجنون بعد ان فرضت عليها الوزارة غرامة كبيرة، حوالي اربعة مليار دولار، لعدم التزامها ببنود العقد. كما باعت الشركة مساهمتها في حقل غرب القرنة1. لكنها ما زالت تحتفظ بمساهمتها بشركة غاز البصرة بالتشارك مع شركة متسوبيشي وشركة غاز الجنوب - التابعة لوزارة النفط.

لم تنسحب شركة برتش بتروليوم، وما زالت هي المشغل في حقل الرميلة بالتعاون مع شركة سي ان بي سي الصينية. وقد عززت تواجدها حديثا بعد توقيع حكومة السوداني معها اتفاقية، لم تعلن تفاصيلها الاساسية، لتطوير الحقول الشمالية - كركوك، باي حسن، خباز وجمبور.

وفيما يتعلق بجدوى او عدم جدوى جولات التراخيص فالأمر يتطلب بعض التحليل لان جولات التراخيص متباينة في طبيعة الحقول والرقع الاستكشافية من جهة وفي نوعية ومكونات العقود الخاصة بكل جولة من جهة اخرى. يضاف الى ذلك انه يجب ان لا ينظر الى الجدوى كموضوع مطلق، بل نسبي وبالتحليل المقارن. وعليه يمكن توزيع جولات التراخيص في مجموعتين: المجموعة الاولى تتضمن الجولات الاربعة الاولى، والثانية تتضمن الجولات الخامسة والسادسة+. وعلينا ان لا ننسى الحقول النفطية والرقع الاستكشافية والغاز التي تم الاتفاق/ التفاوض بشأنها بشكل ثنائي مباشر خلف الابواب المغلقة وبدون أي منافسة.

يمكن اعتماد المعايير التالية في تحليل الجدوى المقارن لجولات التراخيص كافة وللاتفاقيات الثنائية المباشرة في حالة توفر البيانات والمعلومات والعقود المتعلقة بكل العقود ذات العلاقة، وهذا غير متوفر باستثناء حقول جولات التراخيص الاربعة الاولى فقط:

1 - "حصة العراق" من العوائد المتحققة من تطوير الحقول.
2 - عائدية الزيادة في اسعار النفط.
3 - ملكية النفط والغاز.
4 - الشفافية والمنافسة.
5 - الشركات النفطية التي تم التعاقد معها.

لقد اتسمت ممارسات وزارة النفط في تفضيل التعاقد مع الشركات النفطية الدولية، وخاصة بعد جولات التراخيص الاربعة الاولى، لتطوير الحقول والرقع الاستكشافية على حساب التطوير بالجهد الوطني. وقامت بالتخلي عن عقود الخدمة وتبنت عقود المشاركة في الارباح (وهي تمثل الجانب النقدي لعقود المشاركة في الانتاج) مع منح مزايا تعاقدية اخرى للشركات الاجنبية. وهذا يعود، بنظري، الى انعدام تبني سياسة نفطية اتحادية متكاملة من قبل الحكومات المتعاقبة، وكما ذكرت في اجابتي على السؤال الاول.

الثقافة الجديدة: في مقالكم المهم المعنون "التقييم الاولي لاتفاقيات وزارة النفط مع شركة شيفرون الامريكية" والذي نشر على نطاق واسع أواسط شباط (فبراير) 2026، سلطتم الضوء على العديد من المفاصل الغامضة في هذه الاتفاقيات، ووصفتموها بالضبابية، واثرتم تساؤلات واستفسارات على قدر كبير من الاهمية. على وجه الخصوص حول تلك الجوانب ذات الطابع الفني.

نود أستاذ احمد ان نتساءل: هل تعتقدون ان دخول شركة شيفرون، وهي الشركة ذات العلاقة القوية مع الإدارة الامريكية الحالية ومع الحزب الجمهوري، الى قطاع النفط العراقي، باتفاقيات وقعت عشية العدوان الأمريكي/الإسرائيلي على إيران، كان لغايات اقتصادية فقط؟ ام انه يرتبط برؤية الإدارة الامريكية للصراع الاستراتيجي مع الصين؟ وأنها قد تكون فاتحة لدخول، او عودة، شركات أخرى؟ ارتباطا بضعف موقف القوى المتنفذة في السلطة واستعدادها لتقديم كل اشكال التنازل. ويمكن اعتبار الدعم الذي تلقاه رئيس الوزراء الجديد من الإدارة الامريكية والرئيس ترامب على وجه الخصوص مؤشرا عاما على ذلك.

احمد موسى جياد: اشكرك على الاشارة الى مقالتي أعلاه، لان فيها معلومات مهمة تتعلق بشركة شيفرون ودورها في القطاع النفطي العراقي، وعليه لا يوجد مبرر لتكرار تلك المعلومات. ولكن لا بد من ذكر الحقائق التالية لتوضيح الاجابات على تساؤلاتك اعلاه.

اولا: كان مجموع الشركات النفطية الامريكية، بضمنها شركة شيفرون، هي الغالبة مقارنة بمجموع الشركات النفطية لأية دولة اخرى في توقيع "مذكرات التعاون" مع وزارة النفط خلال الفترة 2004-2008. نفس الامر ينطبق على مجموع الشركات النفطية الدولية التي تم تأهيلها من قبل وزارة النفط للمشاركة في جولات التراخيص الاربعة الاولى.

ثانيا: بالمقابل، لم تتمكن أية شركة نفط امريكية بالفوز كمشغل، ضمن أي تحالف/كونسورتيوم، باي عقد خلال يوم التنافس لكل جولة. ما حدث، ويتعلق بحقول جولة التراخيص الاولى التي اجريت في شهر حزيران 2009، تقديم شركة ايني الايطالية بعد عدة أشهر عرضا الى وزارة النفط تقبل فيها اجور الخدمة التي طلبتها الوزارة بشأن حقل الزبير، وكانت شركة اوكسدنتال الامريكية ضمن التحالف الذي تقوده الشركة الايطالية.

بعد فترة من موافقة الوزارة على طلب ايني، تقدمت شركة لوك اويل الروسية بعرض يخص حقل غرب القرنة 1 تقبل فيه اجور

الخدمة وشروط الوزارة. ”علمت“ شركة اكسون موبل الامريكية بعرض شركة لوك اويل، وقامت مباشرة بتقديم عرض منافس تضمن قبول اجور الخدمة التي طلبتها الوزارة وزيادة انتاج الذروة من الحقل اعلى مما طرحته الشركة الروسية. وهكذا احيل حقل غرب القرنة 1 الى تحالف شركة اكسون موبل وشركة شل.

ثالثا: انسحبت شركة اوكسدنتال، عام 2016، من حقل الزبير وتنازلت عن حصتها الى شركة نفط البصرة. اما شركة اكسون موبل فقد وقعت ست اتفاقيات مشاركة في الانتاج مع حكومة الاقليم بعد فترة من توقيعها عقد غرب القرنة1، خلافا لسياسة الحكومة الاتحادية المعلنة في حينه. وهذا ما دفع وزارة النفط الاتحادية الى الطلب من الشركة الاختيار بين البقاء في البصرة والغاء تعاقداتها مع الاقليم او انهاء عقد غرب القرنة1. بعد حوالي عشر سنوات، باعت الشركة حصتها في غرب القرنة1 عام 2024، واصبحت شركة سي ان بي سي الصينية المشغل لهذا الحقل. وبذلك تعزز كثيرا التموضع الاستراتيجي للشركات الصينية والروسية في تطوير الحقول النفطية.

رابعا: عندما أصبح جبار لعيبي وزيرا للنفط في النصف الثاني من عهد حكومة حيدر العبادي، فتح باب وزارة النفط للمرة الثانية لكل من شركة شيفرون وشركة اكسون موبل وعدد اخر من شركات الخدمة النفطية الامريكية. وعمل وزير النفط في حكومة الكاظمي، احسان عبد الجبار، على احالة حقل مجنون الى شركة شيفرون بعد خروج شركة شل، لكن كان لشيفرون تخطيط اخر.

خامسا: كانت شركة شيفرون تخطط للحصول على **اتفاقية مماثلة لاتفاقيات المشاركة في الارباح** مع كل من شركة توتال انرجيز في جنوب العراق ومع شركة برتش بتروليوم في حقول كركوك، والتي وقعتها حكومة السوداني. وقد تحقق ما ارادته شركة شيفرون خلال حكومة السوداني ووزير نفطه حيان عبد الغني وذلك بتوقيع اتفاق مبادئ مع الشركة لتطوير مشروع الناصرية المكوّن من أربع رقع استكشافية، بالإضافة إلى حقل بلد النفطي في محافظة صلاح الدين، وأي حقل او رقعة استكشافية أخرى، وذلك في آب 2025.

بعد فرض العقوبات الثلاثية، الامريكية-الاوربية-البريطانية، على شركة لوك اويل الروسية، طلبت شركة شيفرون ان تحل محل لوك اويل في حقل غرب القرنة 2. وكان لها ما ارادت، ثانية، حيث تم ضم هذا الحقل الى الاتفاقية وذلك بموافقة مجلس الوزراء، في 10 اذار 2026، على ”البنود والشروط النهائية للاتفاقية الإطارية الموقعة بين وزارة النفط (شركتي نفط البصرة والشمال)، وشركة شيفرون الأمريكية لإدارة وتشغيل حقل غرب القرنة 2“. أي بعد عشرة ايام من العدوان الأمريكي - الاسرائيلي على إيران، علما ان حكومة السوداني كانت في حينه حكومة تصريف اعمال غير مخولة دستوريا بتوقيع هكذا اتفاقيات.

وعلى الرغم من ان هذه الاتفاقية اطارية، إلا ان السوداني قال في 13 ايار 2026 انه تم في عهده ”توقيع عقود مهمة مع شركات عالمية مثل برتش بتروليوم وتوتال وشيفرون وإكسون موبيل وهالبيرتون“. هذا التصريح يشير الى تخبط خطير وعدم التمييز بين الاتفاقية الاطارية والعقود الموقعة على قدر

تعلق الامر بشركة شيفرون. اما ما يتعلق بشركة إكسون موبيل، فلا يوجد ما يشير الى توقيع أي اتفاقية او عقد معها لغاية تاريخ تصريح السوداني. ولكن قياسا بما قامت به حكومة السوداني، فمن المتوقع جدا استمرار حكومة (علي الزيدي) الحالية على نفس النهج وتفعيل الاتفاقية مع شركة شيفرون بتوقيع العقود المطلوبة للحقول والرقع الاستكشافية التي تضمنتها الاتفاقية، علما ان هذا الامر يتطلب المزيد من الوقت وقد يمتد لسنوات. ونفس الامر ينطبق على ما تصبو اليه شركة اكسون موبيل.

ختاما، جميع الشركات النفطية الامريكية تنسق مع وتتأثر بقرارات الادارة الامريكية وتتمتع بحمايتها ودعمها دبلوماسيا. فكثير من الشواهد التاريخية، قديما وحديثا، تشير الى العلاقة الوثيقة، بدرجة او بأخرى، بين السياسة الخارجية الامريكية وشركات النفط الامريكية. من الجدير بالذكر ان ما نشر عن لقاء المبعوث الأمريكي توم باراك مع رئيس مجلس الوزراء علي الزيدي (في 16 حزيران) انهما بحثا عدداً من الملفات الأمنية والاقتصادية، من ضمنها عمل الشركات الأمريكية في العراق، ولا سيما شركة شيفرون النفطية.

وفي ضوء سياسة وممارسة وتوجهات الادارة الامريكية الحالية التي تتسم باستخدام القوة العسكرية للسيطرة على مصادر النفط والغاز في الدول النامية، فمن المتوقع جدا ان تستمر الادارة الامريكية بسياستها التدخلية القسرية وتعزيز مواقع الشركات الامريكية في القطاع النفطي العراقي.

الثقافة الجديدة: قدم رئيس الوزراء (علي الزيدي) منهاجه الحكومي في 7 أيار (مايو) 2026. وقد اتسم هذا المنهاج، كما لاحظ أكثر من متابع، بالإضافة الى الطابع الانشائي الطافح بالوعود مثله مثل مناهج الحكومات السابقة، بـ"لكنة" مصرفية ومالية.

أستاذ احمد، ما هي قراءتكم للنقاط التي وردت في الفقرة (النفط والغاز) في المنهاج الوزاري؟ وإذا وضعنا في الحسبان الخلفية التي جاء منها رئيس الوزراء، وطبيعة التوازنات الخارجية والداخلية التي توافقت عليه، نتساءل أيضا، هل بالإمكان تحويل نقاط - وعود - المنهاج العامة، حول النفط والغاز، الى برنامج حكومي ملموس بتوقيتات زمنية ومؤشرات قياس؟

احمد موسى جياد: اتفق معك حول ما ذهبت اليه في وصف منهاج حكومة الزيدي، وأود اضافة ما يلي:

المحور الثاني في المنهاج يتعلق بالطاقة وتضمن فقرتين: الاولى تخص الكهرباء والثانية تخص النفط والغاز. ولان سؤالك يتمحور على موضوع النفط والغاز، فسأحصر اجابتي على الموضوع، علما ان ما ورد في المنهاج يثير، في الحقيقة، الكثير من التساؤلات.

تضمن موضوع فقرة النفط والغاز تسع فقرات مختصرة. كل فقرة منها تحتاج الى مزيد من التفحص والتحليل والقراءة المتأنية، وسأكتفي بالإشارة الموجزة بشأنها.

- دعت الفقرة 1 الى "بناء شراكات استراتيجية مع شركات النفط العالمية على وفق نموذج..." دون تحديد في أي من نشاطات القطاع النفطي بناء هكذا شركات استراتيجية. وهل من الممكن اعتماد هكذا

شراكات وفق نموذج واحد، علما ان القطاع النفطي يتكون من أربعة قطاعات جزئية متباينة كما بينت في اجابتي على السؤال الاول!!

- دعت الفقرة 2 الى زيادة انتاج الغاز المصاحب. ولكن انتاج الغاز المصاحب يرتبط بإنتاج النفط الخام الذي لم يتم ذكره في المنهاج!!

- يوجد تكرار وتداخل واضح في الفقرات 5 و6 و7 و9 حيث انها تتعلق بالجوهر بقطاع التصفية والبتروكيماويات. ويتجاهل المنهاج فشل تجربة الاستثمار الاجنبي في قطاع التصفية (مصفى ميسان الاستثماري مع شركة ستاريم) وتعثر مصفى الفاو (مع الشركة الصينية) والبتروكيماويات (مشروع نبراس بين وزارة الصناعة والمعادن وشركة شل).

- تناقض الفقرة 7، التي تدعو الى "رفع نسبة الاكتفاء الذاتي من المشتقات النفطية"، مع ما اعلنته حكومة السوداني في تحقيق الاكتفاء الذاتي ومنعت استيراد تلك المنتجات اعتبارا من بداية العام الحالي!!

-عدم واقعية ما دعت اليه الفقرة 8 في استخدام "المحطات الثابتة" التي تستخدم لاستيراد ولتصدير الغاز. حيث يوجد عدم فهم، لان المحطة العائمة، التي تعذر اكمالها بسبب العدوان وغلق الملاحة في الخليج، تستخدم لاستيراد الغاز المسال LNG ولا توجد اية احتمالية على الاطلاق بان يقوم العراق، خلال حكومة الزيدي، بتطوير صناعة تسييل الغاز وتصديره!!

اضافة الى ما تقدم فقد أهمل المنهاج مسائل اساسية ومهمة للغاية في موضوع النفط والغاز.

اولا: لم تتم الاشارة ولو بجملة واحدة الى موضوع السياسة النفطية المتكاملة التي ستسلكها الحكومة، وضمن الإطار الذي اشرت اليه في اجابتي على السؤال الاول.

ثانيا: لم يذكر أي شيء عن ضرورة تنفيذ مشاريع تطوير الحقول النفطية والغازية المتعاقد عليها حاليا، وضمن خطط وزارة النفط السنوية لإنتاج النفط واستثمار الغاز المصاحب والغاز الحر خلال فترة الحكومة.

ثالثا: كما انه لم يتم ذكر دور الجهد الوطني المباشر في مشاريع تطوير الحقول ولم يذكر ضرورة زيادة دور الكوادر العراقية في مشاريع تطوير الحقول النفطية والغازية المتعاقد عليها حاليا.

رابعا: عدم ذكر اهمية المحافظة على وتعزيز حصة النفط العراقي في اسواق النفط الدولية الرئيسية، ودور شركة سومو في هذا المجال.

خامسا: إغفال ذكر دور العراق في منظمة اوبك واوبك+ واهمية سعي العراق لزيادة حصته الانتاجية.

سادسا: عدم ذكر التعاون الرسمي/ الحكومي الثنائي في مجالات النفط والغاز، وخاصة ما يتعلق بأنابيب التصدير، الحقول الحدودية، تمويل المشاريع وغيرها.

سابعا: لم يرد أي ذكر لموضوع الشفافية وتنفيذ التزامات العراق بحكم ارتباطه بمبادرة الشفافية للصناعات الاستخراجية منذ عام 2009.

ثامنا: عدم الاشارة الى قرارات الادارة الامريكية وتأثيراتها السلبية على القطاع النفطي وكيفية التعامل لمعالجتها، وخاصة ما يتعلق باستيراد الغاز من او عبر إيران، وعقود الشركات الروسية في تطوير الحقول والرقع الاستكشافية.

تاسعا: عدم الاشارة الى الازمة المالية، الناجمة عن انقطاع عوائد الصادرات النفطية منذ بداية العدوان على إيران، وتأثيراتها على تنفيذ المشاريع النفطية التي تضمنها المنهاج.
عاشرا: الاغفال التام لازمة حركة الملاحة البحرية في الخليج وبحر عمان بسبب العدوان على إيران، على الرغم من فداحتها وتأثيراتها الكارثية على القطاع النفطي العراقي.
في ضوء ما تقدم، ارى قيام وزارة النفط الاخذ بنظر الاعتبار الملاحظات اعلاه عند اعداد البرنامج الحكومي، باعتبارها الوزارة المسؤولة عن القطاع النفطي. علما انني قمت مؤخرا بتقديم مداخلة تفصيلية حول الشأن النفطي في منهاج الحكومة.

الثقافة الجديدة: تضمنت فقرة (النفط والغاز) في المنهاج الوزاري، أيضا، النقطة الاتية: "العمل على تشريع قانون النفط والغاز". وفي الغالب جاءت هذه النقطة لتنسجم مع قرار مجلس النواب في 18 اذار 2026 الذي طلب أن يكون من ضمن "البرنامج الحكومي" المقبل فقرة عن تشريع قانون النفط والغاز خلال فترة محدّدة. وان يُعرض أمام مجلس النواب من أجل الشروع في التصويت عليه. وبغض النظر عن الخلط الدائم، حتى على المستوى النيابي، بين المنهاج الحكومي باعتباره التزاما دستوريا وبين البرنامج الحكومي الذي تضعه الحكومة بعد التكليف، فإننا لا نعلم هل سيتضمن البرنامج الحكومي القادم، ان تم وضعه، صياغة أكثر ملموسية حول تشريع قانون النفط والغاز، من قبيل التوافق على صياغة نهائية للمسودة وتقديمها للمجلس وبتوقيتات زمنية محددة، ام ستبقى العبارة الواردة في المنهاج بصياغتها المرنة والعائمة؟
أستاذ احمد، في ظل الأوضاع وموازين القوى الداخلية، وكذلك الظروف الخارجية في المنطقة، وما حدث ويحدث منذ ثلاث سنوات تقريبا؛ برأيكم، وبحكم قراءتكم العميقة لمسودات القانون السابقة، ما هي أبرز المضامين التي من المفترض ان تشتمل عليها مسودة قانون النفط والغاز لتحقق مصالحة الشعب والوطن. والتي يتوجب على كل القوى الاجتماعية والسياسية ان تناضل في سبيل الضغط لتثبيتها.

احمد موسى جياد: موضوع القانون معقد، قصته طويلة، وافاقه ضئيلة. تم اعداد المسودة الاولى من قبل ثلاثة خبراء نفط عراقيين في تموز 2006. وقد اُقترَحتْ، بعد ذلك، عدة مسودات للقانون من قبل أطراف عديدة خلال عقدين من الزمن. وتم التعهد بتشريعه في كل منهاج وبرنامج للحكومات الفدرالية المتعاقبة تلبية لطلب من قبل حكومة الاقليم. مع ذلك، ولغاية تاريخه، لم يتم الاتفاق على تشريع القانون، فلماذا!
من خلال متابعتي المتواصلة لمسيرة القانون المقترح فقد كتبت عنه العديد من المتابعات التفصيلية التحليلية وشاركت في بعض الحوارات والندوات بشأنه، والتي يمكن الرجوع اليها، وعليه لا توجد ضرورة لتكرارها في حوارنا هذا. ولكن يمكن حصر اسباب تعثر تشريع القانون بالأسباب التالية:
1 - الاستحقاق الدستوري؛ كثيرا ما يشار الى ان اصدار هذا القانون بكونه استحقاقا دستوريا على الحكومة الالتزام بتشريعه؛ وبالتحديد الفقرة "اولا" المادة "112" من الدستور والتي تختتم بعبارة "وينظم ذلك

بقانون''. المشكلة الاساسية ان ''نص'' الفقرة المذكورة واسع جدا ويتضمن مكونات عديدة يمكن تفسيرها بأشكال مختلفة وقد تكون متناقضة.

2 - المنطلقات السياسية واعتبارات الاقتصاد السياسي؛ وهذه تتمثل بجوهرها بين التوجهات ''الفدرالية/ الاتحادية من جهة والاقليمية/ المحافظاتيه من جهة اخرى'' فيما يتعلق بالقضايا الاساسية لموضوع النفط والغاز في الدستور.

3 - هيكلة وشمولية مسودات قانون النفط والغاز ذاته؛ شملت المسودات المقترحة ما يسمى ''سلة القوانين الاربعة''؛ أي اربعة قوانين في قانون واحد. هذه الهيكلية غير واقعية، غير عملية، معقدة تنفيذيا، تتعارض مع مهام وصلاحيات وزارات اخرى، لا تشمل جميع نشاطات قطاع النفط والغاز، وتتطلب الغاء او تعديل عدد كبير من القوانين والتعليمات المتعلقة بسلة القوانين الاربعة وغيرها.

4 - تقادم الزمن؛ لقد حصلت تطورات عديدة وجوهرية على القطاع النفطي العراقي، سواء على المستوى الاتحادي او في الاقليم، خلال العقدين الماضيين. هذه التطورات تجاوزت المنطلقات والنصوص المقترحة في مسودات القانون المختلفة، ما يعني عدم صلاحية تلك المسودات او اجزاء عديدة منها.

5 - التشريعات والقرارات القضائية؛ كذلك صدرت، خلال العقدين الماضيين، عدة تشريعات وقرارات قضائية في العراق تتعلق بالقطاع النفطي العراقي، اضافة الى قرارات دولية ذات علاقة وتأثير على بعض قضايا النفط والغاز.

في ضوء ما تقدم، ارى ان من يدعو الى تشريع قانون النفط والغاز الاتحادي ان يقدم اولا: المبررات الواقعية لتشريع القانون، وثانيا: معالجة الملاحظات اعلاه بشكل جدي وجذري وعملي، وثالثا: تحديد نطاق سريان القانون حصرا على أي من نشاطات القطاع النفطي.

الثقافة الجديدة: بحكم خبرتكم الطويلة والغنية في مجال الصناديق السيادية، كانت لكم مساهمات نظرية مهمة في مجال الدعوة لإنشاء مثل هذه الصناديق في العراق. وعلى وجه الخصوص قضية الربط بين تشريع قانون النفط والغاز وبين تأسيس صندوق الأجيال السيادي.

وإذا اخذنا بعين الاعتبار ان المنهاج الحكومي لرئيس الوزراء تضمن ما نصه ''تأسيس (صندوق الأجيال) لحماية حقوق الأجيال في الثروات النفطية والطبيعية''؛ هل ما زالت رؤيتكم، ان الصناديق السيادية المختلفة هي بالنسبة للعراق ضرورة وليست ترفا، قائمة؟ وفي ظل التفشي المريع للفساد في العراق، والذي يتشابك مع المنظومات المليشياتية، هل هناك آليات دولية او شركات عالمية قادرة على حماية هذه الصناديق وعلى ضمان شفافية تعاملاتها وابقائها بعيدة عن شبكات الفساد العراقية؟

احمد موسى جياد: تتوفر معلومات مهمة ومتخصصة تتعلق بمختلف الجوانب المتعلقة بصناديق الثروة السيادية في نشريات وتقارير صندوق النقد الدولي والبنك الدولي (على مستوى المنظمات الدولية الرسمية) ومعهد صناديق الثروة السيادية SWFI (وهو هيئة امريكية غير رسمية نشطة دوليا).

ويوفر المعهد تقييمات مقارنة دورية لمختلف الصناديق السيادية، في العديد من الدول، وفقا لمعايير موحدة. وهذه تشكل مصادر مفيدة لفهم اساسيات الصناديق السيادية ومهامها وحوكمتها ونتائج نشاطاتها ومواقعها المالية وغير ذلك من معلومات وبيانات.

على قدر تعلق الامر بالدول النفطية، وخاصة النامية منها، فقد تكثف الاهتمام بتأسيس الصناديق السيادية بهدف تدوير فوائض عوائد الصادرات النفطية Petrodollar recycling التي بدأت بالتحقق بعد تصحيح اسعار النفط في منتصف عقد سبعينيات القرن الماضي، واستمرت بالتزايد بتزايد صادرات النفط واسعاره. ومن الطبيعي ان تكون وجهة التدوير المفضلة في الاقتصاديات الرأسمالية الغربية ودول منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية OECD، ثم توسعت في العقود الاخيرة لتشمل الدول الاشتراكية سابقا والدول النامية.

ضرورة التمييز بين الاهداف الاستثمارية (لتحقيق عوائد مالية وجيواقتصادية) وتقديم المساعدات الخارجية (لأغراض سياسية وجيوسياسية) وتوفير الاحتياطي لمواجهة العجز الناجم عن الازمات المالية الطارئة، وخاصة الناجمة عن انخفاض اسعار النفط.

بالنسبة للعراق ارى من الضروري ابداء بعض الملاحظات:

1 - يشار في بعض الاحيان الى "استثمارات العراق الخارجية"، وخاصة قبل اندلاع الحرب الإيرانية -العراقية، والى "الصندوق العراقي للتنمية الخارجية" (الذي تأسس في منتصف عقد سبعينيات القرن الماضي) والى "صندوق تنمية العراق" (الذي تأسس بموجب قرارات مجلس الامن الدولي بعد غزو الكويت، ثم نقل رصيده الى البنك المركزي العراقي عام 2014) والى "غطاء العملة في البنك المركزي العراقي"، على انها شكل من اشكال الصناديق السيادية. هذا موضوع يحتاج الى مزيد من الحوار والتحليل وتقدير الارصدة المالية، لا مجال لها في هذه المقابلة.

2 - تضمن المحور الثاني، المالية العامة والإصلاح الاقتصادي، للمنهاج في البند العاشر تأسيس صندوق الأجيال. ان ربط تأسيس صندوق الأجيال بمهام المالية العامة، أي وزارة المالية، ادق تخصصيا من التوجهات السابقة التي ربطت هكذا صندوق بمقترحات قانون النفط والغاز او بقانون شركة النفط الوطنية. ان التجربة الدولية للصناديق السيادية ذات السمعة المعروفة تشير الى ضرورة وجود هيكلية وحوكمة واستقلالية وضوابط جيدة ومُحَكَمة قانونيا، وليس هيكلا تقليديا ونظاما روتينيا وإدارة مسيسة/ محاصصية. لذا أرى على الحكومة الجديدة اعداد تقييم مهني متخصص معمق يستند الى دراسة التجارب الدولية في هذا المجال، ويستفيد من مساعدة الجهات الدولية المتخصصة، قبل ان تقدم على اتخاذ قرار تنفيذي لتأسيس الصندوق.

3 - من منظور الاقتصاد السياسي - الاجتماعي ومنطلقات التنمية المستدامة، تشكل الاستثمارات الخارجية لتأسيس صندوق الاجيال اشكالية محرجة في اقتصاد ما زالت نسبة الفقر، حسب بيانات وزارة التخطيط، مرتفعة رغم تبني استراتيجيات متتالية للقضاء على معضلة الفقر في المجتمع وتباين مستوياته في المحافظات العراقية، ومؤشر الجوع العالمي لعام 2025 إذ حلّ

بالمرتبة الـ 63 عالمياً من أصل 123 دولة توفرت عنها بيانات كافية لاحتساب المؤشر. يفترض في مثل هذه الظروف تبني وتمويل المشاريع التي تقود الى خلق فرص عمل لتقليل معضلة الفقر والقضاء عليها، بدلا من ايداع الفوائض المالية، ان وجدت، لتمويل استثمارات خارجية.

4 - وفي هيكل سياسي وضعي مبني على المحاصصة السياسية التي قادت الى تفشي الفساد على كافة المستويات الى حد الفساد المُشَرعنُ (والذي يمكن ان نوَصفَه بحوكمة اللصوصية - كلبتوكراسي)، يصبح من الصعب تأسيس وتفعيل صندوق الأجيال دون تشريع قانون رصين محكم خاص به.

وعليه، وفي ضوء الأوضاع الدولية والازمة المالية الحادة التي يعاني منها العراق لا أرى مبررا في إعطاء الاولوية لتأسيس الصندوق.

الثقافة الجديدة: ارتباطا بالسؤال السابق، أستاذ احمد، هل هناك إمكانية راهنة لتطوير صناديق (التقاعد والرعاية الاجتماعية والضمان الصحي) العراقية لتكون صناديق سيادية استثمارية نشطة في الداخل، وكذلك على المستوى الدولي؟

احمد موسى جياد: نظريا هذا ممكن، وان ما ذكر أعلاه بشأن الصناديق السيادية ينطبق في حالة اعتبار او استخدام صناديق (التقاعد والرعاية الاجتماعية والضمان الصحي) العراقية. ولكن يجب الانتباه الى الملاحظات التالية:

1 - يفترض وجود وتفعيل الصندوق السيادي وجود فوائض في عوائد صادرات النفط، وعدم وجود تلك الفوائض ينفي توفر التخصيصات المالية للصندوق. ولكن صناديق التقاعد والتامين الصحي وما شابهها من استقطاعات ومدفوعات فهي دائمية ودورية ومتواصلة، وهذا يحتم ضمان توفر المستحقات ودفعها بشكل منتظم عند الاستحقاق للمواطنين. وعليه الحذر ضروري جدا.

2 - الجانب الاستثماري في الصناديق السيادية يستند في جوهره على مبدئين أساسيين: المقارنة والمفاضلة بين "العوائد المتوقعة والمخاطر المحتملة" عند تقييم وتبني أي قرار استثماري، وتوزيع الاستثمارات على محافظ استثمارية عديدة وتجنب ممارسة "وضع كل البيض بسلة واحدة او بسلال قليلة". هذا يتطلب توفر المهارات البشرية المتخصصة والقدرات اللوجستيكية الملائمة، خاصة في حالة الاستثمارات الخارجية. فهل تتوفر هكذا طاقات في العراق، لا اعتقد.

3 - في حالة إقرار استخدام موارد صناديق (التقاعد والرعاية الاجتماعية والضمان الصحي) العراقية لأغراض استثمارية وتهيئة الأطر القانونية والتنظيمية والمؤسسية المتعلقة بها، **أرى من الضروري التركيز مرحليا على حصر نشاطاتها محليا داخل العراق، مع توفير الضمانات الرسمية لتسديد مستحقات المواطنين في اوقاتها.**

الثقافة الجديدة: برزت في الفترة الأخيرة أطروحة جديرة بالاهتمام، مفادها انه استنادا الى استقراء أسعار النفط في الأسواق العالمية، على المديين المتوسط والبعيد، سيكون المتوفر من الريوع النفطية المالية، كافيا لتغطية الموازنات التشغيلية المهولة فقط. وبالتالي، لن يتوفر للحكومات القادمة الأموال اللازمة للموازنات الاستثمارية، ناهيك عن

توزيع الرشا الاجتماعية، كما جرت العادة. مما سيفتح الباب امام إمكانيات نشوب أزمات مركبة سياسية واقتصادية واجتماعية.
في البدء ما هي وجهة نظركم بهذه الاطروحة؟ وهل تتناقض مع افكاركم حول الصناديق السيادية ام ان هناك إمكانية لبناء علاقات تكاملية مستقبلية؟

احمد موسى جياد: فيما يتعلق بالأطروحة التي اشرتَ اليها أقول ان البيانات الرسمية والشواهد المادية تشير
الى ما يلي:
1 - كانت حصة (نسبة) التخصيصات/ الموازنة الاستثمارية في قوانين الموازنة العامة للسنوات العشرين الماضية اقل من حصة التخصيصات التشغيلية/ الجارية. لهذه التوجهات في تخصيص الموارد المالية عوامل تاريخية تتعلق بهيكل الدولة وتوجهات الحكومات المتعاقبة وتفاعل القوى السياسية في عملية اقتراح ومناقشة وتشريع قانون الموازنة السنوية. أي عوامل الاقتصاد السياسي - الاجتماعي.
2 - ان نسبة تنفيذ التخصيصات الاستثمارية (الانفاق الفعلي) الى مجموع التخصيصات الاستثمارية في قانون الموازنة (الانفاق المخطط) كانت منخفضة، وكلما ازداد حجم الانفاق المخطط ازداد حجم الفجوة في الانفاق الفعلي. وهذا يقود الى تدوير رصيد التخصيصات الاستثمارية المتبقية الى موازنة السنة التالية، ليذهب أكبر جزء منها الى التخصيصات التشغيلية. وارى ان في هذه الممارسة خللا في فلسفة اعداد الموازنة وانحيازا لصالح الجوانب التشغيلية على حساب الأبواب الاستثمارية.
3 - عند تأخر او عدم إقرار قانون الموازنة، يتم الانفاق على أساس قاعدة "1/12" من النفقات التشغيلية الفعلية للسنة السابقة. وهذا الامر يتكرر باستمرار، وتشير المعلومات الى احتمالية عدم تشريع قانون موازنة 2026 حيث يتم التركيز على اعداد موازنة العام القادم. النتيجة الحتمية هي عدم وجود تخصيصات استثمارية مع استمرار الانفاق التشغيلي على وتيرته السابقة.
4 - وفي السنوات التي يواجه فيها الاقتصاد ازمة مالية بسبب انخفاض عوائد تصدير النفط، يكون تخفيض النفقات الاستثمارية اول اجراءات التقشف لمواجهة الازمة.
5 - يساهم ما ذكر أعلاه في تفسير ظاهرة كثرة وتكرر "المشاريع المتلكئة" التي يتم ذكرها والضوابط لاستمرار تمويلها في كل قانون للموازنة السنوية. وتشير بيانات وزارة المالية عن الانفاق الفعلي الى حقيقة مقلقة للغاية تتمثل ليس فقط بوجود فجوة واسعة جدا بين النفقات الفعلية الجارية مقارنة بالنفقات الفعلية الرأسمالية، بل ان خدمة المديونية، الدين الداخلي والخارجي، مهولة للغاية وتعادل 237 ضعف النفقات الفعلية الرأسمالية خلال الربع الاول من هذا العام، وكانت بحدود 30 ضعفا في عام 2025!!
6 - تتضمن ادبيات التنمية والتحليل الاقتصادي نظريات واطروحات وتفسيرات عديدة يمكن اعتمادها عند تناول معضلة محدودية حجم واولويات وكفاءة الانفاق الاستثماري وعجزه عن استحداث التغييرات الهيكلية، الافقية والعمودية، المطلوبة وتعزيز القطاعات الحقيقية المنتجة في الاقتصاديات النامية أحادية الجانب، ومنها الطاقة الاستيعابية، المرض الهولندي، لعنة الموارد،

الدولة / السلوك الريعي، حوكمة اللصوصية/ شرعنة الفساد.

استنادا الى ما تقدم وبعد الاطلاع على وتقييم المنهاج الحكومي وفي ضوء العدوان على إيران وتبعاته القاسية على العراق، **لا ارى ان تتمكن الحكومة الحالية من إعطاء الاولوية للإنفاق الاستثماري الرأسمالي.**

اما فيما يتعلق بموضوع الصناديق السيادية، فكما بينت في اجابتي للسؤالين السابقين، إنني اعتبرها أحد البدائل التنموية ولكن فقط في حالة توفر فوائض مالية كبيرة؛ **وهذا ما لا اراه محتملا خلال طيلة فترة الحكومة الحالية كأقل تقدير.**

الثقافة الجديدة: يبدو ان هناك فجوة، بدت تتضح شيئا فشيئا، بين مهام (أوبك) المعلنة في نظامها الأساسي والتي تتمثل في "تنسيق وتوحيد السياسات النفطية للدول الأعضاء فيها وضمان استقرار أسواق النفط من أجل تأمين إمدادات فعالة واقتصادية ومنتظمة من البترول للمستهلكين، ودخل ثابت للمنتجين، وعائد عادل على رأس المال لأولئك الذين يستثمرون في صناعة النفط"؛ وبين ما تواجهه المنظمة من صعوبات حقيقية في التوصل الى اتفاقات بخصوص هذه السياسات، وعلى وجه الخصوص قضية الحصص، والتي تسببت في انسحابات مستمرة خلال السنوات الماضية.

استاذ احمد، هل لكم ان توضحوا لقرائنا وجهة نظركم حول مستقبل منظمة "أوبك"؟ وهل أصبحت أوبك فعلا أداة سياسية بيد السعودية؟ خصوصا بعد توقيع اتفاقية (أوبك+)، وتراجع دور الـ (أوابك) كثيرا؟ من جهة أخرى أستاذ احمد، ما هو موقفكم في ظل اللحظة التاريخية الراهنة من بقاء العراق عضوا في أوبك؟

احمد موسى جياد: يتضمن هذا السؤال عدة اسئلة متداخلة ومترابطة سأحاول تناولها تباعا.

1 - بغض النظر عن نص مهام اوبك التي ذكرتها والتي بنظري وفي ضوء الوقائع والممارسات الفعلية انها تتسم بالعمومية الواسعة، والتي لا تملك اوبك آليات تمكين تحقيقها، فان المهمة الاساسية للمنظمة خلال السنوات الاخيرة تركزت بشكل اساسي على تحديد مستويات انتاج النفط الخام فقط لمجموع المنظمة في ضوء معطيات سوق النفط الدولية، وتحديد مساهمة/ حصة كل من الدول الاعضاء فيها. ومن الجدير بالذكر والتأكيد ان قرارات اوبك+ بشأن حصص الانتاج تتعلق حصرا بإنتاج النفط الخام فقط ولا تتضمن انتاج المكثفات NGL ولا انتاج الغاز المصاحب ولا انتاج الغاز الحر ولا صادرات النفط الخام.

2 - بدأ في نهاية عام 2016 تشكيل مجموعة "اوبك+". تشير بيانات الاوبك لشهر حزيران الى ان مجموعة "اوبك+" تضم اعضاء اوبك (11 دولة) وبعض الدول الاخرى المنتجة للنفط خارج الأوبك (10 دول) بعد تبني الجميع "اعلان التعاون" لمجموعة "اوبك+". من الجدير بالذكر ان دول الاوبك (السعودية والعراق والكويت والجزائر) الى جانب ثلاثة دول من خارج اوبك (روسيا وعمان وكازاخستان) تساهم لوحدها، حاليا، في حصص انتاج مجموعة اوبك+. وهذا ما ذكرته قرارات المجلس الوزاري المنعقد في بداية شهر حزيران، وحدد حصص انتاج تموز 2026. علما انه أصبح عقد اجتماعات

المجلس افتراضيا/ عن بعد بشكل شهري في الآونة الاخيرة لإقرار حصص الانتاج.

3 - بسبب تكرار عدم التزام بعض الاعضاء بحصص انتاجها، تم اعتماد تقديرات "المصادر الثانوية" لتحديد الانتاج الفعلي للأعضاء ومقارنته بحصص الانتاج لتحديد مدى الالتزام، ويطلب من الدول غير الملتزمة تقديم خطة لتعويض تجاوز حصة الانتاج. وقد أصبح من المعتاد في ختام كل اجتماع وزاري الاشارة الى الدول غير الملتزمة.

وفي هذا المجال لا بد من ذكر الملاحظات التالية: الاولى، هي عدم الثقة بالبيانات الرسمية المقدمة من الدول الاعضاء، والاستعاضة عنها بتقديرات "المصادر الثانوية". ثانيا: لا تتضمن قرارات اجتماعات المجلس الوزاري الشهرية انتاج النفط للدول الاعضاء في الاوبك، عدا الدول الأربعة، ولا انتاج النفط للدول خارج الاوبك، عدا الدول الثلاثة المشار لها في الفقرة السابقة. ثالثا، وخاصة بالنسبة للعراق- هي ضرورة اعتبار عدم انتاج النفط، منذ بداية العدوان في 28 شباط لهذا العام، كتعويض عن عدم الالتزام السابق بحصته الانتاجية.

4 - تم تكليف عدد من المكاتب والشركات المتخصصة الغربية تقدير "طاقة انتاج النفط المستدامة" لدول مجموعة اوبك+، وسيتم اعتماد تلك التقديرات في تحديد حصص انتاج الاعضاء اعتبارا من بداية عام 2027. اعتقد ان الحوارات ضمن مجموعة اوبك واوبك+ ستتكثف وتتأثر ليس بتقديرات تلك الجهات الاستشارية فقط، بل يجب، بنظري، ان تأخذ بنظر الاعتبار ما يلي: اولا: تقييم تجربة حصص الانتاج منذ تبنيها في عام 2016 والتي دفعت الى خروج الامارات من المجموعة. ثانيا: تأثير العدوان على إيران وما سيترتب على انتهائه وبالتوقيع الرسمي، عن بعد، على مذكرة التفاهم من قبل كل من رؤساء إيران والولايات المتحدة التي دخلت حيز التنفيذ يوم 17 حزيران. ثالثا: زيادة عدد الدول التي تُحَدَد حصص انتاجها، وليس الاستمرار باقتصارها على الدول السبعة حاليا.

5 - دور السعودية وتأثيرها في الاوبك والاوبك+. لا شك ان للسعودية تأثيرا كبيرا وفاعلا في كلتا المجموعتين وعلى سوق النفط الدولية. وهذا يعود الى الحقائق التالية: للسعودية طاقة متاحة عالية لإنتاج النفط الخام، مما يقود بالتبعية الى توفر طاقة فائضة جعلت من السعودية اهم منتج مُرَجِحْ " swing producer" يمكنه زيادة او تخفيض الإنتاج بوتائر مؤثرة على أسعار النفط وسوق النفط الدولية. ومما يساعد السعودية على لعب هذا الدور هو امتلاكها رصيدا ماليا هائلا في الصناديق السيادية. يضاف الى ذلك التطوير المتناسق في عموم القطاعات الفرعية للقطاع النفطي مما يوفر مرونة هيكلية عند زيادة او انخفاض الإنتاج الفعلي للنفط الخام.

يشكل انتاج السعودية حوالي 34% وحصة روسيا 32% من مجموع انتاج النفط، حسب حصص شهر تموز التي اقرها الاجتماع الوزاري الأخير في شهر حزيران. هذه الأرقام تشير الى وتعزز دور "التنسيق النفطي" السعودي الروسي في مجموعة أوبك+ وبالتبعية في تأثير المجموعة على أسعار وأسواق النفط الدولية، وما يترتب على ذلك جيوسياسيا وجيواستراتيجيا.

6 - وفيما يتعلق بموضوع "تراجع دور الـ (أوابك) كثيرا"، ارى من الضروري التمييز

وتحديد الفوارق الجوهرية بين اوابك من جهة والاوبك واوبك+ من جهة ثانية. اولا: كما بينت اعلاه، يتركز جوهر مهام أوبك واوبك+ على تحديد حصص انتاج النفط الخام لدول المجموعة. ليس للاوابك أي دور في هذا الخصوص. ثانيا: يتركز جوهر عمل ومهام الاوابك على تعزيز التعاون بين الدول الأعضاء في مجال الصناعة النفطية من خلال المشاريع المشتركة. تم خلال الفترة 1972 – 1978 تأسيس ستة مشاريع مشتركة، ما زالت قائمة، ولكن بدرجات نجاح متفاوتة. ليس للاوبك والاوبك+ أي دور فيما يتعلق بهذه المشاريع ولا بنشاطات الاوابك. ثالثا: في الوقت الذي أسست فيه الاوابك ستة مشاريع مشتركة، لا يوجد أي مشروع مشترك تم تأسيسه ضمن الاوبك والاوبك+. رابعا: تنحصر عضوية ومشاريع الاوابك على الدول العربية المصدرة للنفط الأعضاء في المنظمة، في حين ان عضوية الاوبك والاوبك+ مفتوحة. خامسا: تنال قرارات أوبك واوبك+ اهتماما واسعا متواصلا دوليا على كافة المستويات الرسمية والإعلامية والمالية والمتابعات المتخصصة بأسواق النفط وبالصناعة النفطية، في حين نادرا ما تتناول وسائل الاعلام الدولية نشاطات الاوابك، او الشركات المشتركة التابعة لها.

7 - العراق والاوبك. تطرح أحياناً تساؤلات عن مدى جدوى استمرار عضوية العراق في منظمة اوبك ومجموعة أوبك+، كما حدث عند خروج قطر في بداية عام 2019 وخروج الامارات حديثاً. اود في هذا المجال ذكر بعض الملاحظات ذات العلاقة.

أولا: العراق أحد الأعضاء الخمسة المؤسسين لمنظمة أوبك، اضافة الى السعودية وإيران والكويت وفنزويلا، الموقعين في بغداد عام 1960، على اتفاقية تأسيس المنظمة.

ثانيا: منذ ذلك التاريخ ولغاية اليوم، تباين عدد أعضاء الدول الأعضاء زيادة وهبوطا؛ حيث دخلت بعض الدول، ثم خرجت، ثم عادت وخرجت ثانية.. وهكذا. وهنا لا بد من الذكر والتأكيد بانه لكل عضو في الاوبك، حق سيادي، لمغادرة المنظمة، وان النظام الاساسي للمنظمة لا يتضمن احكاما قصرية ملزمة تتخذها المنظمة تتعلق بتعليق او تجميد او انهاء عضوية أي دولة.

ثالثا: حافظ الاعضاء المؤسسون على عضويتهم في المنظمة رغم تعرضهم، باستثناء السعودية، لظروف قاسية قاهرة. لكن التطورات الجيوسياسية التي شهدها عام 2026 الناجمة عن العدوان الامريكي على كل من فنزويلا وإيران قد تقود الى خلق ظروف وتغييرات مؤثرة.

فبالنسبة الى فنزويلا هناك احتمالان متعارضان بعض الشيء - الاول، قد تضغط ادارة ترامب لدفع حكومة فنزويلا للخروج من منظمة اوبك، وكذلك مجموعة بركس. الثاني، ان السيطرة الامريكية على القطاع النفطي في فنزويلا ورفع الحصار عنه قد تقود الى زيادة انتاج النفط. ستشكل هذه الزيادة مبررا لشمول فنزويلا بترتيبات حصص الانتاج ضمن مجموعة اوبك+.

اما بالنسبة لإيران، لا ارى اية احتمالية لخروج إيران من الاوبك. ولكن في حالة نجاح تنفيذ "مذكرة التفاهم"، وتوقف العدوان الامريكي-الاسرائيلي على إيران، وانهاء الحصار والعقوبات الامريكية على إيران، سيقود ذلك حتما الى زيادة انتاج النفط الخام في إيران؛ في هذه الحالة يصبح مبررا شمول إيران بترتيبات

حصص الانتاج ضمن مجموعة اوبك+.
رابعا: فيما يتعلق بالعراق، لا ارى ولا اساند خروج العراق من منظمة اوبك، ليس فقط لأنه عضو مؤسس وان ولادة المنظمة تم في بغداد، وهذا ارث نفطي وطني لا بد من الحفاظ عليه، بل من مصلحة العراق البقاء وتعزيز دور المنظمة في استقرار اسواق النفط الدولية وحصة المنظمة فيها، وبالتالي التعامل مع تقلبات اسعار النفط.
صحيح ان العراق ثاني أكبر المنتجين في المنظمة، إلا ان نسبة مساهمته في مجموع حصص انتاج اوبك+ حوالي 14.3% (حسب حصص تموز 2026) وتنخفض الى حوالي 9.6% ضمن مجموعة دول "اعلان التعاون" (حسب المصادر الثانوية لعام 2025). كما لا يملك العراق حاليا طاقة إنتاجية فائضة للنفط الخام، حتى وان توفرت هكذا طاقة فائضة، لا يملك العراق طاقة تصفية حديثة ولا طاقة فائضة لتصدير النفط الخام، سواء في منافذ التصدير الجنوبية ولا من خلال الانابيب عبر دول الجوار.
كما لا أرى مجديا الاسترشاد او الاستشهاد بخروج كل من قطر والامارات من الأوبك كمبرر للدعوة لخروج العراق؛ فالأولى خرجت بعد ان اصبحت رائدة، على المستوى الدولي، في تصنيع الغاز وإنتاج وتصدير الغاز المسال. والثانية خرجت بعد تطوير طاقات انتاج النفط الخام والتطوير المتناسق لأنابيب تصدير النفط ضمن أراضيها بين "حبشان" في الخليج العربي و "الفجيرة" على بحر عمان، وتطوير صناعة تصفية وبتروكيماويات حديثة. يملك كلا البلدين صناديق سيادية ضخمة على المستوى الدولي، تمكنهما من مواجهة تأثير انخفاض أسعار النفط وتحول دون تعرضهما لازمة مالية خانقة. كل ذلك ساهم في تعزيز توجهات كلتا الدولتين، اقتصاديا وسياسيا واستراتيجيا، بشكل أساسي نحو الدول المتقدمة والمؤسسات المالية الغربية دون تأثرهما بمغادرة أوبك.
وأخيرا، بدلا من ترويج فكرة خروج العراق من منظمة أوبك ومجموعة أوبك+، اقترح على وزارة النفط وشركة "سومو" الاستعداد والعمل الجدي لتصحيح حصة العراق خلال الحوارات، ضمن مجموعة أوبك+، التي ستتم بشأن عام 2027 وما بعدها، المشار اليها في الفقرة (4) اعلاه.
قد يشكل هذا الامر فرصة اخيرة امام العراق لزيادة حصته وتجاوز "خطأ وخطيئة جبار لعيبي" الذي صرح، حتى بعد مشاركته في اجتماع المجموعة الذي حدد حصص الانتاج، ان ما تقرر يتعلق بحصص تصدير النفط!!!
كما ارى ضرورة التهيئة الجيدة لمواجهة الاحتمالات العالية لما سيترتب على مذكرة التفاهم الامريكية-الايرانية التي دخلت حيز التنفيذ في حزيران. حيث انخفضت اسعار النفط الدولية بشكل كبير، وتم اعادة النظر، تخفيضا، في توقعات اسعار النفط من قبل جميع الجهات الدولية المعنية، والعودة الى امكانية تحقق فائض في انتاج وعرض النفط، قبل وخلال عام 2027.
قد تقود كل هذه الاحتمالات، ان تحققت، الى ضرورة اعادة النظر في آلية تحديد حصص انتاج دول اوبك/اوبك+ وزيادة عدد الدول التي تشملها الآلية؛ وهذا يعني اننا قد نتجه الى مشاهدة فترة تشنج وخلافات وعدم يقين في الاجتماعات الوزارية المستقبلية لدول اوبك/اوبك+.

أدب وفن

ثقافة الاستثمار الخاطئة

حسب الله يحيى

لا يمرّ يوم في العراق إلا ونستمع الى انباء ساخنة تتعلق بالاستثمار .

صحيح ان الاستثمار يعني تشغيل الاموال بدلا من خزنها وتكديسها والرغبة الملحة في زيادتها، الا ان ما يجري في العراق لا يتم على وفق اسس علمية ولا تخطيط دقيق، وانما تجري الامور على وفق رغبات المستثمر وتحقيق منافعه الشخصية على حساب الحقوق المتعلقة بممتلكات الدولة (مبنى القشلة التراثي) مثلا، وممتلكات اراضي ومباني الناس.

ان الشعور الاستثماري القائم لا يلتفت الى ارث وتاريخ ولا اهمية الموقع التراثي ولا المتنزه ولا المكان التاريخي، بل نجد على العكس من ذلك الايغال في تشويه المكان، بإقامة مولات او شقق او مطاعم.. في وقت نجد العراق بأمس الحاجة الى بناء مصانع ومشاريع وجامعات ومسارح ومرافق ثقافية وعلمية في جميع الميادين.

وكل هذه لا يلتفت اليها المستثمر العراقي ولا الاجنبي المكلف في العراق، لان الجميع يريدون تحقيق الارباح بشكل سريع.

واذا ما توجه مستثمر الى الماء او الكهرباء او الانترنت او حتى النظافة، فأنه يسعى الى ابتزاز الناس وبطرق تعسفية ترهق كاهلهم، ازاء اداء رديء خال من المتانة والعمل السليم .. هذا اذا ما تم انجاز العمل اصلا .

وفي المعلوم جيدا ان معظم هذه المشاريع تُترك دون استكمالها بسبب غياب الرقابة الصارمة والاحساس العميق بالوطن والمواطنة .

ان عجز الحكومة عن اداء مهامها وعدم معالجة هذا العجز وانتشار الاستثمار السلبي، من شأنه ان يجعل البلاد تقع في مزيد من الخراب.. والخاسر الوحيد في هذه (الثقافة الرسمية) التي تدعو اليها الحكومة تخلو من الاحساس بالمسؤولية وتجعل البلاد رهنا بيد المستثمر الجشع.

الاستثمار.. لا يعني ابتزاز ثروات البلاد وصولا الى مأرب ومنافع شخصية، والاستثمار لا يعني ابدا جعل اقتصاد واراضي وارث البلاد ومعالمها بيد مستثمرين لا يعتد بمواقفهم الوطنية ولا بسلامة عملهم.. فهل من اذان صاغية؟

ترتيبات القول التحريضي للصكار
حبري أسود فلا تطلبوا مني أن أرسم قوس قزح

علاء حمد

إنّ المعجم النصّي من المعاجم المشتبكة بعلاقات داخليّة وخارجيّة، يعدّ معجماً لغويّاً تصويريّاً، ويحوي عناصر عديدة، منها الفعل التحريضي بين النصّ والمتلقي، عنصر الدهشة والصورة الصادمة، التقاطات نظرات الطائر، اللقطات المشهديّة وعلاقاتها مع القول الآني والمتقدّم، والتحريض على إثارة الآخر من خلال المشهد اللغوي النصّي.

لا يكتفي القول التحريضي بنقل الوقائع ووصفها، بل يسعى الى تكوين علاقة بين المنظور الكتابي، والمتلقي، وتكون هذه العلاقة، حجاجيّة ولغوية، فينتج عن ترتيبات دقيقة على مستوى البنية النصّية، وتنظيم الخطاب اللغوي والسياق التداولي، بحيث يجعله جزءاً من المتلقي.

إنّ التواصل القولي عبر النصّ الشعري، يسعى إلى عمليّة تواصليّة خارج المألوف من جهة، ويكون للاختلاف اللغوي قيمة رمزيّة تشفيريّة من جهة ثانية.

(لغة الخطاب الأدبي متعدية منزاحة خارجة عن المألوف، والخطاب الأدبي مؤسّس على أن يكون خارج اللحظة التي نستهلكه فيها، ولهذا يتعالى على الزمن ويسعى إلى الخلود والأبديّة، فمرجعيّة الخطاب تنبع من ذاته، وبها يشكّل كيانه، ويتقاطع مع نصوص أخرى، فهو يلوّنها على وفق سياقه، ويصبغها

برؤيته، ومن خلالها يخترق الزمان والمكان ماضياً ومستقبلا) 1.

كما تحدّث رومان جاكبسون في مقاربته التواصليّة الوظيفيّة فقد تحدّث عن ستة عناصر في عملية التواصل: المرسل.. ووظيفته انفعالية، والمرسل إليه ووظيفته تأثيريّة.. والرسالة ووظيفتها جماليّة، والمرجع ووظيفته مرجعيّة، والقناة ووظيفتها حفاظيّة وتواصليّة، واللغة ووظيفتها وصفيّة وتأويليّة وتفسيريّة.

قدّم الشاعر والخطاط الراحل محمد سعيد الصكار مجموعة شعرية مميّزة، وكان عبد الحق البغدادي الذي تمّ إبداعه ذهنياً (عبد الحق البغدادي، رجل في عمري، أبدعه الذهن – مقدمة الشاعر – ص 7). ومن خلال هذا التوسع الذهني، نلاحظ أنّ العنوان لا ينكمش

على ذاته، طالما أنّ الشاعر قد استعاد ذهنيته في التصوير اليومي وقد خرج من المحدود وذهب إلى اللامحدود في رسم العنونة.

قالوا: (لو أبقى عبد الحق لنا شيئاً من تاريخ دونه،
صفحته الأولى،
شيئاً من آخره،
شيئاً للذكرى).
قال: (فأوّل ما دوّنتُ،
مقدّمةٌ تختصر العمرَ،
وآخره فهرستُ حياتي؛
وأنا في أيّ الاثنين
أناول مفتاحَ الأسرارِ؛
فأيّة ذكرى غير الموت،
بدونه مقدّمة وبلا فهرست).

قصيدة: الذكرى – ص 8

أن تلتقي الوحدات بأندرها هي وحدة الخيال، فهذا يعني أن تعبّر عن وحدات لغويّة متعلقة بالذات، حيث تقودنا إلى حسّ المداعبة (لغة ومعنى) وتثير الأحاسيس وتدعوها إلى الاندماج النصّي، فالوجود الاسمي يجعلنا نقرّ بما هو موجود، مثلا؛ وجود عبد الحق البغدادي وهو يروي عن أيامه، فيكون الموضوع الذي ننتمي إليه مماثلا، أي أن وحدة الموضوع والدلالة المركزية تشدّنا على أن نكون جزءاً منها.

قالوا: (لو أبقى عبد الحق لنا شيئاً من تاريخ دونه، + صفحته الأولى، + شيئاً من آخره، + شيئاً للذكرى).
قال: (فأوّل ما دوّنتُ، + مقدّمةٌ تختصر العمرَ، + وآخره فهرستُ حياتي؛ + وأنا في أيّ الاثنين + أناول مفتاحَ الأسرارِ؛ + فأيّة ذكرى غير الموت، + بدونه مقدّمة وبلا فهرست).

يعد القول التحريضي جزءاً من القول النصّي، ويعتمد القصديّة ويكون حدثاً لغوياً فعّالا لا ينتهي بنقطة معيّنة بقدر ما يعيد تشكيل المعاني من الذات إلى المفهوم النصّي، ومن الطبيعي أن يكون وعي المتلقي مندمجا بمساحة النصّ، ومن هذا المنطق ينطلق القول التحريضي كمؤثر؛ خيالي، حِجاجي، رمزي، سريالي وجمالي، فالعنصر الجمالي لا يفارق التأثيرات التي يطلقها الشاعر.

من خلال النصّ (قالوا)، أي أنّ الحالة جماعيّة أكثر من أن تكون فرديّة، في الوقت نفسه إنّ القول (إخباري مع القول الأدائي لتثبيت النصّ من قبل القائل). فاللغة التي حوّلها الشاعر الصكار، هي لغة طاقة فعّالة ودافعة، ومن هنا لا نلمس التحريض بصيغته المبنيّة على القول الكلامي البسيط، بل إنّ هناك مضمرات مخفيّة في السياق النصّي.

إنّ اختصار العمر ومفتاح الأسرار والفهرست الحياتي والموت، كلها انجذابات تعتمد على مفاهيم سياقيّة لتوضيح المعنى والدخول إلى تلك الذكرى التي أعلنها الشاعر. (إنّ الشعر ليس إشارياً على نحو ما نجد فيه الخبر والعلم والمنطق، ولكن الشعر ليس عالماً مقفلاً مكتفياً بنفسه متميزاً تماماً عمّا عداه، فالشعر أحياناً إشاري بمعنى آخر غير المعنى الّذي يلحّ عليه الوضعيون) 2.

البنية السببية

تعني السببيّة في المنظور النصّي، الفعل الفاعل وحركته بين الجمل الشعريّة، لذلك من الممكن أن نقول مثلا؛ النار تحرق، والطلقة تقتل، ومن هنا يكون للفعل المادي دورا في تدشين المفردات وسبب وجودها، مثلا نقول. المادة الأساسيّة لصنع شيء ما، فطالما النصّ خلق، إذن هناك من خلق هذا الشيء، وكذلك

عندما نرى لوحة فنية، فلابد أنّ هناك فناناً تفنّن ووزّع ألوانه في هذه التحفة.

الشاعر والخطاط العراقي محمد سعيد الصكار نزل إلى عبقرية النصّ، ونسب تلك النصوص إلى نبض آخر (عبد الحق البغدادي) ومن خلال التسمية التي أبدعها الشاعر نرى هذا الرجل لا يقول سوى الحقيقة، إذن هناك بعض الأسباب لوجوده في ذهنية الشاعر.

إنّ الكلمة التي ننتمي إليها واقعيّة، مثلها مثل الحقيقة، وكما الموت واقع لا يمكننا أن نبتعد عنه، إذن لوقع المفردة في النصّ الشعري وقائع عديدة، وهي ذات علاقات مع المبدأ السببي في النصّ المكتوب.

(تستمدّ الكلمة واقعيتها من حقيقة كونها رمزا أو علامة من العلامات لا يمكن نكرانها. والكلمة كبقيّة العلامات الأخرى تدلّ على صورة سواء كانت مرئيّة أو مسموعة. وهذه الصورة هي ما يسمّيه سابير بالعنصر اللغوي. وعناصر اللغة هي علامات التجربة كما يقول. فالعنصر اللغوي "منزل" مثلا علامة لا تقتصر على إحساس معيّن أو شيء خاصّ بل هي "علامة مضمون فكريّ ملائم يضمّ شتى التجارب المختلفة. – سابير – اللغة ص 25 " وعليه أنّ اللسان نظام من العلامات، ومن أهمّ هذه العلامات الكلمة) 3.

قال عبد الحق: (ما من لوعة تبقى مدى العمر!).

ولكن،

من تُرى خوّل عبد الحقّ لأن يهذي،

وهذا العمر يمضي

ماسحاً كلّ تقاطيع المسافات،

سوى مملكة اللوعةِ؛

من يُسكت هذا الهذيان!

من قصيدة: مغالطة – ص 17

ففي المنظور السببي هناك أفكار تطرح، وهناك سببيّة لتلك الأفكار ووقوف على تعليلها، والشيء الأهمّ من ذلك لكلّ فكرة أو حدث تكمن بعض الظواهر التي تكون علاقتها علاقة سببيّة، وعندما نكون في منطقة المعرفة النصّية تباغتنا دهشوية اللغة، حيث أنّ الشاعر يترك الواقع وينتمي إلى بطله الحسّي.

قال عبد الحق: (ما من لوعة تبقى مدى

العمر!) + ولكن + من تُرى خوّل عبد الحقّ لأن يهذي + وهذا العمر يمضي + ماسحاً كلّ تقاطيع المسافات+ سوى مملكة اللوعةِ + من يُسكت هذا الهذيان!

مملكة اللوعة هي الأكثر إثارة، وتعد دلالة الممرّ إلى المنظور النصّي، وقد تمركز النصّ في هذه المنطقة، والممرّ الذي نقصده، هو العبور نحو استنتاجات تجربة (عبد الحق) فعدها الشاعر كلمة، وهي الكلمة القانونيّة في النصّ المكتوب. كلّ شيء يزول إلا اللوعة تبقى بقيمتها الحقيقيّة.

نحن نسافر بلا بطاقات،
إلى مدن خارج الخارطة؛
فلماذا يسألنا المفتّش عن الزمان والمكان،
ويغرّمنا الثمن

***

حبري أسود
فلا تطلبوا منّي أن أرسمَ قوسَ قزح!

***

الكلمات ليست بحاجةٍ إلى حرائق
لكي تشتعل.

من قصيدة: تأملات عبد الحق البغدادي – ص 29

هناك عدّة أنواع للسببيّة في المنظور النصّي، وهي ذات علاقة مع الفعل التحريضي، ويكون لدلالتها حركة مركزيّة من خلال امتداد المعاني؛ فالسبب التفاعلي يظهر عندما تكون هناك تغييرات معيّنة في الجملة الشعريّة، ومن هذه التغييرات مثلا؛ الاختلاف اللغوي والانزياح، حيث يكون التفاعل من خلال المعنى الأسلوبي، فيُثار المعنى الذي يتم تشييده للنقاش والجدال، وذلك عبر الأخذ والرد، الامتداد واللامحدود، فتشكّل دلالته دلالة حِجاجيّة.

نحن نسافر بلا بطاقات، + إلى مدن خارج الخارطة؛ + فلماذا يسألنا المفتّش عن الزمان والمكان، +
ويغرّمنا الثمن

حبري أسود + فلا تطلبوا منّي أن أرسمَ قوسَ قزح!

الكلمات ليست بحاجةٍ إلى حرائق + لكي تشتعل.

إنّ تحريض المتلقي هو زرع المؤثرات على التتابع، إن كان بصيغته السببية أو الصور المحرّكة لعناصر الدهشة، ومن هنا نبني الجسر الواصل بين ضفتين، ضفة النصّ، وضفة المتلقي. (إنّ العبور من أ1 إلى أ2 يتمّ بطريقة اعتباطيّة. بل ينبغي أن يُنجز بواسطة قول يبرّر الصلة السببيّة التي توحّد بين أ1 و أ2. إنّ هذا القول يمثّل كوناً من الاعتقاد حول الطريقة التي تتحدّد بها الأفعال فيما بينها على مستوى التجربة أو معرفة العالم. – باتريك شارودو – الحجاج بين النظرية والأسلوب)4.

التكوين النصي:

لكلّ نصّ رؤية تكوينيّة كأن يكون فعل المتخيّل، أو الفعل الواقعي واندماجه مع اللغة واختلافاتها، وذلك للابتعاد عن المباشرة، أو الانتماء إلى المعنى العجائبي وتأثيراته في تحريض المتلقي على التتابع والانشداد إلى النصّ، تعد هذه المكوّنات ذات أبعاد أستطيقيّة وهي تسعى إلى إيجاد مناطق خاصة بها في النصّ الشعري وتكويناته المبهجة.

ينبغي أن تكون الكتابة في حالات التكوين النصّي؛ على أنّها مساحة لعملية خلق الصور الذهنية قبيل الكتابة، ويكون للوعي الكتابي الانسجام في الاستقرار الكتابي، وهو أعلى مشهديّة يصل إليها الشاعر عند التكوينات

النصّية.
مسح الفرشاةَ.
لم يبق من الألوان ما يحمل همّ الأرض؛
أبقى اللوحة الخرساء
تبكي حزنها الدائم.
قل لي:
من يؤاسي الآن؛
فنّان بلا لونٍ،
أم الحزنُ الذي حوصر
في صمت القماش؟!
من قصيدة: تأملات عبد الحق البغدادي – ص 29

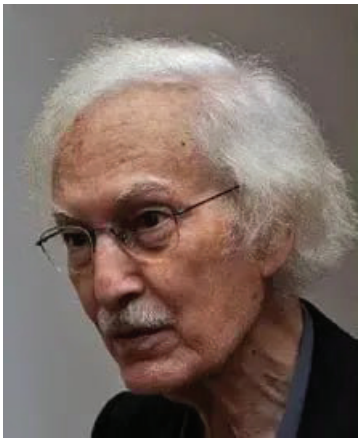

محمد سعيد الصكار

يعتمد المشهد القولي على مضمون المعنى وتبقى الوحدات اللغوية كما هي، فالتغيير هو الذي يحدث، تغييراً في العلاقات، أمّا الدلالات فهي ضمن اللامحدود. ومن هنا يظهر المعنى الكلي للنصّ، والذي يعد أكثر ظهورا من المعاني الجزئية.
مسح الفرشاةَ. + لم يبق من الألوان ما يحمل همّ الأرض؛ + أبقى اللوحة الخرساء + تبكي حزنها الدائم.
قل لي: + من يؤاسي الآن؛ + فنّان بلا لونٍ، + أم الحزنُ الذي حوصر + في صمت القماش؟!
بين البنية السببيّة التي ساهمت بتأسيس الوحدات النصّية، وبين المشهد الكلّي للنصّ، نستطيع أن نقرأ اختلاف الدلالات، فالكلمة دلالة، وهي دالة على نفسها، والجملة دلالة، وهي مكوّنات امتداديّة لكلمات ساهمت في عملية التركيب، وبين البنية السياقية والتي تظهر من خلال المعنى، يكون للنصّ عدّة مشاهد جزئية وكلّية، فهي المؤسّسة الطبيعية للبنية النصّية كمنظور كلّي.
يعتمد الشاعر محمد سعيد الصكار على البنية القوليّة التي تتحوّل بحكم كتابتها إلى دلالة للمعنى، وخصوصاً أن الشاعر اعتمد الاستعارات والتشبيه الضمني ورمز إلى بعض الأشياء وذلك لجذب انتباه المتلقي.

في المعرفة النصية:

إنّ الربط اللغوي بين معرفة النصّ والمعرفة الدلاليّة تقودنا إلى مركزية العمل النصّي، وهذا يعني أنّنا سنكون في منطقة الأثر اللغوي (فلسفة اللغة)، والأثر الدلالي، وإطار المعنى وسبل الاعتناء بالتأويل، ولا أستطيع أن أطلق على هذه المناطق بمحدّدات النصّ، فعلم اللغة النصّي من العلوم الواسعة، خصوصاً عند توضيح الإمكانيات النصّية وعلاقتها المتاحة بالنظام اللغوي.
(إنّ التبادلات والتتابعات والتجاورات والإيقاعات التي تنتج عن اختيار معيّن لا توصف بالصرامة والوجوب، كما أنّ العدول عن أبنية إلى أبنية أخرى ذات دلالات معيّنة لا يعود إلى النظام، وإنما يعود إلى كفاءة المنتج وقدرته على تشكيل أبنية اللغة تشكيلاً إبداعياً. 5).

قيل لعبد الحق:
كيف كانت ليلتك عند الوزير؟
قال: أوّلها قلق،
وأوسطها أرق،
وآخرها فرق!
قيل لعبد الحق:
بلغنا أنّ فلاناً قد مات.
أفتظنه مات موتة الله، أم قتلته الحكومة؟
قال: موتَة الله؛ إنّما بأمر الحكومة!
من قصيدة: ما وعته الذاكرة، من أخبار عبد الحق البغدادي – ص 41

من الممكن أن نستفيد من الدلالة الإيحائيّة والدلالة الإشارية في المنظور النصّي، حيث إنّ النصّ كمنظور كلي، تؤسّسه الكلمة الدالة ومن ثمّ السياق الدال على اللغة أوّلا وعلى المعنى والتأويل ثانياً، وفي الشعريّة عادة يكون للاختلاف اللغوي تجربة جديدة للتفكير، وكلّ اختلاف يمرّ بنا، تمرّ بنا تجربة الشاعر وقصديته النصّية، لذلك عندما يبدل الشاعر الأشياء، فإنّه يشير إلى تلك الأشياء الجديدة، لأنّها ستكون محلّ إشارة دلاليّة ومن الممكن أن تشفر العمل وتعمل على إنتاج معنى جديد.
قيل لعبد الحق: + كيف كانت ليلتك عند الوزير؟ + قال: أوّلها قلق، + وأوسطها أرق، + وآخرها فرق!
قيل لعبد الحق: + بلغنا أنّ فلاناً قد مات. + أفتظنه مات موتة الله، أم قتلته الحكومة؟ + قال: موتَة الله؛ إنّما بأمر الحكومة!

يحيل الشاعر الإنتاج الدلالي إلى نفي الحياة، فالمقطع الأوّل كان الوزير، وكانت الأسلوبيّة في المعنى، فالعلاقة التي تحدّث عنها الشاعر محمد سعيد الصكار، هي تلك العلاقة بين الرعية وبين الجهة العليا، وما صياغة الأسئلة إلا لتكوين أجوبة تلائم المعنى الأسلوبي للمعنى، ومن هنا فقد انطلق الشاعر وأنهى ذلك اللقاء بالموت، وفي الوقت نفسه جعل الموت كخط أخير، حيث أنّه استدرج المتلقي بين: القلق، والأرق والفراق، إذن هناك مقدّمات رسمها قبيل النهاية.

يقودنا الشاعر من الوزير إلى الحكومة، وفي الحالتين يُدخلنا في نهاية الإنسان لكي تستمرّ الحكومة. إنّ الشعريّة هي الجسد النصّي للقصيدة، لذلك مهما تكرّرت المعاني، فأسلوب الطرح يختلف بين معنى وآخر، ومن هنا أراد الشاعر أن نكون أمام مناطق من الرؤية النصّية. إنّ النصّ يبحث عن مناطق أستطيقيّة تجمّل العمل، ويبحث عن وجود وإقامة دائمة، لذلك يحمل المعنى قصديته لكي يؤسّس منطقة تأثيريّة تعمل على تحريض المتلقي..

المصادر:

1 - نور الدين السد - الأسلوبية و تحليل الخطاب دراسة في النقد العربي الحديث – ص 56 ، 57
2 - د . مصطفى ناصف – اللغة والتصور والتواصل – مجلة عالم المعرفة، اللغة والتفسير والتواصل – ص 24.
3– د . عبد الحميد عبد الواحد – الكلمة في اللسانيات الحديثة– ص 17.
4– ترجمة: د. أحمد الودرني – ط1 لسنة 2009م، دار الكتاب الجديد المتحدة، بنغازي، ليبيا – ص 22.
5– د. سعيد حسن بحيري – نظرية النصّ من كتاب: علم لغة النصّ - ط1 لسنة 1997م، مكتبة لبنان ناشرون - ص 73.

***شاعر وناقد عراقي يقيم حاليا في الدانمارك**

هذه ثلاث قراءات في الرواية العراقية والعربية والسويدية، نقدمها بهدف إعطاء صورة متكاملة عن العالم الروائي الراهن ومدى اهتمامه بالمجتمع والمخيلة الإبداعية.

محرر ادب وفن

رواية "ينام وذهنه مشغول" لشاكر الانباري
فاجعة بلاد وشاعر مشلول...

جمال كريم

تحيل رواية شاكر الأنباري "ينام وذهنه مشغول" (دار نينوي - دمشق 2025) إلى فاجعتين: فاجعة بلاد على مدى ستة عقود ونيف، وفاجعة شاعر حالم مهزوم على مدى زمن مفجوعية البلاد نفسها. وقبل أن تتناول هذه القراءة لمتن الرواية العام سردا وشخصيات وأمكنة؛ ألفت نظر المتلقي الى ثلاث عتبات نصية لسانية خارجية تمهد للمتن الداخلي العام وتضيء كل وحداته ومقاطعه السردية الداخلية وهي: عتبة العنوان المركزية التي تصدرت متن الغلاف، وعتبة الأهداء، وعتبة الغلاف الأخير بمحتواها النصي. وإذا أعددنا عتبة العنوان الممر المركزي الذي ينفذ منه المتلقي إلى متن النص، فهي إلى جانب ذلك علامة دلالية مهمة لمتن النص العام، وقد شكّل الأنباري عتبة عنوان روايته من مقطعين كلاهما يكشف عن دلالة الآخر بأداة رابطة بينهما (الواو)، فالمقطع الأول بدلالة فعلية ذات حدث وزمن

مستمر يمثله الفعل (ينام). أما الثاني فهو تركيب نصيّ إسمي يمثله الذهن وحالة انشغاله: (ينام وذهنه مشغول)، إنّ مجاز المقطع الفعلي يدل على السكوت والسكون واللاحركة (النوم) وهنا الدلالة تحيل إلى الشلل العام الكلي، فيما يدل مجاز المقطع الأسمي – ذهنه مشغول - على الفطنة والتأمل والتذكر بمعنى إشتغال ذاكرة

متقدة، وبهذا تكون العتبة بدلالتها الكلية تشير إلى حالة الشخصية المحورية والرئيسية في الرواية الشاعر(رسول)، أما عتبة الإهداء التي سبقت صفحة المفتتح السردي للرواية فكان خطابها النصي اللساني: إلى روح أخي علي، مسبوقًا ببيت الشاعر المتنبي:

كفى بك داء أن ترى الموت شافيًا

وحسب المنايا أن يكن أمانيا

وأيضًا كلا الخطابين يشيران إلى الشاعر (رسول) شخصية الرواية المركزية ومحورها الرئيس. أما عتبة الغلاف الأخير فقد أفضى خطابها النصي اللساني الى شخصية الرواية المحورية أيضًا، وهي تعيش خراب البلاد و"تفليشها" بدرجة أكثر وضوحًا وكثافة من العتبتين الأولى والثانية: "ينام وذهنه مشغول" تروي محكيات الأيام الأخيرة لاحتضار (رسول) الشاعر بعد أن أصيب بجلطة دماغية كانت بمثابة القشة القاصمة بينه وبين الحياة التي عاش والأحلام التي تكللت رأسه على مدى ستين عامًا ، ولم يعد يتواصل مع محيطه سوى بعينيه، وذاكرته المتوهجة التي تسترجع أحداث حياته منذ الولادة وحتى لحظة مغادرته الحياة. سيواجه موته وحيدًا مثلما جاء الحياة وحيدًا حين ولدته أمه في غرفة طينية عارية الجدران. والرواية في الوقت ذاته، استرجاع انتقائي لتأريخ بلد، في الستين سنة الأخيرة، كون ذلك التأريخ المضطرب، الدموي، هو ما ساهم في أزمته الروحية كشاعر يحلم كثيرًا".

إن العتبات النصية الخارجية المشار إليها كلها تفضي إلى متن الرواية العام وكل محمولاته التي توزعتها الوحدات والمقاطع السردية، لم تكن سوى لعتبة متن الغلاف وقد خلت من أي خطاب بصري يفضي في الاتجاه ذاته.

وإذا كانت عين الراوي المبدعة تحديدًا وحصرًا هي أكثر صدقًا في الرؤية والالتقاط والاستذكار والسرد والحكي عن أية مرحلة تأريخية تعيشها البلاد، من عين أي مؤرخ يؤرخ على وفق عقيدته الدينية أو السياسية أو القومية العنصرية، فإن عين شاكر الأنباري وذاكرته السردية من منفاهما القصي نسجتا في (ينام وذهنه مشغول) تأريخًا دمويًا، وأحداثًا كارثية، ومحنًا فظيعة، وحروبًا مدمرة، وصراعات سياسية وحشية على سنام ومقاليد السلطة وكل اشكال مغانمها على مدى أكثر من ستين عامًا مشت على هذي البلاد التي داست على رأسها أنظمة دكتاتورية قمعية متجبرة لا ترحم، وخلال كل هذه الأهوال يأتي الأنباري على سيرة الشاعر الحالم المهزوم (رسول) وتصادم شاعريته الحالمة منذ بواكيرها الأول مع بشاعات تلك الأنظمة وفظائعها اللاإنسانية، ثم لتتصادم تصادمها القاتل المميت مع رؤيته لدمار البلاد من قبل غزاتها الثلاثة: الوحش الإمبريالي الأميركي، وحشا القاعدة، وداعش، الإسلاميين الإرهابيين. من مفتتحها السردي الأول تتعقب "ينام وذهنه مشغول" سيرة الشاعر الحالم "رسول"، وسيرة بلاد عصفت بها الأحداث والصراعات والمحن والحروب على مدى أكثر من ستين عامًا. شاعر تتبدد كل أحلامه وسط فوضى وخراب البلاد فيتوقف وعيه وتفكيره، وتنشل قواه، سوى عينيه الرائية، وذاكرته النابشة فيما لن يكون ثانية، شاعر من دون كل ذلك يعيش فاجعته واحتضاره وعزلته الوجودية ووحدته الروحية، يتربصه من نافذة غرفة مشفاه شبح الموت وشيطانه "بدأ احتضاره الطويل منذ أن تراءى له ذلك الوجه الممتقع، منقبض التعابير، وهو يلتصق بزجاج النافذة. وجه مرعب ملأ الجانب الخارجي للنافذة، وتجلى بهيئة ثابتة، منفّرة، لا تتحرك فيها أية سمات، كما لو كان

يرغب أن يوحي له برسالة ما، وكان الوقت عصرًا، وكانت له عينان، وهناك أنف طويل مشوه، وسمة غير بشرية في ذلك الوجه. بدا كما لو أنه هابط من جحيم غامض يختبئ خلف العالم المحسوس للبشر. جناحاه شفيفان ينفرشان في الأفق، ولا يمكن إلا أن يكون بذات نفسه-ص -7". إن شخصية الشاعر "رسول" الرئيسة في الرواية إلى جانب الشخصيات المحيطة، زوجته "براء" وابنهما "بشير"، وأخوه "فؤاد" وصديقه "هاتف" و"صالح النجرس" صاحب المنتجع ووجيه قرية والطبيب "واثق"، كل هذه الشخصيات تظهر كنتيجة لما آلت إليه البلاد :"قبل هذا التأريخ تفشت تنظيمات القاعدة في المنطقة مثل وباء الجدري، في غفلة من الجميع هيمنت على القرى والأرياف، وأتباعها ينشرون تعاليم دينية لم يألفها البشر منذ قرون، تزامنت مع احتلال الأمريكان للبلد. ولم تمر سوى سنوات على إزاحتها من المشهد حتى وفدت موجة ثانية من الأفكار الشاذة فيما عرف بتنظيم داعش، كان أشد فتكًا ووحشية من القاعدة" ص12 . ويمكننا هنا أيضًا أن نعد الوحدة السردية الأولى كعتبة نصية داخلية مبتدأ أساسيًا حكاية ومحكيّات متن النص العام: "ولد رسول في ليل تلك القرية الساحرة قبل عقود لا تعد، ولدته أمه، ويا ليتها لم تلده كما دأب على القول في كل حدث جلل عاشه في حياته. تجربة عشرات السنين أقنعته بأن الحياة ليست سوى ظل يمشي على المسرح، كما كتب جده شكسبير" ص21. لكن "ينام وذهنه مشغول" لم تنشغل سرديتها على مدى 279 صفحة من القطع المتوسط بسيرة الشخصية الرئيسة وهو الشاعر الحالم (رسول) ومأساة هزيمته الحياتية والوجودية بعد ولادته بقرية تقع على كتف نهر الفرات في الأنبار كمكان رئيس ومركزي في

الرواية، إلى جانب الرمادي وبغداد في أثناء مرحلة الدراسة الجامعية بآداب بغداد، وبقية الأمكنة الاخرى (المحيطة) وليس الثانوية كما في محلة الكرنتينة كمكان فاعل ومؤثر في حياة (رسول) الشاعر، بل هناك أمكنة محيطة وقريبة على مستوى المكان في النص تؤطر الشخصيات والأحداث في مقابل أمكنة محيطة بعيدة ليس لها أية وظيفة تأطيرية، كما ليس ثمة شخصيات ثانوية (هامشية) بل هناك شخصيات محيطة قريبة ومؤثرة فاعلة، وأخرى بعيدة غير مؤثرة، كما شخصية (براء) الزوجة، وشخصية (بشير) الابن، وشخصية (فؤاد) الأخ، وشخصية (هاتف) الصديق، إلى جانب الشخصيات المحيطة الأخرى. قلت لم تنشغل الرواية بسيرة (رسول) الشاعر وحسب، بل انشغلت الرواية ذات الإحدى عشرة وحدة سردية بفجائعيات شاعر وبلاد حد التماهي واليأس والاستسلام: استسلام الشاعر للموت والعدم، واستسلام البلاد للغزو والاحتلال والخراب والدمار، والجهل والتخلف والعصبيات الطائفية والحروب، وظلاميات الغيبيات وتخريفاتها.

حين تصنع السيرة من فتات التفاصيل: "طباخ انغمار برغمان"

بهاء إيعالي

تُقَدَّمُ روايةُ «طبَّاخ إنغمار برغمان» (منشوراتُ المتوسّط، 2025) للروائيّ السوريّ فجر يعقوب صوتًا روائيًا مرهفًا في التقاطِ اليوميّ، فريبًا من الحوام التي تستقبل العالمَ في مادّته الأولى قبل تولّي اللغة إعادة ترتيبه. ينقسمُ النَّصُ إلى «قَسم أوَّل» يفتحُ باب الحكايةِ على أثرٍ جسدي مُبكِّر، ثمّ يمضي في مسارٍ تتكاثرُ فيه العلاماتُ الصَّغيرة من طاولةٍ ومكبّر صوتٍ ومصعدٍ ورابط وشجرةٍ وقفص طائرٍ إلى بحرٍ يُلقى فيه دليل صامتُ، فتَغدو التفاصيلُ مفاتيحَ للقراءة ويكبرُ هذا المفتاحُ كلّمَا ألحَ المكانُ والذاكرةُ في تثبيت حضورِهما.

تدورُ الحكايةُ حول يحيى الذي يجرْ وراءه أثرًا قديمًا ويتنقّلُ داخلَ سويدٍ تُحكِمُ تنظيمَ البشر عبرَ الإشاراتِ والأجهزةِ والملفات، فيما يحضرُ إنغمار برغمان بوصفه اسما يلمعُ مثل مرآةٍ تُطِلُ منها أسئلهُ الذَّنب والمؤسَّسة والضَّريبة والمنفى، ثمّ بوصفِه مرآةً لمكانٍ محدِّد هو فارو، حيثُ تستقرُ الحياةُ بمحاذاةِ القبر ويغدو القربُ من الغائب جزءًا من يوم عادي. هذا كلُه يتكثّف عند نقطةٍ تبدو بسيطةً هي المطبخ، إذ يخرجُ الطَّبخُ عند يحيى من حدودِ المهارةِ ليصيرَ طريقةً لفهم النَّاس وإعادةِ توزيع الحقيقةِ بينهم.

بوضوحٍ وعلَى مهلٍ تجيءُ الرِّوايةُ في نهايتِها

لتُثبتَ أمرًا واحدًا هو أنَّ السِّيرةَ تُكتَّبُ من فتاتٍ متناثرٍ ثمَّ تأخذُ فى التماسكِ حين تُحسنُ العينُ النقاطَ «القَرينةِ» في أصغرِ الأشياء، وحين تمضي اللّغة إلى تسميةٍ ما ظلَّ مؤجَّلًا، وحين يملكُ الإنسانُ شجاعة الاعترافِ بأنَّ العالمَ ينجو أحيانًا بتواطؤٍ يستترُ في الظِّلال، ثمَّ ينجو مرَّةً أُخرى بكشفِ هذا التَّواطؤ ووضعه في مواجهةِ الحقيقة.

القرينة تتحوّل إلى سيرة:

يفتحُ النَّصُّ بابَ الحكايةِ بكلمةٍ تبدو في ظاهرِها محايدةً ثمّ ما تلبثُ أن ترتفعَ إلى عتبةٍ كاملةٍ وهي «إيكيا»، إذ تسبقُ الحدث وتستقرُّ في صدرِ المشهدِ بوصفِها عنوانًا لزمنٍ يُؤْثِرُ الأشياءَ المُركّبة والمصحوبة بدليلِ استعمال.

في هذا السياق تغدو الطاولةُ أكثرَ من قطعةِ أثاث، إذ تظهرُ كجهازٍ يُعلنُ منذُ البداية أنَّ السَّردَ سيهتدي إلى طريقه عبرَ الرُّجوعِ إلى الخلفِ وبناءِ الأسبابِ من آثارِها.

تُقرأُ هذه الحركةُ في ضوءِ ما اقترحه كارلو غينزبورغ (Carlo Ginzburg) فيما يُعرَفُ بـ«بارادايم الأثر/ القَرينة»، وهي فكرةٌ بسيطةٌ في جوهرِها مفادُها أنَّ التَّفصيلَ الصَّغيرَ قد يعملُ أثرًا يقودُ إلى بنيةٍ أوسع، على نحوٍ يُشبهُ قراءةَ المُؤرّخِ وثيقةً هامشيَّة تفتحُ له أُفقَ عصرٍ كامل. هكذا تتقدَّمُ «القَرائنُ» في الرِّوايةِ واحدةً بعدَ أُخرى، ثمَّ تتآزرُ شيئًا فشيئًا حتَّى تتشكَّلَ منها السيرة، بدءًا من الأثرِ الجسديِّ الذي يفتتحُ النَّصَّ، مرورًا بالطاولةِ التي تتحرَّكُ عكسَ الزَّمنِ وعلبةِ السُّعوطِ التي تُخفي دليلًا، وصولًا إلى الجُزُرِ والأمكنةِ التي تُعيدُ تشكيلَ الذَّاكرة.

يستهلُّ القسمُ الأوَّلُ بأقوى «قَرينةٍ» ممكنةٍ: «وُلِدتُ بنصفِ رأس...»، وفي هذا الاستهلالِ يتقدَّمُ الفعلُ صاحبَه كما يتقدَّمُ الأثرُ تفسيرَه، ثمَّ يُضيفُ السَّردُ أنَّ يحيى صارَ بعدَ سنواتٍ قادرًا على روايةِ القصَّةِ على أنَّها فعلٌ مقصودٌ بدلَ إدراكها كمصادفةٍ عاديَّة، فتتحوَّلُ الواقعةُ إلى سؤالِ نيَّةٍ ويغدو الجسدُ وثيقةً تحتفظُ بما جرى، وتدفعُ الحكاية إلى ملاحقتِه. هنا تُعينُ سيميائيّاتُ تشارلز ساندرز بيرس (Charles S. Peirce) من زاويةٍ شديدةِ التحديد هي مفهومُ «العلامةِ المُؤشّرةِ» (Index)، أي العلامة التي تتّصلُ بمرجعِها عبر أثرٍ مباشر. بذلك تغدو عاهةُ الرَّأسِ مُؤشَّرًا يجرُ وراءه واقعًا ثقيلًا ويكفي حضورُه ليدفعَ الحكاية إلى البحثِ عن مصدره.

بعدَ ذلك تتقدَّمُ الرّواية إلى لحظةٍ يكتسبُ فيها الدَّليلُ مادّيَّتَه الكاملة، إذ يعثرُ يحيى على «عشرة أسنانٍ» في علبةٍ سُعوطٍ صفراءَ داخلَ خزانةِ أبيه، وعندَ هذه العتبةِ يتبدَّلُ وزنُ الأشياءِ فجأةً فتغدو الأسنانُ لغةً قائمةً بذّاتِها، وتتحوَّلُ العلبة إلى ملف يحتفظُ بما طُمِسَ ويُهيّئُه للانكشاف. يَرِدُ السُّؤالُ في النَّصّ بحدَّةٍ لافتة: «خُذِ الأسنانَ يا يحيى... ماذا ستفعلُ بها؟»، غيرَ أنَّ السَّردَ يُجيبُ بالفعلِ قبلَ الفكرةِ، إذ يقرّرُ يحيى القاء العلبة في حرِ البلطيق، ويصوغ النّصُّ هذا القرارَ بصوتٍ يقتربُ من الحُلْم: ستسبحُ الأسنانُ، وتستعيدُ نضارتها، ويغسلُ الماءُ أوجاعَ الأمّ، ثمَّ يطلقُ جملتَه المفتاحَ: «إنَّها الهندسةُ العكسيَّةُ لكلِّ شيءٍ يمكنُ أن يحدث في حياةٍ إنسان»، بذلك يتحوَّلُ رميُ الدَّليلِ إلى آليَّةِ كتابةٍ تبدأُ من النتيجةِ لتُعيدَ بناءَ السَّبب، وتجعلُ من البحرِ شريكًا في إعادةِ ترتيبِ الألم.

عندَ هذه النُّقطةِ على وجهِ التَّحديدِ تُعينُ «نظريَّةُ الأشياءِ» عندَ بِل براون (Bill Brown) في صيغتِها الأقرب إلى القراءة، إذ تغدو الأشياءُ «أشياءَ» بمعناها الدّلاليّ حين تتعطَّلُ وظيفتُها البسيطةُ وتشرعُ في فرضِ حضورِها على الوعي، فتتحوَّلُ علبةُ السُّعوطِ إلى وعاءٍ لسرٍّ يُرجِّحُ كفَّه المعنى، وتنتقلُ الأسنانُ من بقايا إلى وثيقةٍ، وتغادرُ الطاولةُ موقعَها كقطعةِ أثاثٍ لتغدو بندولًا يعكسُ الزَّمن.

تزدادُ كثافةُ هذه القراءةِ حين يضعُ النَّصُّ مفارقه السُّويدِ في مشهدٍ واحدٍ، إذ يكتبُ يحيى وهو يُمجِّدُ إنغفار كامبراد مؤسَّسَ إيكيا «على فتوحاتِهِ في عالمِ الأثاثِ الرَّخيص»، ثمّ يُثيرُ سؤالًا حادًّا عنَ الكيفيَّةِ التي غَضَّت بها السُّويدُ الطَّرفَ عن كونِها البلادَ نفسَها التي دفعت برغمان إلى الخروجِ منها بتهمةِ التهرُّبِ الضَّريبيِّ وتسيَّت له بانهيارٍ عصبيٍّ

ولجوء ثقافيٍّ امتدَّ سنواتٍ طويلةً. كما يُضيفُ هذا المشهدُ بُعدًا آخرَ إلى منطقِ القَرينةِ لأنَّ المؤسَّسة نفسَها تغدو «شيئًا» ضخمًا يضغط على السِّيرة، فيدخلُ القانونُ في التَّكوينِ النَّفسيِّ وتتحوَّلُ الضَّريبةُ إلى اختبارٍ للحقِّ في البقاءِ داخلَ البيتِ الوطني.

يأتِي الختامُ ليُثْبِّتَ منطقَ القَرائنِ بوضوحٍ صادم، إذ يُعلِنُ السَّردُ أنَّ حكاية «اللَّحمِ الذي تحوَّلَ إلى فتائلَ شفَّافة» كانت بناءً مُختلَقًا من أساسِه، وأنَّ الحاضرينَ انساقوا إلى الكذبِ وتواطؤوا مع يحيى بدافعِ مقتِهم لباباجان، إلى حدٍّ جعلهم يُصادِقونَ على كلِّ كلمةٍ قيلت في «معجزةِ بيفِ سترو غانوف». وعندَ هذه النُّقطةِ يكتملُ خطُّ الأشياءِ اكتمالًا دقيقًا لأنَّ الطَّعامَ يغدو أداةَ اتِّفاقٍ بين الجماعة، ثمَّ يُنتِجُ هذا الاتِّفاقُ واقعًا مؤقَّتًا يفرضُ نفسَه ما دام الجميعُ يُقِرُّونَ به، قبلَ أن يأتيَ الاعترافُ فيُعيدَ ترتيبَ ذلك الواقعِ ويكشفَ آليَّة صُنعِه، فتُغادِرُ الرِّوايةُ الحقيقةَ كصورةٍ جامدةٍ تُطابِقُ ما وقع وتدخلُها كصناعةٍ اجتماعيَّةٍ تُمسِكُ بها القَرائنُ وتكشفُها الشَّجاعةُ حين يحينُ وقتُ الكلام.

السرد شبكةُ فاعلين

يتحرَّكُ أسلوبُ الرَّوايةِ على نحوٍ يجعلُ الأجهزةَ والواجهاتِ أطرافًا فاعلة في الحكاية، ويظهرُ ذلك منذُ لحظة يفتتحُ فيها النَّصُّ أحدَ مشاهدِه بيحيى واقفًا على قضبانِ الترام، قبلَ أن يأتيَه عبرَ مُكبِّرِ الصَّوتِ أمرٌ بالابتعادِ عن السَّكَة، فيردُ هذا الصُّوتُ بوصفِه تدخُلًا يُعيدُ توزيعَ الجسدِ في المكانِ ويضبطُ حركته من خارجه. من خلالِ هذا المشهدِ المبكِّر يعرفُ القارئُ أنَّ المدينة تتكلَّمُ عبرَ أجهزتِها، وأنَّ السُّلطة تمارسُ حضورها بصوتٍ مُجرَّدٍ من الوجهِ ومشحونٍ بالقدرةِ على التوجيه.

عند برونو لاتور (Actor-Network Theory) تُقرأ هذه البنيةُ عبرَ نظريَّةِ (Bruno) «شبكة الفواعل» وهي فكرة تُقاربُ المشهد من غير تعقيد أكاديميّ، إذ يتقدّمُ الإنسانُ والأداةُ والوثيقة والزّرُ والرات le جميعًا بوصفِها «فواعل» تُسهمُ في تحريكِ الأحداثِ وتوجيهها. وفي الرّوايةِ يقوم مُكبِّرُ الصَّوتِ بدورِه، يعملُ زرُّ المصعدِ، تؤدِّي ذاكرة الفلاش وظيفتَها، يشاركُ مُحرِّكُ البحثِ في صوغِ المسار، ثمَّ تتَّخذُ الشَّخصيَّة قرارَها داخلَ شبكةٍ واسعةٍ من هذه الفواعلِ المحيطة بها وتدفعُها إلى الأمام.

يظهرُ المصعدُ في الرِّوايةِ بوصفِه أداةً سرديَّةً مكتملةً، إذ يَردُ في النَّصِّ قولٌ صارمٌ: «الحياةُ زنزانةٌ كبيرةٌ»، ثمَّ يُتابِعُ السَّردُ أنَّ الحياةَ في عمارةِ «أحمر شفاه» قد تنقلبُ إلى سجنٍ «بضغطةِ زرٍّ» تنطلق من مصعدٍ المانيِّ الصُّنع يواصلُ صعودَه ونزولَه على نحوٍ يملأُ المكانَ بإيقاعٍ ضاغطٍ، فتسبقُ الحركةُ صاحبَها ويكفي ضغطُ الزِّرِّ كي يتحرَّكَ العالمُ من حولِه. يترسَّخُ أثرُ المصعدِ حين يعودُ يحيى متأخّرًا فيُؤثِرُ الابتعادَ عنه، مدفوعًا بقلقٍ غامضٍ من سقوطٍ أو تعليقٍ تغذّيه قراءةُ خبرٍ عن احتمالِ سقوطِ المصاعدِ في المدينة، ممّا يكسِبُ الجهازُ موقعَه في صميمِ الحدثِ ويُسهمُ في صوغِ نبرّةِ السَّردِ نفسِها، نبرةٍ يوميَّةٍ مشدودةٍ يغذّيها توقُّعُ لعطلٍ وترقّبُ اختلالٍ المألوف.

ثمَّ تأتي الوسائطُ الرَّقميَّةُ لتُكْمِلَ شبكة الفواعلِ عند تلقّي يحيى اتّصالًا من متحدِّث سويديٍّ يدعوه إلى «مشروعٍ ثُقافِيٍّ مهمٍّ»، ثمَّ يُرسِلُ إليه «مسجًا» يتضمَّنُ الرَّابطَ كي يطّلعَ على التَّفاصيلِ، وما إن يهمَّ بفتحِه حتّى ينهضَ ليُعِدَّ

«قهوةَ الحظ»، فيدخلُ هذا الطَّقسُ اليوميُّ بدوره في صميم الشَّبكةِ بوصفِ القهوةِ فاعلًا مُهدِّئًا، والرَّابطِ فاعلًا كاشفًا والهاتفِ واجهة عبور تُمهِّدُ للانتقالِ من التَّوقُّعِ إلى المعرفة. لاحقًا حين يحتاجُ إلى بلوغ ملفاتٍ حاسمةٍ يُشغِّلُ الحاسوبَ وينتظرُ «دقيقةً خلالها دهرٌ»، ثمَّ ينقلُ الصُورَ والمعلوماتِ بسرعةٍ إلى ذاكرةٍ فلاش لتخزينِ البياناتِ، فينكشفُ للسَّردِ إيقاعٌ خاصٌّ يتباطأ عندَ الإقلاعِ ويتسارعُ عندَ النَّسخ، ثمَّ يتركُ في النَّفسِ أثرًا خانقًا فيتَّصلُ هذا الإيقاعُ بالأسلوبِ نفسِه اتصالًا وثيقًا ويغدو جزءًا من نبرتِه وحركتِه.

في هذا الموضعِ تُعينُنا مُقارَبةُ فريدريش كِتلر (Friedrich Kittler) للوسائط، إذ تَمُرُّ المعرفةُ عبرَ وسيطٍ يُسهمُ في تحديدِ شكلِها وإيقاعِها وإمكاناتِها، ممَّا يجعلُ من الوسيطِ عنصرًا فاعلًا في صوغِ ما يُعرَفُ وكيفيَّةِ ظهورِه. وفي الرِّوايةِ يتشكَّلُ التوتُّرُ من خلالِ «التَّحميلِ» و«الإقلاعِ» و«النَّسخِ» و «ذاكرةِ التَّخزينِ» بقدرِ ما يتشكَّلُ من الحدثِ نفسِه، فتتكوَّنُ الاستجابةُ الانفعاليَّةُ داخلَ مادَّةٍ تقنيَّةٍ قبلَ خروجِها في صورةِ فعلٍ سرديٍّ، عندئذٍ يغدو الأسلوبُ ابنَ الوسيطِ وابنَ الشَّخصيَّةِ معًا.

هنا تُضيءُ أيضًا فكرةُ إسبن آرسيث (Espen Aarseth) حول «الأدب الإرغودي/ الهايبرتكست»، أي ذلك النَّصَّ الذي يُقرأ عبرَ مساراتٍ وبوَّاباتٍ ويستدعي من قارئه عبورًا متتابعًا بين روابطَ صريحةٍ وأخرى كامنةٍ، ومع أنَّ الرِّواية تنتمي إلى هيئةِ الكتابِ الورقيِّ فإنَّ أسلوبَها يشتغلُ بمنطقٍ قريبٍ من هذا البناء، إذ يفتحُ مُكبِّرُ الصَّوتِ مسارًا، والمصعدُ مسارًا، والرَّابطُ مسارًا، والملفُّ مسارًا، وحتَّى الشَّجرةُ في المُنتجع.

تُقدَّمُ بوصفِها «بوَّابةُ» تدفعُ أصحابَ القصصِ إلى التذكُّرِ وتوقظُ أشباحَ حكاياتِهم حين تلفُها العتمة. هكذا يقرأ القارئ الرواية عابرًا عتباتٍ متلاحقة، فتتشكَّلُ الحكايةُ أمامَه من انتقالٍ إلى انتقال.

بهذا المعنى يغدو «سردُ الواجهات» سمةً أسلوبية كبرى، وتُروى الحكايةُ عبرَ شبكةٍ من الأجهزةِ والأمكنةِ والوثائقِ وتَتَحرَّكُ الشَّخصيَّةُ في داخلِها على نحوٍ يُذكِّرُ بحركةِ المُستخدِمِ داخلَ نظامٍ تتعدَّدُ فيه نقاطُ الدُخولِ ومساراتُ العبور. من هنا تستمدُّ الرِّوايةُ توتُّرَها الخاصَّ، لأنَّ هذا التوتُّرَ يتولَّدُ من الانتقالِ بينَ المنافذِ، من القلقِ الملازمِ لاحتمالِ تعطُّلِ أحدِها أو انهياره في أيِّ لحظةٍ، فتختلُّ الحركةُ كلُّها ويتبدَّلُ معنى المسار.

اللغة تُنجز أفعالها؟

تضعُ الرِّوايةُ اللُّغةَ في موضعٍ عمليٍّ، إذ يفعلُ الكلامُ قبلَ أن يصفَ وتُنتِجُ العبارةُ أثرَها قبلَ أن تُشرَح، وهنا تُعينُ نظريَّةُ أفعالِ الكلامِ عندَ ج. ل. أوستن (J. L. Austin)، ثمَّ تطويرُ جون سيرل (John Searle) لها، لأنَّ بعضَ الجُمَلِ ينجزُ فعلًا بمجرَّدِ النُّطقِ به. حين يأمرُ مُكبِّرُ الصَّوتِ يحيى بالابتعادِ عن السِّكَّةِ

يتحوَّلُ الأمرُ إلى فعلٍ ينقلُ الجسدَ من موضعٍ إلى موضعٍ، ثمَّ حين يُعلِنُ المتَّصِلُ السُّويديُّ أنَّ يحيى «مدعوّ» إلى مشروعٍ ثقافيٍّ ويُرسِلُ الرَّابطَ ينفتحُ بابٌ فعليٌّ في حياةِ الشَّخصيَّة، ما يجعل الجمل في هذا العالمِ أزرارًا تُحرِّكُ الواقعَ ولا تكتفي بمرافقتِه.

يظهرُ هذا المعنى على نحوٍ أجلى في مشهدِ الأبِ داخلَ الاستوديو، إذ يوصفُ بامتلاكه خامة صوتيَّةٌ قويَّة، ويعرفُ التأتأةَ خارجَه، ثمَّ «تحدثُ المعجزةُ» ما إن يبدأ قراءةَ النّشرةِ الإخباريَّةِ في داخله، وعند هذا الموضعِ يلمعُ فعلٌ لغويٌّ من نوعٍ خاصّ، لأنَّ قراءةَ الأخبارِ تغدو ممارسة سلطةٍ بقدرِ ما هي نقل المعلومات، فيمنحُ الاستوديو الكلامَ شر عيَّتَه ويهبُ الصَّوتَ ثقةً مهنيَّةً تُبدِّلُ مقامَه وأثرَه. هنا يتَّضحُ بُعدُ «الأداء» في اللُّغةِ، فحين يقرأُ الأبُ يكتسبُ ما يقولُه هيئة الحقيقةِ العامَّةِ، وحين يخرجُ يعودُ الكلامُ إلى ارتجافِه الأوَّلِ، وبذلك تكتبُ الرِّوايةُ علاقة الإنسانِ بالمؤسَّسةِ عبرَ اللِّسانِ نفسِه وتضعُ السُّؤالَ في موضعِه الدَّقيق: من أينَ يأتي صدقُ الجملة؟ من مضمونِها، أم من لعبتِها الاجتماعيَّةِ أيضًا؟

هنا يدخل لودفيغ فيتغنشتاين (Ludwig Wittgenstein) من باب فكرة «ألعابِ اللُّغةِ»، إذ يكتسبُ الكلامُ معنًى من طريقةِ استعمالِه داخلَ سياق اجتماعيٍّ محدَّدٍ، وعلى هذا الأساسِ تتبدَّلُ قواعدُ اللَّعبِ في الرِّوايةِ من موضعٍ إلى آخر فنكونُ إزاءَ لعبةِ «المدينةِ» التي تتكلَّمُ عبرَ مُكبِّرِ صوتٍ، ولعبةِ «المؤسَّسةِ» التي تتَكلَّمُ عبرَ وثيقةٍ، ولعبةِ «المُنتجع» التي تتكلَّمُ عبرَ شجرةٍ وتلميحاتٍ واتّهاماتٍ، ثمَّ لعبةِ «المائدةِ» التي تتكلَّمُ عبرَ طعمٍ واتِّفاق. يتجلَّى هذا كلُّه بوضوحٍ في خاتمةِ «الفتائلِ» حين يُصرِّحُ يحيى بأنَّ الفتائلَ الشفَّافة لم تكن موجودةً أصلًا، وأنَّ الحاضرينَ كذبوا وتواطؤوا ثمَّ «صادقوا» على كلِّ كلمةٍ قالها عن المعجزة، فيغدو اتِّفاقُ الجميعِ على الرُّؤيةِ كافيًا لقيامِ واقعٍ مؤقَّتٍ داخلَ لعبةِ المائدةِ، وبذلك يكتبُ النَّصُّ الصّدقَ بوصفِه قاعدةً تُنتجُها اللُّعبةُ.

يمتدُّ هذا إلى فعلِ الاعترافِ نفسِه عندما نجدُ في النِّهايةِ أنَّه جاءَ «للكشفِ عن أسرارِه دفعةً واحدة»، فيغدو الاعترافُ فعلَ كلامٍ كاملًا يُبدِّلُ موقعَ المتكلِّم ويُعيدُ ترتيبَ موقعِ الحكايةِ، ثمَّ يُشكِّلُ الحقيقةَ التي عاشَها القارئُ من جديد. من هنا يجيءُ السُّؤالُ الموجَّهُ إلى الغائبِ: «هل ترى هنا معجزةً ما من مكانِكَ؟» بوصفِه الحركةَ اللُّغويَّةَ الأخيرةَ التي تُبقي بابَ التَّأويلِ مفتوحًا، فيغدو الغائبُ شاهدًا في لعبةِ اللُّغةِ الأخيرةِ ويغدو الكاتبُ مسؤولًا عن قصَّتِه.

في جانبٍ أكثرَ حميميَّةً تفتحُ الرّوايةُ سؤالَ العِنايةِ بوصفِها أخلاقًا وتقنيةً معًا، ويبدأُ مشهدُ الأبِ من فعلِ تنظيفِ الجسدِ بمنشفة مع ذكرِ موظَّفةِ الرِّعايةِ الاجتماعيَّةِ التي يسعى يحيى إلى إقناعِ أبيه بتوَلّي غسلِه لاحقًا، فتتكثَّفُ هنا مفارقةُ العِنايةِ في صورتِها الأوضح بحفظها الكرامة وإدخالها الجسدَ في نظامٍ من الرّعايةِ والتنظيم. تُعينُ أخلاقيّاتُ العِنايةِ، كما طوَّرتْها كارول غيليغان (Carol Gil-ligan) ثمّ جوان ترونتو (Joan على قراءة هذا الجانب لأنَّ العناية تظهرُ هنا عاطفةً وعلاقةً ومسؤوليَّةً، كما تظهرُ ترتيبًا للسلطة بين الراعي ومتلقي الرعاية.

بينَ الراعي ومتلقِّي الرِّعاية

يظهرُ ذلك في مشهدِ الطائرِ «سيغام» داخلَ القفص عندما يقفزُ ويخبطُ جناحَيه بالقضبانِ

فزعًا، فيمدُ يحيى إليه ورقة خس من بين الأسلاك، فيأكلُ الطائرُ وتهدأ «نطّاتُه»، وفي هذا التصرُّفِ ينجزُ فعلَ عِنايةٍ واضحًا يمنحُ الكائنَ الصغيرَ قسطًا من الطُّمأنينة، غيرَ أنَّ هذه الطُّمانينة تعودُ فتستقرُّ داخلَ الحدودِ نفسها التي يُمثِّلُها القفصُ وتتحرَّكُ في إطارِها. من هنا يلمعُ سؤالُ الرِّوايةِ بصوتٍ خافتٍ عن طبيعةِ الرَّافةِ حين تقترنُ بحدودٍ ثابتةٍ، وعن الكيفيَّةِ التي تجمعُ بها العِنايةُ بينَ التهدئةِ وتثبيتِ الوضع في آنٍ واحدٍ، فيغدو القفصُ ساحةً أخلاقيَّةً مكتملةَ الدَّلالةِ ويصيرُ الطَّعامُ لغةً ثالثةً تُهدِّئُ الخوفَ وتُعيدُ ترتيبَه في صورةٍ يمكنُ احتمالُها.

في ما تقولُه الأشياءُ حينَ تُصغي إليها الرّواية:

تتقدَّمُ الحياةُ في هذه الرِّوايةِ كمادَّةٍ هشَّةٍ تلتصقُ بالأجسادِ والأشياءِ والأصواتِ وتتركُ أثرَها في طاولةٍ وعلبة ومصعدٍ ورابطٍ وطعمٍ عابرٍ، حتّى يغدو الإنسانُ فيها ابنَ ما يلمسُه ويخافُه ويُخفيه أكثرَ من كونِه صاحبَ حكايةٍ جاهزةٍ عن نفسِه، وفي هذا المناخ يظهرُ برغمانُ ظلا مُجاورا للنصِّ أكثرَ من كونه اسمًا مُعلّقًا فوقَه، تُقاسُ به مسافةُ الفنِّ من المؤسَّسةِ، مسافةُ الغيابِ من اليوميِّ ومسافةُ الحقيقةِ من الكلامِ الذي يتأخَّرُ طويلًا قبلَ خروجه بصورتِه المُرَّة. لهذا تُصيبُ الرِّوايةُ موضعَها الأعمقَ حين تجعلُ من الطَّبخِ والاعترافِ والعِنايةِ أفعالًا تُعيدُ ترتيبَ العالَم، فتغدو «المعجزةُ» اسمًا مُضلِّلًا لخبرةٍ أشدَّ إنسانيَّة، خبرةِ الكائنِ الذي ينجو قليلًا بما صنعُه من أوهامٍ ضروريَّةٍ ثمَّ يزدادُ صفاءً حين يملكُ شجاعةَ النَّظرِ إليها من جديد.

من هنا تتركُ «طبَّاخ إنغمار برغمان» خلفَها سؤالًا أوسعَ من مصيرِ شخصيَّاتِها، لأنَّها تُلمِّحُ بهدوءٍ وذكاءٍ إلى أنَّ الرِّواية المعاصرةَ تُفتِّشُ عن معناها في الطُّرُقِ التي تُعيدُ بها المؤسَّساتُ والوسائطُ الرَّقميَّةُ وأشكالُ العنايةِ والعيشُ المنفيُّ تشكيلَ الإحساسِ بالنَّفسِ والزَّمنِ والذَّاكرةِ، كأنَّ أكثرَ المناطقِ تواضعًا في الحياةِ أقدرُها على كشفِ صورتِها العميقة. لعلَّ هذا ما يمنحُ النَّصَّ بقاءَه بعدَ الفراغ منه، فهو يفتحُ بهدوءٍ بابًا على كتابةٍ ترى في الأثرِ الصَّغيرِ أرشيفًا، وفي الواجهةِ شكلا جديدًا للقَدَرِ، وفي العِنايةِ سؤالًا أخلاقيًا وسياسيًا معًا، وهي جهةٌ يمكنُ أن تمتدَّ منها القراءةُ إلى أفقٍ أرحبَ في السَّردِ العربيِّ حين يقتربُ أكثرَ من مادَّةِ العالمِ ويُصغي إلى ما تقولُه الأشياءُ قبلَ أن يكتملَ قولُ البشر.

ستيغ لارسون ورواية الفتاة ذات وشم التنين نموذجاً

أ.م. أنور صباح

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، تأثرت السويد بالحركات الأدبية الأوروبية، خاصة الواقعية والطبيعية، ما أدى إلى بروز كتاب ركزوا على تصوير الحياة كما هي .

يُعدّ أوغست ستريندبرغ من أبرز الرواد الذين ساهموا في هذا التحول، حيث قدم أعمالًا جريئة تناولت الصراعات النفسية والاجتماعية، مبتعدا عن الزخرفة اللغوية لصالح الصدق التعبيري. وقد شكّلت أعماله نقطة انطلاق نحو أدب أكثر جرأة وواقعية.

مع بداية القرن العشرين، تطور فن الرواية ليشمل عناصر جديدة تمزج بين الخيال والتاريخ والأسطورة، وهو ما يظهر بوضوح في أعمال سلمى لاغرلوف فقد أسهمت كتاباتها في ترسيخ هوية سردية سويدية مميزة، تجمع بين التراث الشعبي والبعد الإنساني، مما ساعد على انتشار الأدب السويدي خارج حدوده.

لاحقًا، ومع تطور الدولة الحديثة وظهور دولة الرفاه، أصبحت الرواية وسيلة لتحليل التحولات الاجتماعية والسياسية، فانتقلت من مجرد سرد قصصي إلى أداة نقدية تعكس قضايا المجتمع. وهذا، يمكن القول إن نشوء الرواية في السويد ارتبط ارتباطًا وثيقًا بتطور المجتمع نفسه، حيث نمت الرواية جنبًا إلى جنب مع الوعي الاجتماعي والثقافي.

تتناول الرواية في السويد مجموعة من الثيمات العميقة التي تعكس طبيعة المجتمع الإسكندنافي وتحولاته، مما منحها طابعًا مميزا يجمع بين البعد الإنساني والتحليل الاجتماعي ومن ابرز هذه الثيمات العدالة الاجتماعية ودولة الرفاه، حيث تسعى الروايات السويدية إلى تفكيك الصورة المثالية للمجتمع المتوازن، من خلال تسليط الضوء على الفجوات الخفية مثل التفاوت الطبقي أو التهميش.

يظهر هذا بوضوح في أعمال ستيغ لارسون، التي لا تكتفي بسرد قصص الجريمة، بل تكشف أيضًا عن قضايا الفساد والعنف ضد المرأة داخل المجتمع.

كما تحضر بقوة ثيمة الصراع النفسي والهوية الفردية، إذ تميل الشخصيات في الرواية السويدية إلى التأمل العميق في ذواتها، وغالبًا ما تعيش حالات من العزلة أو القلق الوجودي. هذا التوجه يعكس تأثير البيئة الباردة والطبيعة الهادئة، فضلا عن الثقافة التي تقدّر الخصوصية والتأمل الداخلي. ولا يمكن إغفال حضور الطبيعة كعنصر محوري في السرد، حيث تتحول المناظر الطبيعية من الغابات الكثيفة إلى الشتاء الطويل إلى خلفية رمزية تعكس الحالة النفسية للشخصيات. الطبيعة هنا ليست مجرد إطار، بل شريك في تشكيل الحدث الروائي.

كذلك، تبرز ثيمة الجريمة والغموض ضمن ما يُعرف بـ"النوار الاسكندنافي"، حيث تُستخدم الجريمة كمدخل لفهم المجتمع،

وليس فقط كحبكة مشوقة. في هذا السياق، تُطرح أسئلة أخلاقية معقدة حول الخير والشر، والقانون والعدالة. وأخيرًا، تعالج الرواية السويدية قضايا الهجرة والتعدد الثقافي في العصر الحديث، نتيجة التحولات الديموغرافية التي شهدتها البلاد. تعكس هذه الأعمال التوترات بين الهوية التقليدية والانفتاح على الآخر، مقدّمة رؤية إنسانية متعددة الأبعاد. بهذه الثيمات المتنوعة، تظل الرواية السويدية مساحة خصبة لاستكشاف الإنسان في علاقته بالمجتمع والطبيعة، مما يمنحها حضورًا قويًا على الساحة الأدبية العالمية.

تعدّ سلمى لاغرلوف من أبرز الأسماء في تاريخ الأدب السويدي، وهي أول امرأة تفوز بجائزة نوبل في الأدب. من أشهر أعمالها رواية "المغامرات نيلز العجيبة" التي تمزج بين الخيال والأسطورة والتربية الأخلاقية، وقد أصبحت عملًا عالميًا تُرجم إلى العديد من اللغات. أما أوغست ستريندبرغ، فرغم شهرته الكبيرة ككاتب مسرحي، فقد ترك بصمة مهمة في الرواية من خلال أعمال مثلا "الغرفة الحمراء" التي تُعد من أوائل الروايات الواقعية في السويد، حيث انتقد فيها المجتمع والمؤسسات بأسلوب ساخر وجريء.

وفي العصر الحديث، يبرز اسم ستيغ لارسون، الذي حقق شهرة عالمية من خلال ثلاثيته الشهيرة "الفتاة ذات وشم التنين".

تتميز هذه الأعمال بمزجها بين التشويق البوليسي والقضايا الاجتماعية، خاصة ما يتعلق بالفساد والعنف. ولا يمكن إغفال هينينغ مانكل، أحد رواد أدب الجريمة الإسكندنافي، والذي اشتهر بسلسلة روايات المحقق "والاندر"، وأبرزها "الكلب الباسكي" حيث يعالج قضايا معاصرة مثل الهجرة والعنصرية ضمن إطار بوليسي مشوق.

وأخيرًا، يأتي فريدريك باكمان كصوت معاصر مختلف، إذ يميل إلى الروايات الإنسانية ذات الطابع الدافئ، مثل "رجل يدعى أوفه"، التي حققت نجاحًا عالميًا بفضل بساطتها وعمقها العاطفي. تعكس هذه الاسماء تنوع الرواية السويدية بين الكلاسيكية والحديثة، وبين الواقعية الاجتماعية وأدب الجريمة، مما يفسّر حضورها القوي في الأدب العالمي.

وُلد ستيغ لارسون عام 1945 في السويد، ونشأ في بيئة ريفية أثرت في نظرته الاجتماعية والسياسية. عمل في بداياته صحفيًا وناشطًا ضد التيارات المتطرفة، وكان من المؤسسين لمجلة "إكسبو" التي ركزت على كشف الحركات اليمينية المتشددة. انعكست هذه الخلفية في كتاباته التي اتسمت بالجرأة والنقد الحاد للمجتمع، خاصة في ما يتعلق بالفساد والعنف وعدم المساواة. وعلى الرغم من موهبته الكبيرة، لم يشهد لارسون النجاح العالمي لأعماله، إذ توفي بشكل مفاجئ عام 2004 قبل نشر أشهر رواياته.

تتمثل أبرز اعماله في ثلاثية "ميلينيوم" التى حققت شهرة عالمية واسعة. تبدأ السلسلة برواية "الفتاة ذات وشم التنين" تليها "الفتاة التي لعبت بالنار" ثم "الفتاة التي ركلت عش الدبابير".

تمتاز هذه الروايات بمزيج من التشويق البوليسي والتحليل الاجتماعي العميق، حيث تتناول قضايا حساسة مثل العنف ضد المرأة والفساد السياسي، وقد تُرجمت إلى العديد من اللغات وتحولت إلى أفلام ناجحة عالميًا.

رواية الفتاة ذات وشم التنين. للكاتب ستيغ لارسون تُعد واحدة من أبرز أعمال ادب الجريمة في السويد وتمثل بداية ثلاثية ”ميلينيوم“. وتحولت الى فلم ناجح عالميا. تدور أحداثها حول الصحفي ميكائيل بلومكفيست، الذي يواجه أزمة مهنية بعد خسارته قضية تشهير، فيُكلّف من قبل رجل أعمال ثري بالتحقيق في اختفاء فتاة من عائلته منذ عقود.

خلال التحقيق، يتعاون بلومكفيست مع ليزبيث سالاندر، وهي شابة غامضة وعبقرية في مجال القرصنة الإلكترونية، تتميز بشخصية معقدة وماضٍ مليء بالمعاناة. مع تقدّم الأحداث، يكشف الثنائي سلسلة من الأسرار المظلمة المرتبطة بالعائلة، تتداخل فيها قضايا العنف والفساد والانحراف الأخلاقي. لا تقتصر الرواية على حبكة بوليسية مشوقة، بل تغوص في قضايا اجتماعية حساسة، خاصة العنف ضد النساء واستغلال السلطة.

يمتاز العمل بأسلوب سردي مشدود يجمع بين الإثارة والتحليل النفسي، ما جعله يحقق نجاحًا عالميًا واسعًا، ويحوّل شخصياته خصوصًا ليزبيث سالاندر إلى أيقونات أدبية معاصرة.

التحليل الادبي للرواية: يكشف لارسون عن عمل يتجاوز حدود الرواية البوليسية التقليدية، ليقدّم نصًا مركبًا يجمع بين التشويق والنقد الاجتماعي العميق. على مستوى البنية السردية، تعتمد الرواية على حبكة تحقيق تدريجية تتصاعد فيها الأحداث عبر كشف طبقات من الأسرار، وهو أسلوب يخلق توترًا مستمرًا لدى القارئ.

غير ان لارسون لا يكتفي بتقنيات الإثارة، بل يدمجها مع سرد تفصيلي يعكس عالم الصحافة والاقتصاد، مما يمنح النص واقعية قوية ويجعل الأحداث تبدو أقرب إلى التحقيقات الحقيقية.

أما من حيث الشخصيات، فتبرز ليزبيث سالاندر كشخصية استثنائية تكسر النماذج النمطية في الأدب. فهي ليست بطلة تقليدية، بل شخصية معقّدة تحمل مزيجًا من القوة والهشاشة، وتعكس صراعًا داخليًا عميقًا ناتجًا عن ماض مؤلم. في المقابل، يمثل ميكانيل بلومكفيست نموذج الصحفي المثالي الذي يسعى إلى الحقيقة، ما يخلق توازنًا بين العقلانية والتمرد داخل النص.

تتمحور إحدى أهم ثيمات الرواية حول العنف ضد المرأة، حيث يستخدم لارسون الجريمة كوسيلة لكشف بنية اجتماعية مختلة تخفي وراء مظهرها الحضاري مظاهر قمع واستغلال. بهذا المعنى، تتحول الرواية إلى نقد صريح للمجتمع، لا سيما فيما يتعلق بالسلطة الذكورية والفساد المؤسسي. من الناحية الأسلوبية، يتميز النص بلغة مباشرة وواضحة، بعيدة عن الزخرفة، لكنها مشحونة بالتفاصيل الدقيقة التي تعزّز الإحساس بالواقعية.

كما يوظف الكاتب التوازي بين الماضي والحاضر لربط الجريمة القديمة بقضايا معاصرة، مما يضفي عمقًا زمنيًا على الأحداث.

في المجمل، يمكن اعتبار الرواية أنموذجًا بارزًا لأدب ”النوار الاسكندنافي“، حيث لا تكون الجريمة غاية في حد ذاتها، بل مدخلًا لاستكشاف قضايا إنسانية واجتماعية معقدة. وهذا ما يفسّر نجاحها العالمي، إذ تجمع بين متعة القراءة وعمق الطرح النقدي.

النقد الادبي للراوية: من أبرز نقاط القوة في الرواية قدرتها على خلق توتر سردي

مستمر، إذ ينجح لارسون في شدّ القارئ عبر حبكة بوليسية متقنة تتكشف تدريجيًا. كما أن الطرح الجريء لقضايا مثل العنف ضد المرأة والفساد المؤسسي يمنح النص بعدًا إنسانيًا مهمًا، ويجعله يتجاوز حدود الترفيه إلى النقد الاجتماعي.

مع ذلك، لا تخلو الرواية من نقاط ضعف واضحة. فالإيقاع السردي يعاني من البطء في بعض المقاطع، خاصة في الأجزاء التي يغرق فيها الكاتب في تفاصيل تقنية أو اقتصادية قد تبدو مفرطة وغير ضرورية، مما قد يشتت القارئ ويضعف من تماسك الحبكة. كذلك، يُلاحظ أن بعض الأحداث تُحلّ بطريقة سريعة نسبيًا مقارنة بالبناء الطويل الذي يسبقها، ما يخلق نوعًا من عدم التوازن في السرد.

على مستوى الشخصيات، تُعد ليزبيث سالاندر من أكثر الشخصيات تميزًا، لكنها في الوقت نفسه قد تبدو أحيانًا أقرب إلى شخصية، فوق واقعية" بقدراتها الاستثنائية، خصوصًا في مجال الاختراق الرقمي، مما يقلل من مصداقيتها لدى بعض القرّاء. في المقابل، يأتي ميكائيل بلومكفيست كشخصية أقل تعقيدًا، وأقرب إلى النمط التقليدي للصحفي الباحث عن الحقيقة، وهو ما قد يجعل حضوره أقل تأثيرًا مقارنة بسالاندر.

أما من حيث الأسلوب، فيعتمد لارسون

لغة مباشرة تخدم السرد، لكنها تفتقر أحيانًا إلى العمق البلاغي أو الجمالي، حيث يركّز على نقل المعلومات أكثر من خلق صور أدبية مؤثرة. وهذا الخيار، رغم فعاليته في أدب الجريمة، قد يُنظر إليه كعنصر يحدّ من القيمة الأدبية للنص. في المحصلة، تقدّم الرواية تجربة قراءة قوية ومثيرة، لكنها ليست خالية من العيوب. فهي عمل ناجح جماهيريًا بامتياز، إلا أن قيمتها الأدبية تظل محل نقاش، خاصة عند مقارنتها بالأعمال التي توازن بشكل أدق بين التشويق والبناء الفني العميق.

ويبقى ادب الرواية السويدي تجربة بارزة نجح في الانتقال من المحلية الى العالمية. وبقي مميزا بثيمتي الطبيعة والادب البوليسي.

قراءة في كتاب حسن الجنابي
" الدبلوماسية العراقية من الريادة الى الهامش 1921 – 2022"
حين يروي التاريخ ما أغفلته السياسة

د. معتز عناد غزوان

شهد تاريخ العراق السياسي، منذ تأسيس الحكم الملكي الوطني في عهد الملك فيصل الأول عام 1921، تحولات سياسية عديدة انعكست بدورها على الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية. وتلتها حقب سياسية مختلفة تصارعت فيها الأيديولوجيات والانتماءات حتى اليوم وان عراق اليوم هو ناتج تلك المخاضات والاضطرابات السياسية والاجتماعية. وقد لعبت الدبلوماسية العراقية منذ التأسيس أدواراً رائدة بالغة الأهمية ونجحت في كثير من الحالات في تثبيت بصمة العراق الحديث في كواليس السياسة الدولية، ولكنها فشلت أيضاً في ظروف أخرى وتراجعت الى الهامش في منعطفات ألغت فيها الدكتاتورية دور الدبلوماسية كمكون في السياسة الوطنية والخارجية، وألحقت فيه سفارات العراق في الخارج بأجهزة التجسس والمخابرات.

من خلال هذا السياق، يكشف لنا الدكتور حسن الجنابي في كتابه الموسوم "الدبلوماسية العراقية المعاصرة من الريادة إلى الهامش 1921 - 2022 " مساراً تحليلياً ثاقباً يكشف فيه رؤيته لمصائر الدبلوماسية العراقية في حالات صعودها ونكوصها عبر القرن المنصرم،

ويؤشر بحيادية مهنية وجدارة أهم محطاتها وشخوصها دون إقحام أو شخصنة أو تعسف. وقد أشار المستشار د. خليل فضل عثمان في تقديمه للكتاب الى أن الجنابي كان أمينًا وموضوعيًا في تسجيل وتحليل أهم الأحداث هذه الفترة من تاريخ العراق، إذ قال عنه": إنه لا يغادر الموضوعية، فيترفع عن تصفية الحسابات والتجريح والافتاءات والتجني، ويبتدئ حرصه على الإنصاف في مواضع عديدة من الكتاب، نجده يقدم فيها إيضاحات حول بعض القضايا والملفات والأحداث لتستوي على نصاب الالتزام بالأمانة " وكان رأي عثمان منصفًا ودقيقًا في وصف الباحث وحرصه على بيان الأحداث وتوثيقها

ونقدها بموضوعية.
يؤكد ذلك الجنابي نفسه في توطئة الكتاب قائلاً": إنني أجد من المناسب ذكر أن أحد الأصدقاء المعنيين بهذا الكتاب أشاد بالمنحى الموضوعي لما ورد فيه من أحداث وتحليلات، بمعنى تقديم المادة بحيادية عالية نسبيًا، تمثلت في الابتعاد عن الأحقاد والانتماءات والحسابات الشخصية، أو إعلاء شأن من لا يستحق، أو استهداف آخرين وما شابه ذلك، وهذه شهادة مهمة."
يعرّج المؤلف على مرحلة ما بعد 2003 وما تلاها من تحولات سياسية متناقضة ومختلفة، كان الكاتب نفسه شاهدًا على كثير من أحداثها بعد أن أصبح سفيرًا في وزارة الخارجية العراقية ثم في إيطاليا واليابان وتركيا، فضلًا عن توليه منصب وزير الموارد المائية في حكومة حيدر العبادي ضمن وزراء الإصلاح بين عامي 2016–2018. وكان قبل ذلك وأثنائه قد انشغل كثيراً في أعمال إنعاش الأهوار العراقية حتى ادراجها على لائحة التراث العالمي عام 2016.
انتقد الكاتب اعتماد المحاصصة والطائفة والعرق أساسًا في توزيع الوزارات السيادية، ولاسيما وزارة الخارجية بوصفها الواجهة الدولية للعراق. وهنا يشير قائلاً: "إن مصالح البلاد العليا في الاستقلال والسيادة والأمن والهوية الوطنية الجامعة ووحدة التراب الوطني وسلامة الحدود وجوازات السفر والمعاهدات والاتفاقيات الدولية وغيرها، أمست أوراقًا ثانوية لتثبيت قوة الموقف التحاصصي على المغانم المادية والسياسية الداخلية، أي تلك المتمثلة بمديات السيطرة على مقدرات السلطة المنتزعة بالاتفاقات بين اللاعبين الجدد، كل حسب نفوذه الداخلي".
تعاقب على وزارة الخارجية بعد 2003 وزراء من انتماءات طائفية وأثنية مختلفة على وفق نظام محاصصة وصفه الكاتب بأنه "نظام لتقاسم الحصص وليس لقيادة العراق نحو التنمية والرخاء والعلاقات المتميزة والاستقرار السياسي، حتى مع دول الجوار".
أما الفصل الثاني، فقد تناول فيه الكاتب تاريخ تأسيس الدبلوماسية في العراق، منذ عام 1921 عند تأسيس المملكة العراقية بقيادة الملك فيصل الأول، حيث وُقّعت أول معاهدة مع بريطانيا عام 1922، على الرغم من كونها مجحفة بحق العراق، إذ أجازت الانتداب البريطاني بما فيه تسليم ملف السياسة الخارجية لبريطانيا، لكنه يرى أن هذه المعاهدة أسهمت في بقاء مدن أربيل والسليمانية وكركوك والموصل ودهوك جزءًا من العراق، بسبب الموقف البريطاني الذي أحبط محاولات مصطفى كمال أتاتورك لضمها إلى الدولة التركية الناشئة آنذاك.
وتأسست أول نواة لوزارة الخارجية عمليًا عام 1924 وأُسندت إلى رئيس الوزراء، حتى عام 1933 حيث أصبحت وزارة مستقلة بعد دخول العراق عصبة الأمم. وفي عام 1941 استُبدل نظام الوزارة بقانون جديد رقم (9)، واستمر حتى عام 1959 بعد إعلان الجمهورية حيث تم تغيير قانون الوزارة، وتتابعت التغييرات حتى استقرت في قانون رقم 45 لسنة 2008 وهو النافذ حالياً.
وتطرق الكاتب إلى أبرز من تقلد منصب

وزير الخارجية في تاريخ العراق الحديث، مثل عبد المحسن السعدون وياسين الهاشمي وتوفيق السويدي وجعفر العسكري وناجي السويدي وطه الهاشمي وصالح جبر وعلي جودة الأيوبي ومحمد فاضل الجمالي وأرشد العمري ومزاحم الباججي. وبلغ عدد السفراء المعينين بين 1925–1958 نحو 67 سفيرًا، اذ كانت معايير التعيين صارمة.

سلط الكاتب الضوء على مرحلة ما بعد إعلان الجمهورية العراقية في 14 تموز 1958، حيث اتجهت الدبلوماسية الجديدة نحو الابتعاد عن محور الغرب والاقتراب من المعسكر الاشتراكي في ميدان السياسة والتسليح والاقتصاد. وتعاقب على منصب وزير الخارجية في العهد الجمهوري عدد من الشخصيات المهمة، مثل عبد الجبار الجومرد وهاشم جواد الذي بقي في منصبه حتى انقلاب 8 شباط 1963.

وبدأت، إثر انقلاب شباط، حقبة حكم حزب البعث في إدارة ملف الدبلوماسية العراقية حتى نيسان 2003، حيث يرى الكاتب أن الخارجية العراقية في عهد البعث كانت ذات توجهات واضحة وبرامج محددة أيديولوجية الطابع، وبعضها مرتبط بأداء الحكومة الداخلي وصراعاتها المبنية على المخابرات والتجسس وخلق الأزمات.

ويشير الكتاب الى الدبلوماسية العراقية قد فشلت في معالجة أحداث وتداعيات الحرب مع إيران (1980–1988)، ثم أزمة احتلال الكويت عام 1990، وما تبعها من حرب مدمرة عام 1991، وما انتجته من انتفاضة شعبية، وحصار اقتصادي خانق استمر ثلاثة عشر عامًا، وصولًا إلى سقوط

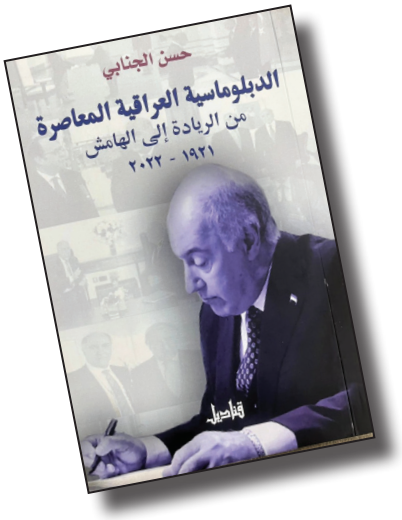

نظام صدام حسين في 9 نيسان 2003.

كما خصص الكاتب محورًا مهمًا للعلاقات السياسية بين العراق وإيران منذ اتفاقية الجزائر عام 1975 حتى عام 1979، ثم الحرب العراقية ـ الإيرانية، وتراجع صدام حسين للاعتراف بالاتفاقية لاحقًا.

أما الفصل الثالث، فجاء بعنوان "دبلوماسية ما بعد 2003"، حيث شهدت هذه الفترة عدم استقرار سياسي وفوضى عارمة، لاسيما بعد تأسيس مجلس الحكم الانتقالي بوجود الحاكم المدني الأمريكي بول بريمر، الذي قسّم المجلس على وفق مبدأ المحاصصة الطائفية والقومية. حدث ذلك وسط اضطراب الشارع العراقي واندلاع حرب التفجيرات والاختطافات والقتل على الهوية، وظهور جماعات متشددة مثل القاعدة وغيرها، ما فاقم الاقتتال الطائفي، خصوصًا بعد عام 2005.

كانت الدبلوماسية العراقية تواجه مأزقاً كبيراً، إذ رأت دول عربية وإقليمية أن العراق دولة محتلة بلا سيادة، ولم يسمح

وضع الاحتلال بتفعيل الحراك الدبلوماسي لتوضيح صورة العراق الجديد. يقول د. الجنابي حول هذه الفترة التي شهدت اغتيالات واختطافات: "إن أكثر الاغتيالات درامية كان اغتيال د.عقيلة الهاشمي في أيلول 2003، وكانت عضوًا في مجلس الحكم ودبلوماسية معروفة. كما اغتيل السفير بسام كبه في حزيران 2004، والسفير قصي مهدي في تشرين الأول 2004، وآخرون. وكذلك اغتيل الوزير المفوض مازن عبد الوهاب في بغداد بعد أن كان يشغل منصب القائم بالأعمال في سفارة العراق في روما. وقد بلغ العنف ذروته بالتفجير الدامي الذي استهدف مبنى وزارة الخارجية في 19 آب 2009 وراح ضحيته العشرات من موظفي الوزارة، من بينهم 43 شهيدًا".

وبيّن الباحث وجود ضعف كبير في استخدام وسائل التواصل والتقنيات الحديثة داخل وزارة الخارجية وفي البعثات، ما أدى إلى تأخر وصول المعلومات وتسربها أحيانًا إلى العلن وإلى جهات أخرى. وحدد مواصفات مهمة للدبلوماسي المعاصر، منها التأهيل المهني واللغوي، والقدرة على معالجة الكم الهائل من المعلومات التي تتيحها التكنولوجيا الحديثة، فضلا عن المهارات التقليدية مثل حل القدرة على التعاطي مع الخلافات والتواصل الفعال.

ويذكر الجنابي خلاصة تجربته كسفير في منظمة الأغذية والزراعة الدولية في وروما وفي طوكيو وأنقرة قائلاً:"لم أستلم تعليمات محددة من مركز الوزارة بشأن أي قضية ساخنة في العالم، ولم يُطلب مني بلورة موقف معين إزاء المنظمات الدولية أو الدول التي كنت أمثل العراق لديها. واعتقد أن السبب هو ضياع هوية الوزارة وانعدام المرتكزات الواضحة للدبلوماسية العراقية، وعدم اكتراث مسؤولي الوزارة، ليس لجهلهم بل بسبب وجودهم العابر في وظائفهم في المركز في بغداد. فالمنصب الأكثر إغراءً هو في البعثات وليس في المركز، حيث بعض الفوضى والضغوطات السياسية والاجتماعية والوساطات، على عكس مغريات العمل في البعثات في الخارج وامتيازاته. ولا شك في أن هذه الطريقة في التعاطي مع المهام يتحملها الأفراد بصورة جزئية، أما الجزء الأكبر فيعود إلى طبيعة نظام حكم الحصص والكتل وأصحاب النفوذ".

أما الفصل الرابع فجاء بعنوان "وزراء خارجية حقبة ما بعد 2003"، وتناول فيه الكاتب السمات الشخصية والمهنية لكل وزير، بدءًا من هوشيار زيباري (2003–2014) الذي وصفه بأنه براغماتي وحاذق ومنسجم مع ثقافته العربية، وله قبول واسع. ثم إبراهيم الجعفري (2014–2018) الذي كانت علاقاته العربية محدودة لكنه حقق نجاحات نسبية. ثم محمد علي الحكيم (2018–2019) الذي وصفه بأنه لبق وهادئ لكنه يفتقر إلى الكاريزما والخبرة الكافية. ثم فؤاد حسين (2019–اليوم) الذي يتمتع بخبرة سياسية طويلة ولغة إنكليزية سليمة، لكنه لم يُظهر حماسًا للقضايا العربية على الرغم من امتلاكه مؤهلات مهمة.

أما الفصل الخامس والأخير فجاء بعنوان "التحديات الجديدة للدبلوماسية في العراق"، وتناول قضيتين أساسيتين: المناخ والمياه المشتركة. ففي مجال المناخ، يشير الباحث

إلى أن الحكومات المتعاقبة عجزت عن حماية البيئة والوفاء بالتزاماتها، ومنحت إجازات لمشاريع تتعارض مع سياسات التكيف وأبسط المحددات البيئية، ما يجعل الحديث عن مواجهة التغير المناخي "هراء في أحسن الأحوال".

وفي ملف المياه، وهو المجال الذي يُعد الجنابي أحد أبرز المتخصصين فيه، يؤكد أهمية ترسيخ مفهوم "دبلوماسية المياه" للحفاظ على المصالح المائية العليا للعراق، خصوصًا أن العراق دولة مصب تعتمد على مياه تأتي من تركيا وسوريا وإيران.

يختتم الباحث بالتوصية بضرورة اهتمام وزارة الخارجية بملف الأهوار ومراجعة التزامات العراق تجاه اليونسكو، والتعامل بجدية مع هذا الملف الاستراتيجي.

وقد ضم الكتاب صورًا توثيقية لتجربة الكاتب، فضلا عن 12 ملحقًا مهمًا في ميدان الدبلوماسية والسياسة الخارجية. ووصف السفير موفق مهدي عبود الكتاب قائلاً: "لقد تطوع الجنابي وأجاد في البحث عن بواطن الأحداث والوصول منها إلى أحكام وتفسيرات ذات مغزى تجعل منها درسًا لمن يسعى إلى فهم الماضي القريب وتعلم دروسه".

***صدر الكتاب عن دار قناديل للنشر ببغداد عام 2025، وبلغ عدد صفحاته 478 صفحة من القطع المتوسط.**

تحولات النقد التشكيلي
من الحداثة إلى ما بعد الحداثة

موفق جواد الطائي

يُعد النقد التشكيلي أحد أهم الحقول المعرفية التي رافقت تطور الفن عبر العصور، إذ لم يكن الفن يومًا معزولًا عن الفكر أو الثقافة أو التحولات الاجتماعية والسياسية، بل كان دائمًا مرآةً للتحولات الحضارية الكبرى.

ومن هنا نشأت الحاجة إلى النقد بوصفه أداة لفهم العمل الفني وتحليل بنيته الجمالية والفكرية والثقافية. وقد مرّ النقد التشكيلي بتحولات عميقة منذ عصر الحداثة وصولًا إلى ما بعد الحداثة، حيث تغيّرت مفاهيم الفن والجمال والمعنى، وتبدلت وظيفة الناقد وأدواته المنهجية.

ارتبط النقد الحداثي بمشروع التنوير الأوروبي الذي قام على الإيمان بالعقل والتقدم والبحث عن المعايير الجمالية الثابتة. لذلك ركّز النقد الحداثي على الشكل والبنية والأسلوب، وتعامل مع العمل الفني بوصفه كيانًا مستقلًا يمكن تحليله بمعزل عن السياق الخارجي. غير أن النصف الثاني من القرن العشرين شهد تصاعد تيارات فلسفية وفكرية شككت في مركزية العقل والحقيقة المطلقة، مما أدى إلى ظهور فكر ما بعد الحداثة الذي أعاد النظر في جميع المفاهيم التي قامت عليها الحداثة، بما في ذلك مفهوم الفن والنقد.

في هذا الإطار، تحوّل النقد التشكيلي من ممارسة تقويمية تهدف إلى إصدار أحكام جمالية إلى ممارسة تحليلية–تفكيكية تهتم بدراسة الخطاب البصري والسياقات الثقافية وعلاقات السلطة والمعرفة. ولم يعد العمل الفني يُقرأ بوصفه بنية مغلقة ذات معنى ثابت، بل أصبح نصًا بصريًا مفتوحًا على تأويلات متعددة، تتداخل فيه العلامات والرموز والأيديولوجيات.

تكمن أهمية هذا البحث في كونه يسعى إلى تقديم دراسة موسعة للتحولات المنهجية التي شهدها النقد التشكيلي من الحداثة إلى ما بعد الحداثة، مع التركيز على المناهج النقدية التي اعتمدها النقد المعاصر، مثل المنهج التفكيكي، والسيميائي والمعرفي والسياقي والمفاهيمي بوصفها أدوات لفهم الفن المعاصر وتحليل دلالاته المتعددة.

وتتمثل إشكالية البحث في التساؤل الآتي: كيف تحوّل النقد التشكيلي من خطاب جمالي قائم على الشكل والمعيار إلى خطاب ثقافي–تفكيكي متعدد المناهج؟ وما أثر هذا التحول في قراءة العمل الفني المعاصر؟

وانبثق النقد الحداثي من التحولات الفكرية التي شهدتها أوروبا منذ عصر النهضة وحتى القرن العشرين، حيث ارتبط بصعود العقلانية والفردانية والنزعة الإنسانية. وقد انعكس ذلك في الفنون التشكيلية التي سعت إلى التحرر من القيود الكلاسيكية وإنتاج لغة بصرية جديدة تعبر عن روح العصر.

اعتمد النقد الحداثي على مركزية الشكل بوصفه جوهر العمل الفني، ولذلك ركّز النقاد على التحليل الشكلي للعناصر التكوينية مثل اللون والخط والإيقاع والتوازن والمنظور. وقد أسهم نقاد مثل كلايف بيل وروجر فراي في ترسيخ مفهوم «الدلالة الشكلية» التي ترى أن القيمة الفنية تكمن في العلاقات الشكلية داخل العمل.

كما ارتبط النقد الحداثي بفكرة الأصالة والابتكار، إذ كان يُنظر إلى الفنان بوصفه ذاتًا مبدعة تمتلك رؤية خاصة للعالم. ومن هنا أصبح العمل الفني تعبيرًا عن الذات الفردية وعن القدرة على خلق نظام جمالي مستقل.

غير أن هذا التصور تعرض لاحقًا إلى نقد واسع، خاصة مع ظهور الفنون المفاهيمية وفنون الأداء والتركيب، التي لم تعد تعتمد على الشكل بوصفه العنصر الأساسي في إنتاج المعنى.

التحولات الفكرية ما بعد الحداثة:

ظهر فكر ما بعد الحداثة نتيجة أزمات فكرية وثقافية عميقة شهدها العالم بعد الحرب العالمية الثانية، حيث تراجعت الثقة بالمشاريع الكبرى التي بشرت بها الحداثة، مثل العقل والتقدم والحقيقة الشاملة. وقد أسهم فلاسفة مثل جاك دريدا وميشيل فوكو وجان بودريار وجيل دولوز في صياغة رؤى جديدة تقوم على التشكيك في الثوابت وكشف البنى السلطوية الكامنة في المعرفة والخطاب.

وأصبح الفن مجالًا لتفكيك المعاني السائدة وكشف التناقضات الثقافية والاجتماعية. ولم يعد الهدف إنتاج عمل جميل وفق معايير تقليدية، بل إثارة الأسئلة وكسر الحدود بين الفن والحياة.

كما ارتبطت ما بعد الحداثة بصعود الإعلام والصورة الرقمية والثقافة الاستهلاكية، الأمر الذي أدى إلى تحول العمل الفني إلى خطاب بصري معقد يتداخل فيه الواقعي بالافتراضي، والحقيقي بالمحاكاة.

النقد التشكيلي ما بعد الحداثة المفهوم والخصائص:

يُعد النقد التشكيلي في ما بعد الحداثة تحولًا جذريًا في بنية التفكير النقدي، إذ لم يعد ينظر إلى الفن بوصفه موضوعًا جماليًا مستقلًا، بل باعتباره ممارسة ثقافية مركبة ترتبط بالسلطة والهوية واللغة والمعرفة. ومن هنا تراجع الاهتمام بالحكم الجمالي التقليدي لصالح التحليل الثقافي والتفكيكي.

من أبرز خصائص النقد ما بعد الحداثي رفضه لفكرة المركز الواحد والمعنى النهائي، إذ يرى أن العمل الفني يحمل دلالات متعددة تتغير بحسب السياق والمتلقي. كما يتسم هذا النقد بالتداخل المعرفي، حيث يستعين بالفلسفة وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا واللسانيات

والدراسات الثقافية لفهم العمل الفني.
كذلك يتبنى النقد ما بعد الحداثي موقفًا نقديًا من السلطة الثقافية والمؤسسات الفنية، مثل المتاحف والأكاديميات وسوق الفن، ويرى أن هذه المؤسسات تؤثر في تشكيل القيمة الفنية وتحديد ما يُعد فنًا مشروعًا.

ما بعد الحداثة وتحول وظيفة النقد التشكيلي:

مع بروز فكر ما بعد الحداثة، تعرضت الأسس التي قام عليها النقد الحداثي إلى مراجعة جذرية. فقد جرى التشكيك في فكرة المعنى الواحد، وفي حياد الجمال، وفي استقلالية العمل الفني. وأصبح يُنظر إلى العمل التشكيلي بوصفه خطابًا بصريًا مشروطًا بسياقاته الثقافية والاجتماعية والسياسية.
لم يعد النقد يسعى إلى تثبيت قيمة جمالية نهائية، بل إلى تفكيك البنى الدلالية والكشف عن الأنساق الأيديولوجية وعلاقات السلطة الكامنة في العمل. وبهذا تحوّل النقد من ممارسة تقويمية إلى ممارسة تحليلية – تأويلية، تهتم بالأسئلة أكثر من الأحكام

المنهج التفكيكي وتحليل الخطاب البصري:

أحدث المنهج التفكيكي تحولًا عميقًا في قراءة الفن التشكيلي، إذ لم يعد العمل يُفهم بوصفه بنية منسجمة، بل بنية تحتوي على تناقضات داخلية وانزياحات دلالية. ويرتكز هذا المنهج على فكرة أن المعنى غير ثابت، وأن كل خطاب يحمل في داخله عناصر تقوض استقراره.
في الفن التشكيلي، يُستخدم التفكيك لتحليل العلاقات بين العناصر البصرية، والكشف عن الثنائيات التي يقوم عليها العمل مثل المركز والهامش، الحضور والغياب، الذكورة والأنوثة، المحلي والعالمي. ويُظهر الناقد كيف يُنتج العمل معناه من خلال التوتر بين هذه الثنائيات.
كما يهتم التفكيك بتحليل ما يتم إخفاؤه أو استبعاده داخل العمل، معتبرًا أن الصمت والغياب قد يكونان أكثر دلالة من العناصر الظاهرة. ولهذا فإن النقد التفكيكي لا يقدم تفسيرًا نهائيًا للعمل الفني، بل يفتح المجال أمام تعدد التأويلات.
وقد أثّر هذا المنهج بصورة كبيرة في قراءة الفنون المعاصرة، خاصة الفنون المفاهيمية وفنون التركيب، التي تعتمد على زعزعة توقعات المتلقي وإثارة الأسئلة بدل تقديم أجوبة جاهزة.

السيمياء وتحليل العلامة في الفن التشكيلي:

تُعد السيمياء من أكثر المناهج تأثيرًا في النقد التشكيلي المعاصر، لأنها تنظر إلى العمل الفني بوصفه نظامًا من العلامات التي تنتج المعنى عبر العلاقات بين الدوال والمدلولات.
يركز التحليل السيميائي على دراسة الرموز والإشارات والألوان والأشكال، وكيفية تحولها إلى حاملات للمعنى الثقافي والاجتماعي. فالصورة ليست مجرد تمثيل بصري، بل خطاب يحمل رسائل أيديولوجية ومعرفية.
ومن خلال المنهج السيميائي يمكن تحليل كيفية تمثيل الجسد، أو المدينة، أو الذاكرة، أو السلطة داخل العمل الفني. كما يمكن الكشف عن العلاقة بين العلامات البصرية والمرجعيات الثقافية التي يستند إليها الفنان.

وقد توسعت السيمياء في ما بعد الحداثة لتشمل تحليل الصورة الإعلامية والإعلانات والثقافة الرقمية، الأمر الذي أدى إلى توسيع مفهوم الفن نفسه.

المنهج المعرفي والإدراك البصري:

يهتم المنهج المعرفي بدراسة العلاقة بين الفن والإدراك الإنساني، ويرى أن عملية التلقي ليست استجابة سلبية للعمل الفني، بل نشاط ذهني معقد تشارك فيه الذاكرة والخبرة والثقافة.

ويبحث هذا المنهج في كيفية إدراك المتلقي للعناصر البصرية، وكيف تتشكل المعاني داخل الوعي. كما يركز على أثر الخلفية الثقافية والنفسية في تفسير العمل الفني.

في النقد ما بعد الحداثي، اكتسب هذا المنهج أهمية كبيرة لأنه ينسجم مع فكرة تعدد المعنى، إذ لا يوجد تفسير واحد للعمل، بل تتعدد القراءات بحسب اختلاف المتلقين.

كما يرتبط المنهج المعرفي بدراسة التفاعل بين الصورة والذاكرة، خاصة في الأعمال التي تتناول الحرب أو الهوية أو المدينة، حيث يصبح العمل الفني محفزًا لاستدعاء الخبرات والتجارب الشخصية والجماعية.

المنهج السياقي والنقد الثقافي:

يرى المنهج السياقي أن العمل الفني لا يمكن فهمه بمعزل عن البيئة التي أُنتج فيها، ولذلك يركز على تحليل الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية المحيطة بالعمل.

في هذا الإطار، يتحول الفن إلى وثيقة ثقافية تكشف عن طبيعة المجتمع وعلاقاته السلطوية. ولهذا يهتم الناقد بتحليل علاقة الفن بالمؤسسات، وبالاقتصاد، وبوسائل الإعلام، وبالتحولات الاجتماعية.

كما يرتبط هذا المنهج بالنقد الثقافي الذي يسعى إلى كشف الأيديولوجيات المضمرة داخل الصور والخطابات البصرية. وبذلك يصبح النقد أداة لتحليل السلطة والهوية والتمثيل.

ويكتسب هذا الاتجاه أهمية خاصة في دراسة الفن العربي المعاصر، حيث تتداخل قضايا الهوية والتراث والاستعمار والذاكرة الجمعية في تشكيل الخطاب البصري.

المنهج المفاهيمي وتحول فكرة الفن:

شهد الفن المعاصر تحولات جذرية مع ظهور الفن المفاهيمي، الذي جعل الفكرة تتقدم على الشكل والمهارة التقنية. ونتيجة لذلك تغيّرت وظيفة النقد، إذ أصبح يهتم بتحليل المفهوم الذي يقوم عليه العمل أكثر من اهتمامه بالجوانب الشكلية.

في هذا النوع من الفن، قد يكون العمل عبارة عن نص، أو صورة فوتوغرافية، أو تركيب في الفراغ، أو أداء جسدي، ما يعني أن القيمة الفنية لا تكمن في المادة بل في الفكرة.

وقد أدى هذا التحول إلى توسيع مفهوم الفن، وإلى إعادة تعريف دور الفنان والمتلقي والناقد. فالناقد هنا لا يبحث عن الجماليات التقليدية، بل يحلل الأسئلة الفكرية التي يطرحها العمل.

دور المتلقي في النقد ما بعد الحداثي:

من أبرز التحولات التي شهدها النقد المعاصر انتقال مركزية المعنى من الفنان إلى المتلقي. ففي النقد الحداثي كان يُنظر إلى الفنان بوصفه المصدر الأساسي للمعنى، بينما أصبح المتلقي في ما بعد الحداثة شريكًا

في إنتاج الدلالة.
يعتمد هذا التصور على فكرة أن العمل الفني لا يكتمل إلا عبر التلقي، وأن كل قراءة تنتج معنى جديدًا. ولهذا لا يوجد تفسير نهائي للعمل الفني، بل شبكة من القراءات الممكنة.
كما يرتبط هذا التحول بظهور الوسائط الرقمية والفنون التفاعلية، التي تمنح الجمهور دورًا مباشرًا في تشكيل التجربة الفنية.

الفن المعاصر بين العولمة والهوية:

أثرت العولمة بصورة كبيرة في بنية الفن المعاصر، إذ أصبح الفنان يتحرك ضمن فضاء عالمي تتداخل فيه الثقافات والرموز والوسائط. وقد انعكس ذلك في ظهور أعمال هجينة تجمع بين المحلي والعالمي، وبين التراث والتكنولوجيا.
في المقابل، أثارت العولمة مخاوف تتعلق بفقدان الهوية الثقافية وهيمنة النموذج الغربي على المؤسسات الفنية العالمية. ولهذا اتجه العديد من الفنانين والنقاد إلى إعادة قراءة التراث المحلي بوصفه مصدرًا للمقاومة الثقافية.
وقد اهتم النقد ما بعد الحداثي بتحليل هذه العلاقة المعقدة بين العولمة والهوية، وكشف التوترات التي تنتج عنها داخل الخطاب البصري المعاصر.

نقد ما بعد الاستعمار والفن العربي المعاصر:

يُعد نقد ما بعد الاستعمار من أهم الاتجاهات النقدية المرتبطة بما بعد الحداثة، إذ يسعى إلى تفكيك المركزية الأوروبية وكشف آثار الهيمنة الثقافية في الفن.
في السياق العربي، يركز هذا النقد على دراسة كيفية تمثيل الهوية العربية، وعلاقة الفنان بالتراث، وصورة الشرق في الخطاب الغربي. كما يهتم بتحليل أثر الاستعمار والحروب والتحولات السياسية في تشكيل الفن المعاصر.
وقد أسهم هذا الاتجاه في إعادة الاعتبار للتجارب الفنية المحلية، ورفض اختزال الفن العربي ضمن قوالب استشراقية جاهزة.

النقد التشكيلي الرقمي وتحولات الصورة:

أدت الثورة الرقمية إلى تغير جذري في مفهوم الصورة والعمل الفني، حيث ظهرت الفنون الرقمية والوسائط التفاعلية والواقع الافتراضي، ما استدعى تطوير أدوات نقدية جديدة.
أصبح النقد يواجه تحديات تتعلق بطبيعة العمل الرقمي، وحدود الأصالة، والعلاقة بين الإنسان والتكنولوجيا. كما برزت أسئلة حول تأثير وسائل التواصل الاجتماعي في تشكيل الذائقة البصرية وتسليع الصورة.
وقد وسّع هذا التحول من مجال النقد التشكيلي، فلم يعد مقتصرًا على اللوحة والنحت، بل أصبح يشمل الثقافة البصرية الرقمية بأكملها.
الاستنتاج:
يمثل النقد ما بعد الحداثي تحولًا من التحليل الجمالي إلى التحليل الثقافي والتفكيكي.
أسهمت المناهج التفكيكية والسيميائية والمعرفية والسياقية في توسيع أدوات قراءة العمل الفني.
أصبح المتلقي عنصرًا فاعلًا في إنتاج المعنى داخل الخطاب البصري.
أدى الفن المفاهيمي والرقمي إلى إعادة تعريف مفهوم الفن ووظيفة النقد.
يرتبط النقد المعاصر بقضايا الهوية والعولمة

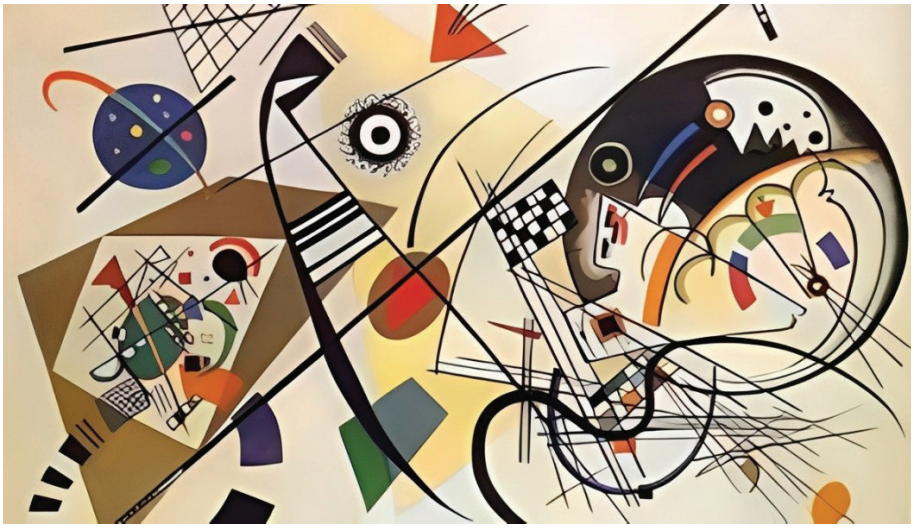

والسلطة والتمثيل الثقافي.

إن النقد التشكيلي ما بعد الحداثة لم يعد مجرد نشاط تقويمي يبحث عن الجمال أو الانسجام الشكلي، بل أصبح ممارسة معرفية وثقافية معقدة تهدف إلى تحليل الخطابات البصرية والكشف عن البنى الفكرية والسلطوية الكامنة فيها.

وقد أدى هذا التحول إلى تعدد المناهج النقدية وتداخلها، بحيث أصبح الناقد يوظف التفكيك والسيمياء والتحليل المعرفي والسياقي لفهم العمل الفني بوصفه ظاهرة ثقافية متعددة الدلالات.

كما أن الفن المعاصر، في ظل العولمة والثورة الرقمية، لم يعد مرتبطًا بالوسائط التقليدية أو بالمعايير الجمالية الثابتة، بل أصبح مجالًا مفتوحًا للتجريب والتأويل وإعادة التفكير في العلاقة بين الفن والمجتمع والإنسان.

وبذلك فإن النقد التشكيلي المعاصر يمثل اليوم أحد أهم الحقول المعرفية لفهم الثقافة البصرية وتحولاتها، خاصة في المجتمعات العربية التي تواجه تحديات الهوية والحداثة والعولمة.

الرمز في تجربة الفنان قاسم محسن بين الذاكرة البصرية والهوية الحضارية

أميرة ناجي *

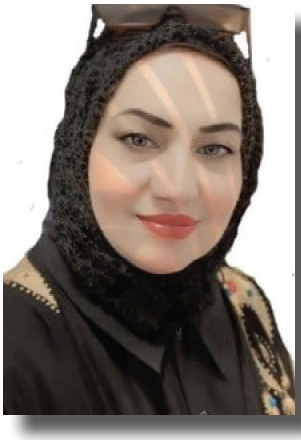

في التجربة التشكيلية للدكتور قاسم محسن تتجلى قدرة نادرة على تحويل الكائنات الرمزية إلى مرايا حضارية تنعكس فيها سرديات الشعوب وطقوسها وهواجسها الوجودية. فهو لا يرسم من أجل الزخرفة أو المتعة البصرية بل يستحضر الذاكرة مادةً تشكيلية، ويجعل من اللوحة فضاء يتقاطع فيه التاريخ بالرمز والفكر باللون والروح بالملمس.

عند النظر إلى أعماله يخيّل للمتلقي أنه أمام مخطوطة حضارية لا أمام لوحة تقليدية إذ تفيض التفاصيل بدلالات عميقة تتجاوز حدود الشكل نحو المعنى. حين يرسم الثور لا يقدمه ككائن طبيعي بل كوثيقة بصرية تروي ذاكرة الإنسان الأول وتعيد صياغة العلاقة بين الإنسان والحيوان والطبيعة.

جسد الثور في أعماله يغدو صفحةً مغطاة بمقاطع سردية ومنمنمات وكتابات وأشكال معمارية وكأن جلده يحمل تاريخ مدينة أو حضارة بأكملها. الثور هنا وعاء للذاكرة الشعبية وجسد للحكاية الإنسانية.

وحين يظهر الحصان في موكب احتفالي فإنه لا يكون مجرد وسيلة نقل بل حاملا لطقوس السلطة وللذاكرة الجمعية وللرمزية التي تربط الإنسان بالأرض والسماء في آن واحد.

أسلوب الفنان قاسم محسن لا ينتمي إلى مدرسة محددة أو اتجاه تقليدي بل يقوم على توليفة فكرية وجمالية تتكئ على الرمزية العميقة وتستعير من التجريد طاقته التأويلية ومن الواقعية طقوسها الشكلية ومن الفن الشعبي روحه السردية. إن فنه لا يهادن ولا يكتفي بإغراء العين بل يسعى إلى ما وراء الصورة إلى جوهر الكائن والمعنى الخفي في تكرار الرمز وانكسار الخط وتجاور الطبقات اللونية. اللوحة عنده ليست سطحًا مصبوغًا بل كيان حي يتنفس ويبوح بما لا يقال.

وهنا يمكن استحضار مقولة الفنان الإسباني بابلو بيكاسو: «الفن كذبة تجعلنا ندرك الحقيقة».

تتجلى هذه المقولة بوضوح في تجربة قاسم محسن حيث لا يسعى إلى تمثيل الواقع كما

يُرى، بل يعيد تركيبه رمزيًا ليقود المتلقي إلى حقيقة أعمق من المشهد الظاهري. فالكائنات في لوحاته ليست نسخًا من الطبيعة بل استعارات بصرية، والكذبة التشكيلية هنا تصبح أداة لكشف الذاكرة الحضارية والحقيقة الوجودية المختبئة خلف الرمز واللون والحرف. التقنيات التي يوظفها تتجاوز الرسم إلى ما يشبه النحت داخل اللوحة. كثير من أعماله تبدو كأنها منحوتات مسطحة تتداخل فيها الطبقات وتبرز العناصر بتكوين شبه ثلاثي الابعاد. يوظف الأكريليك والحفر والكولاج والتطعيم البصري ليخلق فضاءً متعدد المستويات لا يخضع لقوانين المنظور التقليدي بل لمنطق التأويل البصري والفكري. في إحدى لوحاته يظهر الثور وقد تحول إلى متحف حي جسده مقسم إلى مربعات كل مربع يحوي مشهدًا أو رمزًا أو كتابة وكان الفنان يعيد بناء المتحف داخل الجسد ذاته في إحالة بصرية عميقة إلى فكرة أن الجسد الإنساني أو الحيواني هو سجل للتاريخ ومتحف للذاكرة. الكتابة في أعماله ليست نصًا يُقرا بل عنصرًا تشكيليًا يُرى ويُحس قبل أن يُفهم. الحرف العربي يتحول إلى نسيج بصري وإيقاع جمالي وإلى طقس من طقوس التكوين الفني. فهو يربط بين اللغة والصورة وبين المعنى والشكل وبين الوعي واللون. وفي كثير من أعماله تتداخل الكتابة مع الألوان فيتحول الحرف إلى خيط ضوء ينسج مع البقع اللونية نسيجًا تأويليًا يفتح الباب أمام قراءات متعددة ويمنح اللوحة عمقًا فلسفيًا يجعل منها تجربة فكرية وجمالية في أن واحد. الحرف هنا جسد بصري له وزنه وإيقاعه ونَفسه الخاص. أما الرموز الحيوانية المتكررة في تجربته مثل الثور والحصان والسمكة فهي كائنات حضارية تحمل على أجسادها سرديات

الفنان قاسم محسن

الشعوب ومعتقداتها. الثور يظهر ككائن مركّب جسده مغطى بمشاهد من الحياة القديمة من المعابد والأسواق والاحتفالات وكأنه يختزن في جسده قصة الإنسان الأولى.

والسمكة في عمل آخر تسبح في فضاء مائي تغمره الألوان الزرقاء والكتابات العربية المزخرفة فتحضر رمزًا للحياة والخصوبة والبعث في تراث حضارات الرافدين.

لا شيء في لوحاته يأتي مصادفة فكل كائن فيها محمّل بمعناه الميثولوجي والروحي.

ان ما يميز تجربة د. قاسم محسن هو قدرته على تحويل اللوحة إلى نص حضاري وإلى وثيقة بصرية تستعيد ما ضاع من رموزنا وطقوسنا وسردياتنا. أعماله ليست محاكاة للواقع بل إعادة بناء للذات الثقافية من خلال الفن والرمز والحرف. في زمن تتشظى فيه الهويات وتضيع العلامات البصرية تأتي لوحاته كنداء للعودة إلى الأصل كدعوة للتأمل والتذكر واستعادة الجذور. إن المتأمل في أعماله يشعر بأنه أمام ذاكرة تتشكل بالألوان وأن كل ضربة فرشاة فيها هي محاولة لتثبيت أثر في وجه النسيان. الفن عند قاسم محسن ضرورة وجودية ووسيلة للفهم والمقاومة

معًا. فكل لوحة مساحة لمساءلة الذات ولتفكيك التاريخ وإعادة قراءته.

في أعماله يتحول الثور إلى مرآة للمدينة والحصان إلى مرآة للطقس والسمكة إلى مرآة للروح. ذلك الربط بين الفن والحياة بين الرمز والإنسان يمنح تجربته طاقة روحية خاصة تجعلها تتجاوز حدود التشكيل إلى فضاء الفكر والتأمل. هو لا يرسم الأشياء كما هي بل كما ينبغي أن تكون في الذاكرة وفي الحلم وفي الوعي الجمعي. تجربته بهذا المعنى تجربة حضارية بامتياز لأنها تستعيد الرموز القديمة وتمنحها حياة جديدة. فالفنان هنا لا يعيد إنتاج الموروث بل يعيد تأويله بلغة بصرية معاصرة تستند إلى جذور عميقة. أسلوبه يجمع بين الرمزية والتجريد وتقنياته تمزج بين الرسم والنحت ورموزه تستحضر الذاكرة وتعيد بناءها بلغة تشكيلية رفيعة. لذلك يمكن القول إن قاسم محسن لا يرسم الكائن بل يرسم فكرته ولا يلاحق الشكل بل يلاحق المعنى ولا يبحث عن الجمال السطحي بل عن الحقيقة الكامنة في باطن اللون وفي صمت الحرف وفي عيون الرموز التي تتكلم ببلاغة صامتة. في لوحاته يلتقي الجمال بالفكر وتتحول الذاكرة إلى بناء بصري تتجاور فيه الأسطورة مع التاريخ والدين مع الفلسفة والطقس مع الحياة اليومية. إنه فن يستلهم من الحضارات الرافدينية جوهرها ومن التراث العربي روحه ومن الإنسان كينونته الأبدية.

لذلك فإن أعماله لا تقرأ بعين واحدة بل تحتاج إلى تأمل متعدد الطبقات تمامًا كما تُقرأ المخطوطات القديمة التي تجمع بين النص والزخرية وبين المقدس والإنسانى. د. قاسم حسن يكتب لوحاته بلغة الضوء والظل ويوقعها بحبر الذاكرة، وفي كل عمل له حوار بين الحاضر والماضى وبين العين والروح.

إن تجربته في جوهرها ليست سعيًا نحو الجمال بل فعل وعي حضاري واستعادة لما ضاع من معنى الإنسان في ضجيج الحداثة.

بهذا المعنى يصبح فنه مرآة لحضارة تحاول أن تتذكر ذاتها من خلال الرمز وأن تعيد بناء وجودها من خلال اللون.

إن قراءة أعماله هي قراءة في الوعي البصري للإنسان العربي وفي ذاكرته الحضارية الممتدة من طين الرافدين حتى الحلم المعاصر. لذلك فإن تجربته تمثل علامة فارقة في الفن العراقي والعربي لأنها لا تكتفي بتسجيل المظهر بل تتوغل في العمق حيث يقيم المعنى وتولد الأسئلة وتستمر الرحلة بين الرمز والذاكرة وبين الإنسان وتاريخه الذي لا ينتهي.

***فنانة وناقدة تشكيلية من البصرة**

"رأس المال" مسرحياً

بهاء محمود علوان

ينحدر مسرح العمال الثوري من التعريف الخاص به، أي أنه لم يعد بالإمكان وصفه بالفن أو المسرح؛ فكيف يتسنى لنا فهم هذا؟

إن غاية مسرح العمال الثوري يقوم على الواقع السياسي، لذا يسعى نحو التعبير عن هذا الواقع، ما يعني دمجه في ذاته حتى يُصبح (حقيقيًا).

وفي وقتٍ كان فيه مسرح العمال الألماني في بداياته؛ قام جان باتيست شفايتزر، وهو أحد ممثلي هذا المسرح بتقديم شخصين على خشبة المسرح عام 1869 لعرض نظرياتٍ من كتاب "رأس المال" لماركس والذي كان قد نُشر في حينه.

وكان الهدف الوحيد من العرض هو نقل الأفكار الماركسية، من دون استخدام أي وسائل فنية. حيثُ كان الفعل المسرحي (حقيقيًا)، وكان من الممكن أن يقف سياسيٌ على خشبة المسرح يُلقي خطابًا. لكن وظّف مسرح العمال الثوري في عصر فايمار الوسائل الفنية، وأهمها التمثيل، بل إنه ابتكر إمكانيات فنية جديدة لإنجاز مهامه، ومنها إضفاء الطابع الملحمي على المسرح. حيث جمع المسرح العروض الضوئية والإحصاءات ولقطات الأفلام كجزء من إنتاج متكامل متداخل مع الأشكال الفنية.

وبالتالي يمكن رفض النقد القائل بأنه لم يكن فنًا أو مسرحًا؛ أما فيما يتعلق بتصريحات رواد المسرح، فقد كانت مبنية جزئيًا على سوء فهم، وجزئيًا بقصد الاستفزاز.

وهذا لا يبرر موضوع هذا العمل، الذي يتناول شكلًا مسرحيًا محددًا، بل يفسر أيضًا جزءا من مفهوم مسرح العمال الثوري، وهو المصطلح الأساسي.

كان مسرح العمال الثوري يهدف إلى نشر الفكر الماركسي، إذْ طور هذا الفكر بالتعاون جزئيًا مع فريدريك إنجلز وقدم نظامًا من الأفكار والاستراتيجيات التي شخصت اضطهاد الطبقة العاملة واستغلالها، وسعت إلى تحريرها الثوري.

كان الهدف من المجتمع الشيوعي كما يوحي اسمه، هو تطبيق رؤية (كل شيء ملك للجميع) على أرض الواقع، وأن يكون من نواحٍ عديدة مجتمعًا عماليًا. وقد نشأت حركة استحضرت أفكار ماركس وحلفائه، كما ظهر مسرح عمالي ألماني مبكر تناول في بعض مسرحياته توجهات سياسية وبروليتارية محددة.

كان الهدف الأساسي هو توفير بعض الراحة عن طريق العمل والمعيشة القاسية للبروليتاريا، وتقديم الترفيه والتسلية.
من خلال هذه العروض وفي هذا السياق يتضح جانب آخر من المصطلح. ويمكن وصف مسرح العمال الثوري بأنه ثوري لأنه سعى للمساهمة في الثورة. وهذا يعني ضمناً ثورة تؤدي إلى مجتمع شيوعي. فكلمة (ثوري) تحمل في طياتها هذا الهدف. لقد حوّلت ثورة نوفمبر الإمبراطورية الألمانية إلى جمهورية. وألغت العديد من القوانين واللوائح الرجعية؛ وتم تحرير لوائح الرقابة.
وفي وقت مبكر من عام 1916 تشكلت جمعية شيوعية حول روزا لوكسمبورك وكارل ليبكنخت، والتي سُميت منذ عام 1918 فصاعداً "رابطة سبارتاكوس". وانبثق الحزب الشيوعي الألماني (KPD) من عصبة سبارتاكوس في عامي 1918/1919. وقد أطاحت ثورة أكتوبر في روسيا بالحكومة المؤقتة البرجوازية وأرست النظام البلشفي. ولأول مرة تحقق نظام نظري مستمد من الماركسية.

ففي ألمانيا تبينت الحريات المكتسبة حديثًا والحزب الشيوعي الصاعد؛ كما ظهرت روسيا الثورة المنتصرة، وفي ظل تلك الظروف بزغ فجر المسرح العمالي الثوري في جمهورية فايمار. وفي الاتحاد السوفيتي الفتي أيضًا بُذلت جهود لمنح الفن والثقافة غاية جديدة. وظهر ما يُسمى بحركة (بروليتكولت)، التي اكتسبت نفوذًا على المسرح العمالي الثوري في ألمانيا بشكل أساسي عن طريق كتابات منظريها ألكسندر بوغدانوف، وأناتولي لوناتشارسكي، وبلاتون كيرجينتسيف. وهنا لا ينبغي المبالغة في تقدير هذا فهو في أحسن الأحوال كان نهجًا انتقائيًا يستند إلى مسلمات فردية.. لهذا كانت المحاولة الأولى لإنشاء (مسرح بروليتاري) في عهد جمهورية فايمار مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بحركة بروليتكولت. فقد أنشأ عدد من المثقفين من بينهم كارل هاينز مارتن ورودولف ليونارد، مسرحًا يهدف إلى تبني أهداف شيوعية. وكان إروين بيسكاتور هو من وضع مفهوم (المسرح البروليتاري) المبادئ الأساسية لمسرح العمال الثوري.

قال الحاوي : الحياة جميلة كأفعى !

محمد سهيل احمد *

كان ذلك في سنة من السنين التي رحلت كسحابة صيف، حين دلني صاحب فندق (المقام) على الغرفة التي يطل شباكها على نهر المدينة لأتقاسمها مع من بعثت اليه من اجل ان يقوم بمهمته كمتذوق لأصناف التوابل التي اعتدت ان اقوم بشحنها بقطار الحمل الى اسواق بغداد وما بعد بغداد؛ اعتمادا على ذائقته المدربة..

تأرجحت حقيبة سفري الخفيفة وأنا اعبر ممر الفندق الى حيث سريري في الغرفة الأخيرة التي كنا نسكنها معا. دهمتني رائحة خانقة لأسرع بفتح مصراعي الشباك المطل على الشارع المزدحم فيما كان صاحبي مستسلما لنوم عميق يتخلله شخير متقطع. نضوت عن قدميّ المرهقتين فردتي جوربي دافعا بحذائي المتهالك بعيدا عن السرير جالسا على حافته المقوسة في مسعى مني لالتقاط انفاسي .وكان شعاع من شمس الضحى قد شق طريقه الى الداخل مستلقيا على وجهه الآسيوي الداكن البشرة، لم استطع ان امنع عطاسا داهمني لحظتئذ بتأثير من الرائحة الناقعة بروائح الكركم والقرفة والفلفل الاسود وروائح اخرى لم اتمكن من تمييزها .

استيقظ دونات مومئا بيده نحوي في اشارة ترحيب لافا حول عنقه منشفا وخرج للمغاسل. عاد وملأ اهابه رائحة صابون نفاذة بادرني بالقول: ـ هل تناولت فطورك؟

ـ معي كعكتان ..

ـ لا بد من كوب شاي..

دسست اصابعي في جوف حقيبتي فعثرت على اربعة اكياس شاي معطرة بالبيزموت وعلى زجاجة حليب مجفف. اوقدت البريموز واضعا الابريق على ناره الزرقاء. استعاد بعد الافطار قسطا من نشاطه معلنا:

ـ البارحة فحصت عينات الكزبرة وطحين القرفة..

ـ ما الذي تبقى لديك؟

ـ الفلفل الاسود والسماق..

****

اطال دونات تحديقه في سقف الغرفة ثم استدار نحوي:

ـ اعطيتك وعدا بأن اتحدث عن ابي .. وسوف افعل .. كان ابي القادم من الهند جنديا في فرقة بونا السادسة التابعة لجيش الاحتلال البريطاني الذي احتل البصرة سنة 1914،

وبعد ان انتهت الحرب ،أتى البريطانيون بالملك الحجازي فيصل الاول ليبدأ عهد جديد اسمه الانتداب .وقد رافق انسحابهم بقاء افراد من الجيش الهندي الرديف في المدينة بعد ان عافهم جيش الاحتلال، فبين ليلة وضحاها وجد اولئك المنسيون انفسهم بلا عمل يوفرون من خلاله اجرة العودة الى بلادهم وكان ابي الجندي النفر (كومار) واحدا منهم. ولكن ابي كان من النوع المزاجي المتقلب وكان من الصعب ان يبقى في مهنة واحدة اذ قضى سنتين في محل للتوابل مجاور لسوق الشيخ خزعل وبضعة شهور كحمال في احد خانات شارع (ابي الاسود) ليهجر العمل الى المراكب التي كانت تجلب زوار المراقد من الهند حتى تمكن من توفير سعر تذكرة على مركب (الداريسا) الى سواحل (بومبي) حيث اسرته . وهناك اخبرته امه بأنها لم تتلق من حامل الامانة اية روبية منذ ان تطوع في الجيش فأدرك جازما بأنه قد تعرض للخداع من جهة ممن اودعه مبلغا من المال وعنوان البيت من اجل ان يسعف امه التي كانت تعاني من داء السل. ثم تلقى صدمة اخرى كادت ان تطيح بروحه ارضا فقد علم ان جده لأبيه قد مات بجائحة الكوليرا تبعته جدته التي كانت فارقت الحياة قبل عودته لمسقط رأسه! كما ان زوجة ابيه قد استولت على بيت الاسرة الذي لم تكن مساحته تتجاوز راحة اليد، لتعمد الى اقتطاع نصف المساحة كيما تؤجره لثلاث عائلات في حين جعلت من القسم المتبقي بيتا سريا للدعارة! اضطر ابي للمبيت على ارصفة الطرقات بائعا لمسحوق التبغ الرديء الذي ما كان ليدر عليه اكثر من بضع روبيات كانت بالكاد تقيم له اوده . لقد عثر ابي على نفسه منبوذا في العراء شأنه شأن جلباب معلق على حبل كفاح عبثي .وبعد ان نفض من اهابه غبار المعارك التي خاضها في بلاد الميسوبوتيميا ، وقع في غرام فتاة اسمها (اجانتا) كانت تؤدي نمرا استعراضية في سيرك ابيها وكان الاعجاب متبادلا دون ان ينتبه الى ان فتاته تلك ارادته ان ينضم الى ذلك السيرك المتنقل بين الولايات مرة كسائس في حظيرة السيرك وتارة كقاطع تذاكر بناء على ايعاز من عمتها (راتنا) .ثم اجبرته الظروف على تقديم عروض كانت تمتاز بالخفة والخداع مثل رأس مقطوع يتكلم او ارتقاء ظهر حصان مسرع واحيانا يقدم مع القرود نمرة فكاهية لم تكن تخلو من المخاطر . لكن العرض الأخطر الذي عهد اليه بتقديمه تمثل في عزف الناي والتمايل في حضرة افعى كوبرا سبق وأن قتلت اكثر من حاو!

وفي احد الايام استدعته مالكة السيرك طالبة منه تجهيز جواز سفره اذ ان السيرك سيقوم بعدد من الجولات في مدن الخليج حيث ستكون البصرة اخر المدن:

ـ انت عشت في البصرة لسنوات وستكون ذا فائدة لعروضنا الاكروباتية وسوف ارفع راتبك!

قبل ان يغادر المركب ميناء بومبي، وافاه احد بحارتها برسالة من حبيبته تعتذر فيها له عن الرغبة في قطع علاقتهما بعد ان اجبرها ابوها بقبول الزواج من احد اثرياء القرية. وفي اللحظة التي اطلق المركب صفارة الرحيل اطلع الرسالة من جيبه مكورا اياها قاذفا بها الى لجج البحر!

في غضون اسبوعين رسا المركب بكامل حمولته عند الرصيف رقم 9 القريب من نهر العشار. وكانت راتنا ـ تلك الشريرة المتسلطة

ـ تشرف على مهام تنزيل خيمة السيرك من قبل العمال الذين انهكتهم اعمال البحر الشاقة ومكابدات نشر وارخاء الاشرعة، لتختتم الرحلة الشاقة بتنزيل معدات السيرك ابتداء بالخيمة الجبارة الحجم، مرورا بصناديق الامتعة وانتهاء بحيوانات السيرك التي شغلت الطابق السفلي من المركب مع ما تطلب اخراجهم الى رصيف المرسى من مقاومة اظهرتها الخيول التي تكون قد الفت اجواء نهر المدينة الكبير فكانت تحمحم دافعة برقابها وهياكلها الى داخل عنبر السفينة. وكانت الطامة الكبرى قد تمثلت بدفع الفيلة الهائلة الابدان الى ارضية الرصيف وهي العملية التي استغرقت ساعات من اجل اتمام التفريغ ومن ثم ادخال تلك الحيوانات الى احواض احدى الشاحنات الى جانب اقفاص الافاعي ذات الجدران المشبكة المصنوعة من سيور الفولاذ السميك. وما ان اتم البحارة وعمال السيرك حتى اعتكفوا مسندين هياكلهم المستنزفة الى سياج المرسى بل ان بعضهم خلدوا للرقاد قبل ان توقظهم سياط راتنا اللاسعة كيما يستكملوا اعمالهم المضنية وقد تآكلهم ملح البحر واشعة الشمس ورطوبة الاجواء. وبعد ان نال العمال استراحة امدها ساعتان متناولين وجباتهم المقررة والمؤلفة من الطعام الهندي المتبل بأشد المذاقات حرارة، استأنفوا مهمتهم حتى أقبل الليل حيث المبيت ضمن حدود السيرك على حصر ووسائد الصقت على ارض بقيت ساخنة حتى وقت متأخر من المساء فرقدوا هناك بعد تناول وجباتهم الخفيفة غير المشبعة ولم يصحوا الا مع الفجر.

****

صار قدوم السيرك الهندي الى البصرة على كل لسان وتقاطرت الجموع الشعبية من ضواحي المدينة لمشاهدة العروض المدهشة ما انساهم رتابة الحياة بعد ان تعرفوا على العاب لم يسبق لهم مشاهدتها من قبل، وقد استمرت تلك العروض لأسبوعين ليمسي السيرك حديث المدينة الطاغي على الرغم مما رافق تلك الفترة من حوادث صغيرة مثل هروب احد الفيلة الى شارع الوطني والذي ادى الى حصول حالة من الهلع لدى المارة، غير ان ابي وجماعة مدربة من العمال الهنود تمكنوا من السيطرة عليه واعادته الى اسطبلات السيرك. وقد قدم ابي اكثر من نمرة عزف امام افعى الكوبرا التي ادهشت الجمهور لشكلها غير المألوف وما كانت تؤديه من التواءات تحت التأثير المخدر لناي ابي . واخيراً حان يوم المغادرة الى ارض الهند على متن المركب نفسه. وكانت امنية ابي الوحيدة هي زيارة صديقه (راج) والذي قرر بعد انفضاض الحرب العالمية الاولى والإهمال الذي مارسه جيش الاحتلال البريطاني ان يتخذ من البصرة وطنا له ومصدرا لكسب لقمة العيش. وكان راج قد اقرض ابي مبلغا من المال انقذه لشهور من الوقوع في وهدة العوز، وصار لزاما على ابي ان يعيد ذلك القرض الى صاحبه كي لا يظن به الظنون لاسيما وان ابي لم يلق تحية الوداع على صاحبه في غمار تلهفه للعودة الى الهند وليته لم يقم بتلك الرحلة التي كشفت له تهور اوضاع اسرته واندثارها اما عن طريق الفقر او الموت!

بعد ان دخل لاحد الحمامات الشعبية وازاح عن بدنه تراكمات الملح والعرق وبدافع انتعاشه بمياه الحمام الباردة توجه الى السيرك حيث وجد راتنا تزعق في وجوه العمال

آمرة اياهم بالاسراع في طي خيمة السيرك وملحقاته كي تكون على متن المركب خلال ساعات. وما ان وقعت عيناها على ابي حتى نظرت اليه شزرا واطلقت زعيقها الممزق لطبلة اذني من يسمعه:

ـ اين كنت ايها الصعلوك؟ لقد بحثت عنك طويلا .. هل زرت بيتا سريا مثلا؟

انتفض ابي مجيبا: ـ لم اكن في نزهة .. دخلت حماما شعبيا .. وها انا اسألك تسديد معاشي لحاجتي الماسة اليه.. و.. بترت حديثه: ـ سنتحاسب بعد الوصول الى بومبي.. لا املك جنيهات استرلينية ولا دنانير عراقية.. ماذا انت ناو ان تفعل بمالك؟

ـ اشتري بعض الهدايا واشياء اخرى ..

ـ دع عنك هذا الهراء !.. اسرع لإتمام عملك عند رصيف المركب ..

اخفض ابي رأسه وقد داهمه احساس بالمرارة والاندحار .. لبث صامتا والتحق بعمال التصعيد ..

حدثني ابي فيما بعد ان اباه ـ لحظة مغادرة المركب الميناء ـ قرر امرا لم يجد بدا من اتخاذه، اذ ما ان قطع المركب بضعة اميال حتى تسلل الى حاجزه الخلفي قاذفا بنفسه الى مياه الشط عائما باتجاه ضفته الغربية ليعود الى البصرة سيرا على الاقدام ليجد نفسه يقرع باب بيت صاحبه راج والذي لم يتعرف عليه في بادئ الامر، الى ان عرفه بعد طول تفرس. وبعد ان سمع حكايته افرغ له احدى غرف البيت. وبعد بضعة ايام اصطحبه الى محل خياطة لاحد معارفه طالبا منه ان يجد له عملا في المحل. ولم يمض عام حتى وجد ابي نفسه واحدا من خياطي الجاكيتات المهرة. كما ان راج زين له فكرة الاقتران بأرملة شابة فقبلها من دون تردد لتكون المحصلة ان تلك الامرأة اصبحت امي ..!

قلت مستنتجا من حكاية ابيه:ـ لا بد انك قد افدت من تجارب ابيك .. اليس كذلك .. اين يكمن تأثيره الأكبر؟

ـ في خلاصاته التي تترشح كالوشم في قلبي..

ـ مثل ماذا؟

ـ كان ابي حاويا كما تعلم وقد سألته ذات يوم عن ابلغ تعريف للحياة في رأيه، فأجابني بعد طول تأمل .. الحياة باختصار ناي وكوبرا .. الحياة جميلة كأفعى!

(*) كاتب متعدد الاهتمامات، صدرت له اربع مجموعات قصصية ورواية وكتابان مترجمان، فضلا عن كتابين وثق فيهما فصولا عن مدينته البصرة .. يعد من رواد القصة العراقية.

يــوم قيامة الزهـــور

محمد إبراهيم الفلاح - مصر

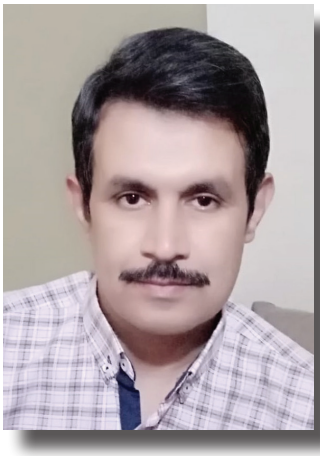

كان أبي مغرمًا برسم الزهور بالزهور، وَعندما كانت تَنضبُ منه الألوان، أو الزهور، كان يُكملُ ما يرسمهُ من لوحات طبيعية مُجَسَّدةٍ بي أنا وَأخواتي وَكنا نَحزن كثيرًا لأننا في أغلب ما كان يرسم، لم تَتَسَنَّ لنا رؤية لَوحاتِهِ، ذلك أننا كُنا جزءًا من هذه اللوحات... كَثيرونَ هم مَن كانوا يعدُّونهُ مَجنونًا حين كان يُبدي حُزنَهُ أمامهم لأنه لم يستَطِعْ أنْ يُسَجِّلَ أسماء بناتِهِ الزهور كُلِّهِنَّ باسمهِ في شهاداتِ ميلادهن التي كان يقتنيهنَّ عن يمينِ قلبه وَيسارهِ وَيا طالما أيقظنا باكرًا لِيَقرَأ لنا منها نَسَبَ أخواتِنا الزهور.

ظَلَلنا هكذا إلى أن ضاقت أمي بتلك اللوحات وَدفعها الجوعُ وَالعَطَش وَعدمُ إحساسها بتسابيح تلك الزهور أسفل المطر إلى أن تَبيعَ إحداها لقاءَ إناءٍ مَملوءٍ بالقَمحِ... وَبعدَ أنِ امتلأَ بيتنا بالطعام وَالشرابِ منَ كل صنف حتى صرنا مصدر أيام كانتْ سلة غلال العالم أجمع، انتهت حياة أبي بعدَ أنِ اعتلتْ صحتهُ وَتَدَهورَتْ تدريجيًا بعدما صارَ في كل يوم يفقدُ واحدةً من الزهور دونَ أن يعلم أنَّا كُنَّا وَراءَ ذلك.

كُنَّا قد غَسَّلناهُ وَكَفَّناهُ في داخل ياسمينةٍ صغيرةٍ بعدما تلاشى كلُّ ما كان فيه وَكُنَّا لا نَستَدِلُّ عليه إلا بصوتهِ الذي أشار علينا بِوضعهِ في آخرِ ما تَبَقَّى من حوض الياسمين مِن زَهرةِ الياسمين التي استعصى علينا قَطفُها وَبيعُها دونَ غيرها من الزهور الأُخرياتِ.

لَمْ نَكنْ نَعلم عن أبي إلا ما كان قد قال لنا من أفعال الغُسْل وَمكانَ دفنهِ الذي اختاره لِنَفسهِ وَسَمعناهُ وَهو ينطِقُ بالشهادتين في داخله بِقلوبٍ يَملأها الحسرةُ وَالنَّدَمُ... والغريبُ أننا لَمْ نَسمعْ منه كلمة عتابٍ واحدة حتى إلى أمي التي كانت تَجلسُ قُبالةَ زَهرةِ الياسمين المدفون فيها وَهي تُشَبِّكُ زهرةً في شَعرِها أو في ياقَةِ قَميصها... والأغرَبُ أنَّ قَبْرَهُ الياسمينَ ما احتَجَّ يَومًا وَما سمعنا فيما كُنا نسمعُ من أصداءٍ تتصاعدُ منه إلا ما كان يختلط من تسابيح بِروائحَ هي كالياسمين وَما هي بالياسمين.

لَمْ تحتمل أمي البقاءَ مع تلك الزهرةِ التي تأبى أنْ تُقطَفَ وَتَحصُل بها على العشرة ملايين دولارٍ التي عُرِضَتْ عليها من حَديقةِ دي بلانتس في باريس مقابل تلك الزهرةِ العَجيبةِ

بعدما وَصَلَت أصداء شهرتها فرنسا، بل وَمتاحف وَمَحمياتِ أوروبا كُلِّها. كان يَجِنُّ جنونها كُلَّما كانت تأتي بالمعدات العملاقة وأدوات الحفر لِتَنتَزِعَ تلك الزَهرةَ من جذورِها وَكانت كلُّ محاولاتها تَبوء بالفشلِ حتى بعدَ أن وَصلَ الحفرُ إلى عُمقٍ تجاوزَ الخَمسينَ مِترًا. وَكان جنونها هذا يزداد عندما كانت تصحو في اليوم التالي وَتجد هذه الياسمينةَ والأرضُ من تحتها كما هي وَكأنَّ شيئًا لم يَحدثْ... رَحلتْ غيرَ عابئةٍ بِموتِ أخواتي الإحدى عشرة.

صحوتُ البارحةَ لأجدَ زَهرتينِ على نافذتي، واحدة حمراء وَأخرى بيضاء، لستُ ادري مَن جاء بهما ليفاجئني، لعلها كثرة الحُبِّ كما كان يقول أبي؟! لستُ ادري! ظَلَلتُ هكذا في غرفة النَّوم التي لم أغادرها - إلا ساعات معدودة - منذ ثمانين عامًا وَلمدة خمسة أيام أخرى إلى أن جاء يومُ عيد ميلادي وَأدركتُ حينها بالفعل أنني أفقتُ مما كنت فيه من غيبوبةٍ طويلة... خرجتُ للحديقة أستطلعُ الأمرَ وَقد بعثت الشمسُ بدفئها في خطوط وَجهي المُجَعَّدةِ، وَبالمصادفة رأيتُ زَهرَةَ الياسمين وَحدَها في وَسطِ الحَوضِ الذي ظلَّ خاليًا طيلة هذه السنوات إلا منها وَمِن إحدى عشرة زهرةً سوداءَ كُنَّ لا يُسقَينَ وَلا يَكبُرنَ إلا بما كان يَسقطُ دُموعٍ من زهرة الياسمين البيضاء...

لَمْ تَكن تلك الدموعُ أخفَّ وَطأةً من تلك التي كانت لا تستطيع أنْ تراوحَ عينيَّ المتحجرتينِ منذ أيام وَأنا أرى بيتنا وَقد حَوَّلَهُ أبنائي وَأحفادي إلى مُتحف أثريٍّ، بما فيه أنا. تَفرَّستُ في تلك المَرأةِ ذات الملابس الفرنسية الباهظة الثمن وَالعطر الفوَّاح وهم يحاولون إفاقتها من إغماءتها بعدَ أن حاولتْ أن تَلمسَ إحدى هذه الزهور السوداء وهي لا تعلم أن كل من حاول فعل ذلك من قبلها تضربه صاعقةٌ في الحال وتطرحه أرضًا هو وَكلَّ ما عليه وَيرتديه من ثيابٍ وكذا ما في داخل جيوبه من أشياء كما حدثَ معها وهي ملقاة على الأرض وَعلى بعد أمتار منها و من كل اتجاه جواز سفرها ممزقًا إرَبًا إرَبًا وَلمْ يبقَ منه سوى اسم الزوج الفرنسي من الزوجة المصرية المسلمة التي تجاوَزَتْ المائة وعشرين عامًا...

وَبِلحظةٍ شعرتُ أنني كنت سأركضُ إليها شوقًا، لكنَّ مرارةَ الأيام والذكريات حالتْ بيني وَبين ذلك... وَبَعدَما دخَلتُ في كوما للمرة الرابعة، أو ربما كانت الخامسة أو السادسة، صحوتُ لأجدَ تلك السيدة في ذات مكانها الذي كانت قد صُعِقَتْ فيه لكنها كانت تِمثالًا من لَحم وَدَم، لا من حجر، وَقد كُتِبَ أسفلَ منه بِلغةِ الفايكنج وكذا الفرانكو عربية: "تمثالٌ لامرأةٍ ضَحَّت بِحياتها في سبيل إعلاء قيم الحضارة الحديثة وقيم الجمال المعاصرة، وعندما ماتت اوصَتْ بكل ما كان لديها في سبيل صنع هذا التمثالِ العجيب... عاشت الحضارة وعاشَ الجمال!".

ما كنت اعرف ماذا أفعل سوى التحديق مشدوهةً، ثمَّ أكملتُ على دهشتي وَقد أشارَتْ إحدى اللافتات في بيتنا، أقصد مُتحفنا، إلى الياسمينة البيضاء والزهور الحمراء... نعم الحمراء لا السوداء؛ فقد تَبَدَّلَ لونُها في اليوم الذي صُعِقَ فيه تمثال أمِّي للمرةِ الثانية وَهُم يحاولون أن يجعلوهُ منتصَبًا إلى جوارِ هذا الحوض مباشرةً... وَلدى وُصولي هناك سمعتُ اصداءَ ما كنتُ أسمعُ كلَّ مَرَّةٍ وَأنا اعودُ مِن غيبوبَتي وَأصداؤهُ لم تَزلْ تُدَوِّي في نَفسي، قَبلَ أذنيَّ وَأنا أحاولُ

أن أقطفَ إحداهُنَّ لأعانقها وَأشتَمَّها كي ألقى مصرعي كما لقتْ امي مصرعها، إلا أنَّها كانت تَعودُ بي غَيبوبتي إليَّ وَأنا أسمعُ صوتَ الياسمينة البيضاء وَهي تقولُ: "نَزفُ القُلوبِ لا يُقطَفُ يا حياة؛ هل تُراك نسيتِ ذلك؟!"... كان ذات الصوت الذي كنت أسمعه انا وأخواتي وَوَاحدةٌ منا تَهُمُّ بأن تَقطُفَ واحدةً من الزهور في هذا الحوض وَهي تأبى الرُّجوعَ وَتضعُ يَدَها على ما كان نهانا عنه أبونا وبعدها كانت تسقط زَهرةً سوداءَ حولَ قبر أبي الياسمين... وَهذا ما فعلتُ أنا أيضًا هذه المَرَّة بعدما ضَلَّلتني لافتةٌ كُتِبَتْ على بابِ القُبَّةِ الزجاجية ذات اللون الورديِّ - التي كانوا يُطَوِّقونَ بها هذا الحوضَ – بِلغةٍ لم أفهمْ منها حَرفًا واحدًا على الرغم من إجادتي لسبع منَ اللغات الحية وَلكنها كانت تُوحي فيَ رَسمها إلى مريض يتنَفسُ بصعوبة وَلا تُسعفه كلُّ الأجهزة الطبية الحديثة وَلم ينقذهُ سوى أنه استنشقَ واحدةً من تلك الزهور الحمراء... سقطتُ على الفور وَأنا أرى الموتَ قابَ قوسينِ أو أدنى ولكنه لم يكن بالصاعقةِ هذه المَرَّة، وَلكن كانت الزهور الحمراء والياسمينة البيضاء التي قامت قيامتها تَجمعُ ما تساقطَ حولها من جُثثٍ وَتماثيلَ حيةٍ وَقَدْ اشرأبَتْ تعانقُ سجِّيلَ طُيورَ السماء ترمي به مَن خَطُّوا تلكمُ اللافتات، وَراحَتْ بعدَها تتشعَّبُ فروعًا وَأغصانًا لِتَزلُفَ إلى داخل المُتحف وَهي تحملُني زهرةً حمراءَ صغيرة في المهد تُعاينُ بِكلِّ ندم ما كُتِبَ بِحروفٍ عربيةٍ واضحة على ظهرِ الباب الذي ولجتُ منه واثقَةً منَ النجاةِ، وَكانت الحروف تقولُ: "احْذروا قَطفَ تلك الزهور، وَإلا فالصاعقةُ وَالويلُ لَكُمْ!"... وَظَلَّتْ فروعها تَتَشَعَّبُ وَتَتَشَعَّبُ وَتُعربشُ الجدرانَ وَالنوافذَ وَأسقُفَ هذا المُتحف آخذةً إياهُ مُحطِّمًا بِكلِّ ما كان فيه وَظَلَّتْ تَغورُ به عائدةً إلى حَوضِ الزُّهور حتى تلاشى وَغاضَ ماءً وَأحجارًا أو زجاجًا وَلَمْ يبقَ إلا ما كان إلى جواري من أوراقٍ وَأقلام أُدَوِّنُ بها ما كان يحدثُ معي في كلِّ مَرَّةٍ أفيقُ فيها وَأراها الآن قد صدقَتْ نُبوءتي التي خَطَّها قلبي، لا يدي، في أول سطورها بالصفحةِ الأولى وأنا أصف كلَّ ما حدثَ يوم قيامةِ الزُّهورِ وَأُوَقِّعُ بدمع الروح، لا العين، أسفلَ عنوانِ قصَّتي بِحُروفِ اسمها الأولى، لا اسمي، هكذا... ي. ق. ز.

غابة سبينوزا

عبدالرزّاق الربيعي – مسقط*

من جرح في قلب الغابة
عاد سبينوزا
يتأبط
تحت النور
كتابه
مزهوا في جبة قديس
وقميص مزارع
يمشي
تحت ضياء الشمس الساطع
برشاقة
طفل في إثر سحابه
سار طويلا
بين متاهات وشوارع
بخطى
واثقة وثابة
مبهورا بجلال الأفق الأزرق
يتحدث حينا
مع ظلّ سبينوزا
ويحاور أحيانا
ذات المطلق
منتشياً في حبّ
الربّ
الأشجار
الأنوار
الملكوت الرائع
وبروح عامرة
بوجود
يتوحد فيه الكون الشاسع

واصل سيره
حتى أبصر
في رأس الشارع
تمثال سبينوزا
يتدلى
منه
على الشارع ظل
يحمل
سِفر ”رسالة اصلاح العقل“
كان العالم
من حوله
يغرق
في وحله
مغمورا بظلام الجهل
والناس سكارى
والكلّ يحارب
في ساحته الكل
فراح سبينوزا
يبحث في جلبابه
عن زاوية
خالية
ليخبئ عنوان كتابه
تحت ثيابه
وسريعا
اغلق تمثال سبينوزا أبوابه
ودّع في الشارع أصحابه
ومضى
ثانية للغابة

***شاعر عراقي يقيم حاليا في مسقط / عمان**

شاعران لنص واحد

طه الزرباطي *

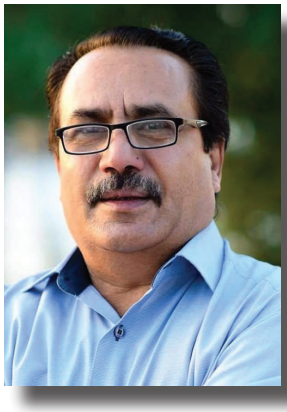

تَفتقِدُ مقدمةُ القافلةِ المؤخرَةَ،
كما تفتقِدُ مُقدمةُ القصيدةِ خاتمتَها، تمرّ بأطلالِ
القلبِ نبضاً و نبضاً،
سكتةً وسكتةً؛
كغريبين ،
مُتناقضين ،
مُتباعدينِ قسراً ،
نؤدي دوراً مرسوماً بحماقةٍ؛
في لُعبةٍ حماسيَّةٍ خاسرَةٍ،
كأنَّ شاعرينِ كتبا نصّاً واحِداً؛
في مباراة قصيدةٍ ،
كأنَّ وجعَ القصيدةِ لي ،
وخاتمةِ الألم لك ،
كأنَّ نعشَ شَاعِرٍ عبرَ الطريقَ محمولاً،
والقافلةُ تمضي،
ولا تدري إلى اين ...
كأنَّ في القصيدةِ عِناقٌ لوردتين؛
اصطناعيتين ...
تركتْ رائحة (البلاستك) في راحتيك ،
كانَّ شجرةً خاصمتْ جميعَ أغصانِها ،
عارية كوطنٍ مبهم من غير بشرٍ،
وطنٍ يبحثُ عن شَعبِهِ المِقدام ،
من سوقِ (البالة)* ستخرجُ أنيقا ،
فيكَ روائحُ أوطانٍ أخرى ،
رائحةُ موتى ،
كأنكَ تتلبَسُ ميِّتاً ،
كأنَّ جميعَ الأوراقِ قد اختلطتْ،
وضاعتْ قصيدتُك بين فواتير الماء،

والكهرباء ،
والضرائب،
وأخرى تخجلُ من تذكُرِها،
كأنَّ اللعبةَ قد انتهتْ ،
ولا شيءَ يستحِقُ العِناية ،
حتى تلك الفراشات ،
صُممتْ بالذكاء الاصطناعي ،
كذلك تلك القصيدةِ التي ترددُها الروبوتات،
في سوقِ الخُردةِ ،
مثلَ شاعرٍ سرقَ قصيدتك المنشورة ،
وأعاد نشرَها باسمه في الصحيفة ذاتها ...
وطلبَ رأيك بنصِهِ ...
وأنتَ تستحي منكَ ...
كأنَّ سيدةً عابرةً أرادتْ أنْ يتضمنها نصُكَ،
فغمزتْ لقائدِ القافلةِ ،
وكشفتْ عن حلماتِ موجِها،
وعن سيقانٍ أغصانِها ،
وعن الثمرِ الإصطناعي الناضج،
فتاهَتْ المُقدمةُ عن مؤخرتها ...
تمرَّ بالأطلال ،
تمرُّ ببوذا مُحطمَاً ،
بكلكامشَ يشكرُ سارِقَ الخلودِ منه ...
بزرادشت يُطفئُ النارَ ...
بحافظَ يجرِّبُ الفأل بديوانِهِ،
بالسياب وحيداً على الشطِّ،
مرقَ الرصاصُ في جنبيهِ،
لا أبحثُ عن مُقدمةِ القافلةِ؛
شاعِران كتبا نصَّاً ...
للخمرة ...

---

*رئيس اتحاد ادباء واسط ـ العراق

مصباح أشور

بولص اشوري *

من رماد نينوى،
تناثرت بذور آشور
في الجبال والوديان والسهول،
فنمت بين الصخور زهورًا
تحفظ ذكرى الشهداء،
الذين رووا الأرض بدمائهم
لتبق منارةً للأحفاد.
ومع دوران الزمن،
جاءت الحروب فاقتُلعت الأحلام
وحلّت مآسي سيفو
فتشتت الشعب وتكاثرت الجراح
وسط صمت العالم وخيبات الوعود.
نهض القادة يقاومون،
يحلمون بالعودة إلى الأرض الأولى
لكن السياسة والمصالح
اجهضت الطريق،
فتكررت المآسي في سميل
وتواصلت رحلة الشتات.
وفي الزمن الحديث
عاد الخطر بثوب جديد
فنزح الأبناء مرةً أخرى
تحت وطأة العنف والخيانة
والعالم يراقب بصمت.
ويبقى النداء يصدح كالعاصفة

اتحدوا .. اتحدوا. اتحدوا
واستعيدوا الحقوق القومية على ارض سهل نينوى
وابنوا وطنًا آمنًا
تعود إليه الطيور المهاجرة
وتنهض فيه اشور
من جديد.
أشرعة القصيدة
وفجأة رعدت السماء
كالبركان،
وتناثرت الطيور هنا
وهناك بالصراخ،
وسالت قطرات من دموع الغيوم، لتسقي، الانهار، الأشجار ،
والقلوب.
كان حلمي بان التقي
مع حبيبتي القصيدة،
على بحيرات كندا،
لكي نتعانق في قبلة تتلون
بها الفضاء،
ولكن الكلمات أخذتني بعيدا عن رسم لوحتي المعبرة
وانا ما زلت أتسلق الهواء
ابحث عن خيمة لتحمي العشاق. في العراق.
لوطن اغتصبه المحتلون الطائفيون الاغبياء
ما هذا الزمن السيء،
حتى الانهار والبحيرات
وأراضي الحدود
لم تسلم من لصوص
الصحراء
تحتل من قبل أشباه

الحكومات دعمتها ملكة بريطانيا العجوز
للذين كانوا يعيشون
في خيم الظلام
استذكر حضارة بابل وآشور
ماذا قدمت للحضارة من العلوم
واليوم شعوبهما مشتتة
في عواصم الدنيا
باحثين عن العلم والمعرفة
ليبنيا بينهما جسر الاحرار
للمرور من القارات والمحيطات
الى سهل نينوى
لبناء وطن جديد للأحفاد

***شاعر اشوري عراقي يقيم حاليا في كندا، يكتب قصائده باللغة الاشورية ويترجمها الى العربية.**

ممنوع التحدث باليوسكرية

قصة: راميرو بينيلا *
ترجمة: جودت جالي

تلقتهما مدينة بيلباو وقد لفها رذاذ فاتر. فتحت العجوز مظلتها عند مدخل محطة القطار، ومشت خارجة والفتاة تمشي مستكينة لصقها. أغشى الضباب ملامح المدينة، وبدت الأشياء بعيدة بشكل يوحي بالخطر، والناس يمشون دون أن يلامسوا الأرض. عقدت العجوز منديلها تحت حنكها دون أن تُسقط السلة المعلقة بذراعها. كانت ترتدي ثياب امرأة عجوز قروية متزمتة في حالة حداد، وأنفاسها تتلاحق من منخريها شهيقا وزفيرا بشكل معذِّب. بقي فمها مغلقا خلف العبوس القاسي لشفتيها الزرقاوين.

توقفا عند طرف المبنى وجاء الشرطي اليهما، ورفعت البنت بصرها الى جدتها التي زمت شفتيها بقوة جعلتهما شاحبتين. دقق الرجل النظر في لباسهما الريفي وسأل لأي سبب جاءا. رمقت البنت المرأة العجوز التي بدت وكأنها قدت من صخر. همست –"السجن".

تفحص الحارس المرأة العجوز باهتمام، ثم نظر فيما حوله وأخفض صوته معيدا سؤاله، وهذه المرة باللغة اليوسكيرية. لم تتحرك شفتا العجوز، فسأل الحارس –" هل هي صماء؟". أجابته الفتاة بالكاستلانية –" قالوا بأنهم إذا سمعوها تتحدث باليوسكرية فستكون العاقبة سيئة على ابنها. هذا هو كل ما تعرفه".

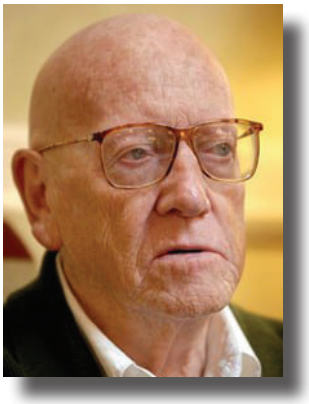

أشار لهما الحارس نحو طريق يقودهما الى أعلى التلة التي يقف هو عند أسفلها، وأخذ يراقبهما يغوصان في الضباب اللامع. فيما كانت العجوز تصعد ازداد تنفسها عناء، ولكنها لم تسمح لنفسها بالتوقف مرة. مرت الشاحنات تقعقع ذهابا وإيابا كما لو أنها تساق الى الحرب. كان الرصيف ضيقا جدا بحيث لا يمكن فتح إلا مظلة واحدة فكان المارون يزاحون جانبا فيما هي تواصل السير، والجهد الذي تبذله يجعل الفتاة تسمع بأذنيها دوي رئتي جدتها.

استرخى تنفسها عند القمة ولكنها لم تتوقف أو تفتح فمها.

وجدتا السجن بسهولة. كان مرئيا عبر المسافة البليلة، متدليا كما لو كان مصنوعا من ورق مقوى، باديا بالمظهر الجلي الصامت المعتاد لأماكن الاحتجاز. التفتت

البنت لجدتها التي كانت شفتاها مرة أخرى مقفلتين وشاحبتين كما كانتا عندما توجب عليها مواجهة الحارس. كانت الفتاة في الثانية عشر ولكنها تتحرك برزانة فتاة بالغة، نحيلة بعينين حزينتين غير متوافقة مع سنها، ويصعب عليها تذكر زمن ما قبل الحرب، ومثل جدتها، كانت ترتدي ملابس حداد من رأسها الى أخمص قدميها، وإن كانت تكثر من النظر الى جدتها فلكي تذكر نفسها بأنها لا يجوز لها أن تبكي.

توقفتا عند البوابة التي تؤدي الى الدخول من الجدار الخارجي. جاء لمواجهتهما ضابط يرتدي قبعة مثلثة مزينة الحواف له شاربين دقيقين واضعا يده على حزام مسدسه.

ـ'' ماذا تريدان؟''

ظلت العجوز ناظرة الى الأمام، ولكنها لم تعد تستطيع رؤية المبنى. أعاد الضابط سؤاله. شدت تكشيرته شاربيه وتراجع الى كوخ الحراس مع زملائه. ابتسم قائلا:'' لست مستعجلا، فنوبتي تنتهي حتى السادسة''.

نظر الحراس الآخرون خارج الكوخ. شدت العجوز قبضتها على المظلة، والضغط بدأ يجعل شفتيها ترتجفان. بدا وكأن المطر تمطر لهما فقط، بينما هما واقفتان هناك على الحصباء الناعمة عند المدخل. ثم أخذت الفتاة تفتش سلة جدتها تساعدها الجدة ويداها ترتجفان غير أن الفتاة كانت تعرف أن ارتجافها لم يكن لأنها خائفة. أبرزت يديها من تحت المظلة بورقة مجعدة، وبينما كانت تدفعها الى الموظف جعلها المطر الساقط عليها معتدلة. اتسعت ابتسامته عندما وقعت عينه على ختم الأسقف. خطا راجعا الى المرأة وعيناه اللامباليتان نصف مغمضتين... سأل ـ'' هو ابنك إذاً؟''، شعرت العجوز بعيني الفتاة على وجهها ولم تحرك عضلة. لوح الموظف بالورقة أمام وجهها وأضاف ـ'' فهي إذاً عمياء كما هي صماء''.

اختلس الحراس النظر مرة أخرى وهم في كامل قيافتهم الحربية.

أمر الموظفُ العجوزَ قائلا ـ'' قولي شيئا''، وضع الورقة في جيبه وصالب يديه على صدره. جذبته الفتاة من معطفه الميداني لتلفت انتباهه وقالت ـ'' أنت تعرف بأنها لا تفهم يا سيدي. إنها تتكلم بلغتنا فقط''، وثبتت عليه نظرها حتى اضطر أن يجيب ـ'' فعليها أن لا تغادر البيت''. قالت الفتاة ـ'' هي لم تر أبي منذ سنة''.

كان الموظف من القذرين الذين يُكلَّفون عادة بحراسة السجن الذي يضم سجناء زمن الحرب. غضب لأنه شعر بأن حزمه يفلت من يديه.

أعاد الورقة وهو غير قادر على إبعاد عينه عن الفتاة، ثم تنحى جانبا مشيرا الى الطريق بحركة من يده.

عبرتا فِناء مقفرا. في ركن منه كان يوجد ثلاثة رجال يغسلون شاحنة بخرطوم مياه. جاء حارس بلحية صوفية شقراء للقائهم. ناولته الفتاة الورقة وقرأها بتدقيق ثم رفع بصره الى المرأتين كما لو أنه نسي وجودهما مؤقتا. استدار من دون أن يتفوه بكلمة وغاب داخلا قاعة مظلمة. تساءلت الفتاة لماذا لا يفعل شيئا بخصوص المسدس الثقيل الذي يرتطم بفخذه بإيقاع.

جاءت هبة ريح من اليسار فقلبت العجوز ياقة معطف حفيدتها الى الأعلى باليد نفسها التي تحمل السلة. لن تنسى الفتاة كيف كان فم جدتها المغلق كأنه ملحوم، أو ينم عن تعبير هادئ لملامحها المجعدة التي كفت عن

مجاهدة توقها للتحدث.
كان واضحا من عينيها، بتقيدها الذي لا يسبر غوره، بأنها لن تنسى ما تريد قوله لأبي الفتاة، أو الرجاء الأعزل الذي عليها أن ترجوه من عدوهما. عاد الحارس يسير خلف رجل بدين بوجه ناعس توقف على مبعدة عشرة أقدام منهما وتكلم قائلا –'' لا يسمح لأحد بزيارة السجناء المحكومين بالإعدام''. أصبح صوته أجشا كما لو أنه حكى نكتة. لم تتحرك المرأتان من عند المدخل. قال متحججا '' إنها القوانين''. ضغط الرجل ذو اللحية الشقراء اصبعه على الورقة كأنه يشير الى شيء مكتوب هناك. أخرج الرجل البدين عوينات من جيب معطفه الميداني ووضعهما أمام عينيه، وعندما تبينت له أهمية تلك الكلمات انتفض قائلا –'' لا بد من أن يُبقوا أولئك الرهبان محبوسين في غرفهم المقدسة''. مد يده في سلة العجوز وأخرج صرة –'' ما هذا؟''. قالت الفتاة –'' خبز ولحم خنزير وكعكة تورتية لأبي''. ناول الحارس الصرة للفتاة. –'' ضعيها في تلك السلة هناك''. وضعتها الفتاة بعناية في سلة موضوعة على الأرض.
قادهما الحارس عبر غرفة من بين صفي سياج بمثابة ممر. كانت الأقفال تقرقع كلما تتوقف الجدة والحفيدة بالانتظار عند كل باب، وبوصولهما الى آخر باب حديدي فُتح باب على الجانب الآخر من الحاجز وبرز شخص صغير هزيل. ضغطت العجوز وجهها على الشبكة الحديدية وزمت شفتيها خشية أن تتنكر للوعد الذي قطعته على نفسها. دفعت الفتاة أصابعها من خلال الأسلاك. حدقت محاولة أن تتأكد من أنه أبوها حقا. كادت أن تفلت الكلمات من بين شفتيها بلغتها، لغة أهلها، ولكنها سيطرت على نفسها منتبهة الى الحارس الذي يراقب من مسافة خطوتين. سألت باللغة الكاستلانية –'' هل أنت بخير يا أبي؟''. لم يكن الرجل قادرا على التكلم، وكان بإمكانها أن ترى أنه غير مصدق بأنهما موجودان أمامه، -'' أبي''، كانت ذراعيه متدليتين على جانبيه، وحتى حين بدأ التحدث لم تتحركا:'' أجل، أجل، أنا في حالة جيدة، وكيف هو الحال عندكم هناك؟''. كانت أمه تتشرب بشوق كلمات ابنها التي لا تستطيع فهمها، وأرخت شفتيها للارتجاف. قالت الفتاة –'' الجميع في وضع رائع''. نظر الرجل الى أمه قائلا –'' أماه''، فانفلتت آهة من فمها. قال الحارس –'' هيْ، أنا لا أريد أن أسمع أية كلمة من تلك اللغة الباسكية اللعينة''. كان بالإمكان سماع أحد الحراس في دورته الليلية ينادي في قسم الزنازين بأسماء الرجال الأربعة وعشرين المحكومين بالإعدام.
سأل الرجل –'' كم لديكم من الأبقار في الحظيرة؟''. أجابت الفتاة –'' ثلاث فقط. كانت خمسا عندما أنت...''. –'' هل تتمتع بالصحة؟''. –'' أجل''. سأل عندئذ لماذا لم يأت جدها فأجابت –'' لا يستطيع رؤيتك وأنت هنا''. لم تكن به حاجة للنظر الى أمه، فمن حيث يقف كان يستطيع رؤيتهما معا. قال ''أماه''. ضغطت المرأة نفسها على السياج. –'' صلي من أجلها''، عرفت الفتاة بأنه يقصد أن تصلي على أمها التي قُتلت قبل ثلاث سنوات في جيرنيكا. أجابت –'' أجل''. كان الرجل يجاهد للتنفس –'' هل لا زلتم تحتفظون بالبذور بجانب الطريق؟''. قالت الفتاة –''أجل''. –'' إن كنتم لا تستطيعون العناية بالبقرات الثلاث تخلصوا من واحدة''. –'' أخبرتني جدتي أن أقول لك بأنك عندما

كنت في الحادية عشر وصفعتك هي لم يكن صفعها عقابا لك على أي شيء بل كل ما في الأمر أنها أحرقت اليخنة وكانت في مزاج سيء، وتتمنى أن تسامحها".

كان يمكنها رؤية والدها يرتجف. تكلم الحارس في نوبة حقد مفاجئة –" انتهى الوقت. قولوا وداعا". قرقعت أزرار سترة أبيها وهي تحتك بالسياج... –"أماه". لم تجرؤ الفتاة على أن تبعد بصرها عنه وبذلك تنهي كل شيء، وتحت نظر جدتها تقدمت ثلاث خطوات نحو الحارس وقالت له –"إنها تسأل إن كانت تستطيع قول كلمة واحدة باليوسكرية؟". أجاب –" هذا مخالف للقوانين".-" كلمة واحدة ستكون آخر شيء تستطيع قوله له في هذا العالم". –" غير ممكن". –" كلمة واحدة فقط". –" كلا". –" واحدة فقط". تردد الحارس ثم قال –" واحدة فقط".

عادت الفتاة الى جانب جدتها ورفعت نظرها اليها مومئة برأسها.

استجمعت العجوز نفسها. رفعت السلة التي ستعود بها الى القرية وانتظرت أن يستقر تنفسها، ركزت بكل ما تملك من قوة، وقبل أن تترك الكلمة تخرج من فمها مخضبة بسبعة وثلاثين سنة عاشتها مع ابنها، من يوم ليوم، من ولادته الى سجنه في قفص الحيوانات هذا، عارفة أنه سيسمعها، ومقررة ألا تسمح لأعدائها أن يدمروا عالمها بموت آخر. احتضنت عيناها وجه ابنها النحيل لتحفظه في ذاكرتها حفظا محكما، وشعرت بحديد السياج يدخل صدرها وهي تقول كلمتها الأخيرة بلغتها اليوسكرية : -" وداعاً".

*** ولد راميرو بينيلا (1923-2014) في بيلباو بإقليم الباسك. درس الإبحار وصناعة السفن ثم أخذ يكتب الروايات والقصص التي تدور في الريف الباسكي وأهمها الثلاثية الروائية (وديان خضر، تلال حمر) التي حظيت باهتمام النقاد والقراء وحازت جوائز كما حاز هو الجائزة الوطنية للكتابة القصصية، وكما هو الحال مع سائر الأدباء الذين عانوا من الحرب الأهلية الإسبانية (1936-1939) كواقع عاشوه أو إرث في الذاكرة الشعبية والعائلية فإن كثيرا من قصصه تتحدث عنها، كما في هذه القصة التي تتناول الخاصية العنصرية في السلطة الفرانكوية الديكتاتورية التي أعقبت الحرب، والتي تمنع لعنصريتها التحدث باللغة اليوسكرية وربما حتى بلغة أقلية أخرى، كما تبين التحالف الذي كان قائما بين السلطة وبين رجال الدين بحيث أن الأم لم تستطع هي وحفيدتها رؤية ابنها المحكوم بالإعدام إلا بورقة من الأسقف.**

قراءة في أعمال صقر عليشي الشعرية

بيان الصفدي*

بدأت تجربة الشاعر صقر عليشي تسجل أولى بصماتها الحقيقية - بعد مرحلة قصيرة من تجريب أولي - مع مجموعته (قصائد مشرفة على السهل) والتي انتمت إلى مرحلة ازدحمت بشعراء كثر انقسموا إلى عدَّة تيارات، فهناك تيار استهوته لعبة الشكل والإغراب، وثانٍ اختار الشعر الوجداني الشفيف من غير غرق في لعبة الشكل، بل جعلها تندغم بسلاسة في القصيدة، وثالث فهم الشعر استجابة للآنيِّ الإعلامي، وصدى لما تطلبه المنابر والجمهور المسيَّس.

وكان صقر من التيَّار المنتمي فنياً إلى الشعراء الذين اختاروا السهل الممتنع، ولاقت ريفيته اللافتة المحببة استحساناً واسعاً، منحازاً إلى الطبيعة البكر، والجمال الأنثوي الصافي، وسط كآبة غلَّفت معظم الشعر العربي.

بعيداً عن النثرية

تنجو قصيدة عليشي من الوقوع في النثرية الفجَّة، مع أنه شديد الاقتراب من اليومي والمألوف والسهل، وهي حالة نراها عند من يريد شعرنة الكلام العادي، أو المشاهد العادية، فيغرق في المبتذل من الحالات، وفي الصياغة الخالية من مهارة البناء، فالعادي عند صقر متوهج، والصياغة ذكية ولمَّاحة.

لاحظوا معي كيف يكون الكلام الخادع بأنه عادي عندما يحمل المفاجآت الإيحائية:

أنا من هناك...
حيث كل شيءٍ مرتفع
الروابي
والنهود
والجباه
رعيت الأبقار والماعز والسواقي
وركضت مع الصباحات النشيطة
مع الشعاب الجبلية
حتى تمزقت جوارب المنعطفات
(1/19)

شَعْرَنةُ الحياة

ما هي خلطة صقر السحرية لشعرنة الكلام؟ تنبه صقر، فلم ير القصيدة طولاً أو قِصَراً، ولا غراماً بتقليد ما يشيع من الأشكال، ولا رغبة في تلبية ما يطلبه الجمهور، فقد مثَّل الحالة الأصيلة لالتقاء الموهبة بالثقافة بصدق التعبير ورغبة امتلاك الصوت الخاصِّ، فكان له ما أراد، حيث لم يزاحم أحداً، ولم يُراكِم مجموعاته ويباهي بمطوَّلاتها، بل ظلَّ متقشِّفاً، أشبه بدرويش شعري مؤمن بأدواته،

يجلس فوق مسامير شعره وحياته، ويقدم هداياه الشعرية في مهرجان ملوَّن، حالماً أن يكون قد زاد من بهجة العالم ومتعته.
وعندما يسير صقر عليشي في غابة الشعر يسلك إليها درباً يشبه دروب قريته في الجبل، إنه الدرب الذي يفاجئك في كل منعطف ووراء كل صخرة وأَكَمَة وتلَّة وقمَّة ومنحدر. لهذا كان الشعر كما فهمه يتدفق من الحياة البسيطة حوله، ومن كائناتها المألوفة، لكنه سرعان ما يطير بما هو على الأرض فيحلق به، ويمسك بما في السماء فيجعله أرضياً، وفي هذه الأرجحة الشعرية يطلب من زملائه في قصيدة (نصيحة) أن يفهموا هذا الألق في اللحظة الشعرية، فهي تأتي عندما يحين لها أن تأتي، لأنها تكون في لحظة كمونها الحر الباحث عن لحظة الولادة:

إن لم تأتِ بموعدها الكلماتُ
تريّثْ..
لا تقلق وتولولْ
سوف تجيئك راضيةً مرضيّهْ
فهي هناكَ
تعبّ هواءً طلقاً... وتنطّ..
وترعى الأعشاب الغضّةَ
في البريّهْ (1/326)

ويقول في (مذكرات نملة) أن لديه دوماً ثقة بحكمة الطبيعة والجمال:

كم أنا اليوم متعبةٌ!
قشة قصمتْ – قبل أن أصل البيت-
ظهري
قشةٌ / ثروةٌ
هي أطول من نملتين معاً..
يهب هواءٌ فيهتزّ أمري
أسبُّ أبا القشِّ
ألعن يوماً تعرَّفت فيه
على القشِّ
أسمع قهقهة النمل حولي..
وينفدُ صبري (1/340)

يستطيع صقر أن يمارس لعبته الأثيرة مع الإدهاش والشفافية والطرافة، فعندما يكتب عن المرأة يقوم بلعبته الفنية، حيث تتحول الكلمات الجافة والمسميات والمصطلحات والعبارات الشائعة إلى وظائف طريفة جديدة:

مشاعري وفستانك
يتبادلان الحفيف (2/329)

والسخرية والمرح يمران غالباً على شكل تناصّ أو عبارة في قصيدة، كقوله:

صَبايا نَضِجْنَ كَمَا يَنْبَغي
قبلَ نضْجِ العِنبْ
رجالٌ يلفّونَ تبْغَهُمُ
ويخُوضُونَ في عالَمِ الغَيْبِ
حتى الركبْ (1/258)

والسخرية تكون أحياناً نوعاً من اللعب الجميل المحض، لكن في مقدورنا أن نلمح دلالات خفية بين ثنايا الصور:

طرتُ قريباً من "دربِ التّبانةِ"
(حتى إن التبنَ تناثر فوقَ ثيابي)
وهنالكَ شاهدت الإنسانَ
يحطّ على طرفِ الأقمارْ
لكنْ...
لا تنسوا أني حين وصلتُ
إلى هذا العصرِ،
وصلتُ على ظَهرِ حمارْ (2/190)

الجسد قصيدةً

شاعرنا يدافع عن بهجته وفرحه، وينظر شزراً إلى الشعر الحزين، ولا يميل إلى التأمل الواسع في معنى الحب والموت، هو يغني للحب، يلتقط منمنماته، يكتب مغامراته معه، وينفث مشاعره، ولكن الشاعر عرف

كيف يجدِّد مشاغله الشعرية.
وشعره فيها ليس عفيفاً كما يروق للكثيرات والكثيرين أن يتمظهروا، ولا ماجناً كما هو سائد في شعر مبتذل يثير اشمئزازنا بتفاصيله السمجة والمريضة، بل جسد المرأة عنده واحة، أو شعلة، أو نجمة بعيدة، فدائماً يكون الجسد موضع تقدير وحب وتغنٍّ وتمجيد واحترام:
ما من وسيلة
سوى ساقيكِ
ليرى المعنى لمعانه (2/309)
ساقانِ لا تَغيبُ الشمسُ عنهما
ساقانِ تَمْضيانِ في مهمّة ضَوْئيةٍ (1/156)
مواقف
ما موقف صقر عليشي شعرياً؟
غادر صقر سريعاً الشعر المباشر، شعر الاستجابات العابرة والمواقف التي تتطلبها السياسة حتى عندما كان ذا انتماء محدد، لأنه اهتدى مبكراً إلى الشعرية، ونفر من النظم، وغاص أكثر في معنى الحياة، وفي حال المجتمع حوله، ورفض الانغلاق والتعصب لأي شيء، فنجا مبكراً بجلده من إغراء الآني والقضايا الرابحة في وقتها، ولكنه وإن أبقى على شيء من تلك المرحلة فقد أكَّد انتماءه إلى الشعر والإنسان، لذا لم نعد نجد مثل هذه اللمحات من الانتماء إلى العامِّ السائد منذ مجموعته (قصائد مشرفة على السهل) إلا نادراً، وبما يخدم انتماءه الأشمل لكل ما هو أجمل:
سنكتب شعراً
ليرضَى النزول على الأرض
هذا المطرْ
سنكتبُ شعراً
لِنَدْحر، أبعدَ أبعدَ،
عنّا الخطرْ (1/73)
ولهذا فالشاعر يؤكد على دوره مهما كان صغيراً في إصلاح العالم، فهو لم يتخلَّ عن حلم أن يكون العالم جميلاً، وأن نعمل ما استطعنا أن نجعل وجودنا أقلَّ وحشة ووجعاً:
لن نقولَ بأنا نعيشُ سدىً
ولو نفِدَ العمر منا ونحن نجاهدُ
كيما نزيح حصاةْ (1/75)
وفي واحدة من أجمل قصائد الشاعر وهي (من سيرة العاشق) يلخص على نحو جمالي شفاف سيرة فتى الريف الذي ينتمي لفقرائه، وحوله الشَّمَمُ الذي جعله بسيطاً وحالماً وبريَّاً يتلمَّس الأشياء بلا خوف، ليكتشفها على هواه، ويصادقها على مزاجه، يقوده قلبه وعيناه، بل وحواسُّه كلُّها:
وُلِدْتُ وليس معي
غَيْرُ هذا الجبلْ
قلْتُ: لا بأْسَ، يكفي
وقفْتُ على كَتِفَيْهِ
ورُحْتُ أَعُبُّ حليبَ الغيومْ
وقَفْتُ على كتِفَيْهِ
ورِحْتُ أَمُدّ يَدَيَّ
وأَقْطُفُ خوخَ النجومْ (1/227)
ها هو شعره تنويع يتجدَّد عن الحياة والبشر والأشياء من زوايا طريفة، فهو يكتب عن الشعراء والدروب والريح والغبار والحرب والدمع والحنين والشمعة وغيرها بالطريقة نفسها، حيث تكون القصيدة لعباً جميلاً بالأفكار والمشاهِد، أنسنة وتخييلاً، وخلطاً بين الحواس والعوالم.
لكن الشاعر في مرحه وتغنيه بالمرأة، وبأَخْذِها علامةَ حياة وبهجة، لا يترك مبضعه الشعري جانباً، بل يُعْمِله في كل ما يشوه الوطن والحياة والإنسان، فتتجلى صرخاته

بوضوح وجمال وطرافة في قصيدة (لمحة عن بلادي) التي ينهيها بمرارة كاوية:

فأنى توجَّهتَ
ثمَّة وجهُ الخرابْ (2/253)

تناصٌّ

ولم يكفَّ الشاعر عن القيام بالتناص خاصة مع القرآن الكريم، أو الحديث النبوي الشريف، ومع نصوص وأشعار تراثية:

متكئين هنالك
فوق الأرائك (2/241)

حضور يهز بجذع القصيدة من جذعها(1/141)

وعلمت النبع ما ليس يعلم (1/143)

ربنا أعطنا كفاف يومنا من النساء(1/149)

قربا مربط القصيدة مني (1/137)

يحسب لصقر أنه خارج السرب تماماً في قصيدته المكرَّسة، ففيها ابتعاد شبه كامل عن "الهموم العامة" الشائعة، والسبب في رأيي فني محض، لأن الشاعر رغب أن يكتشف الزاوية الخاصة التي تمنحه رؤية خاصة لما حوله، فأراد أن يكون عازفاً منفرداً، فتحوَّلت المرأة لديه إلى وسيلة إيضاح لنوازع القلب والجسد، فبسطها على المشرحة، مغمورةً بماء دهشته، فكانت أعماله الشعرية شهادة فنية نجحت في أن تكتب اسمه بقوة في صفحة الشعر العربي الحديث.

***الأعمال الشعرية. صقر عليشي. الهيئة السورية العامة للكتاب. دمشق 2024.**

***شاعر وناقد سوري**

زوايا ساخنة *

د. عزيز جبر الساعدي **

الشخصية:
رجل مسن (70–75 عامًا)؛ (يمكن أن يؤدي بصوته تحولات؛ أصوات الأم/الحبيبة/الزوجة عبر النبرة والإضاءة)
السينوغرافيا: كرسي خشبي قديم
طاولة صغيرة عليها: مسجل قديم، نظارة، فنجانان
باب جانبي واضح يصدر صريرًا (عنصر سمعي أساسي)
عصا
إضاءة متغيرة (أزمنة/حالات نفسية)
المؤثرات الصوتية:
صرير الباب (متكرر ودلالي)
موسيقى: مقاطع قصيرة بأصوات أم كلثوم / محمد عبد الوهاب / فيروز/ داخل حسن
ضجيج سوق (مسجل)
صمت ثقيل (عنصر درامي)
المشهد الأول: بيتٌ يتنفس الوحدة (اغنية لداخل حسن عن فراق الاحباب)
(إضاءة خافتة... صرير الباب... يدخل الرجل ببطء)
الرجل: لا أحد يطرق بابي...
لكن هذا الباب...
يصرُّ أن يتكلم...
كلما صرخ... قال لي:
"أنت لستَ وحدك... أنا هنا... أتآكل معك."
(يمرر يده على الخشب)
كنّا اثنين...
أنا... وهذا الصرير...
حتى ظننتُه اسمي الثاني...
(يجلس... يشغل المسجل... مقطع خافت)

يا صوت أم كلثوم...
كم مرة خبأتُ خلفك كلمة "أحبك"...
وكم مرة خانتني الشجاعة...
المشهد الثاني: ذاكرة لا تشيخ،
(إضاءة دافئة – استرجاع)
كانت تجلس هناك...
في الصف الثاني...
تكتب...
وأنا أكتبها...
(يضحك)
حتى درجاتها...
كنتُ أسرقها...
ليس غشًا...
بل حبًا مرتبكًا...
(يقف كأنه يراها)
كنتُ أخاف من كلمة...
أربعة حروف...
لكنها كانت أثقل من عمري كله...
(صمت)
"أحبك"...
المشهد الثالث: الفرصة الضائعة،
(إضاءة بيضاء قاسية)
التقينا مجددًا...
في الدائرة نفسها...
قلتُ: ها قد عاد الزمن... ليعتذر...
(يتقدم خطوة... يتوقف فجأة)
لكن...
خاتمًا صغيرًا...
في يدها...
كان كفيلًا...
بإسكات ألف اعتراف...
(بصوت منكسر)
تأخرتُ...
كعادتي...

(يتحوّل صوته إلى سخرية ذاتية)
فاخترعتُ بطولةً جديدة:
أن أحبها... كأخ!
المشهد الرابع: حياة نصف مكتملة،
(إضاءة باهتة)
تزوجتُ...
نعم...
كنتُ زوجًا جيدًا...
لكن قلبي...
كان موظفًا بدوام جزئي...
(يجلس)
وعندما رحلتْ زوجتي...
أدركتُ...
أنني لم أحب مرتين...
بل ضيّعتُ مرتين...
المشهد الخامس: السوق – لحظة الانبعاث
(صوت سوق... إضاءة حيوية)
خرجتُ...
أبحث عن خبز...
فوجدتُ قلبي...
(ينصت)
ذلك الصوت...
لا يُخطئه الزمن...
(يتقدم بحذر)
هل أنتِ... نور؟
(يتراجع كأنها تضحك)
نعم... هي...
ضحكتها... ما زالت شابة...
حتى لو تعب الجسد...
المشهد السادس: داخل البيت – المواجهة،
(إضاءة دافئة... يدخل كأنها معه)
تفضلي...
بيتي فوضوي...
لكن قلبي... مرتب لكِ منذ خمسين عامًا...

(يتوتر... يحمل فنجانين)
يداي ترتجفان...
كأنني أتعلم الحب... لأول مرة
(يصمت... ينظر إليها)
كنتِ... تحبينني...؟
(يضحك بمرارة)
يا لسخرية العمر...
كنا نحب...
ونجيد الصمت...
الحوار الشعري (الذروة)
(إضاءة مركزة... صوت داخلي مزدوج)
هو:
ماتت أمي...
هي (بصوته بنبرة ناعمة):
أأكون دفئك...
إذا بردت الذكريات؟
هو:
ليس لي صديق...
هي:
أكون صوتك...
حين يختنق الكلام؟
هو:
ماتت حبيبتي...
هي:
أكون قلبك...
إن عاد للحياة نبض؟
هو:
ماتت زوجتي...
هي:
أأكون عمرك...
إن تبقى منه القليل؟
(صمت طويل)
المشهد السابع: كشف الأعماق.
قالت...

إنها أيضًا... وحيدة...
بيتٌ كبير...
وقلبٌ فارغ...
ابنٌ غائب...
وابنةٌ بعيدة...
(بهدوء)
الوحدة...
حين تجد مرآتها...
تصبح رفيقة...
المشهد الثامن: النهاية / الأمل
(تتجه نحو الباب – هو يراقب)
خرجتْ...
وتركتْ خلفها...
عطر احتمال...
(صمت... يلتفت نحو الباب)
غريب...
لم يصرخ...
(يفتح الباب ببطء)
هل تعب...
أم...
أن الحياة...
دخلتْ دون أن تستأذن؟
الخاتمة الشعرية
الرجل (بهدوء عميق):
يا أيها العمر...
إن كنتَ قد سرقتَ نصف الحكاية...
فامنحني...
النصف الذي يُكتب... الآن...
(يرفع العصا... يمشي بخطوة أكثر ثباتًا)
ما زال في القلب...
متسعٌ...يستمر في المشي الى الباب..
مشهد الختام يؤدى (بلهجة بغدادية)
(إضاءة خفيفة... عند الباب...
صمت قصير)

الرجل:
راحت...
بس... مو نفس كل مرة...
(يلمس الباب ويحدثه)
اليوم... ما صرخت...
(نَفَس عميق)
يمكن... استحيت من الفرح...
(سكتة)
خمسين سنة... ساكت...
(يرفع رأسه)
إذا ترجع...
ما أسكت...
(بهمس)
أگولها... أحبچ...
(يفتح الباب شويّة... يدخل ضوء)
الباب مفتوح...
للأمل...
(سكتة أخيرة)
يمكن... بعد باقي شي...(مو بلله)
اظلام تدريجي مع اغنية يختارها المخرج
(إظلام تدريجي... موسيقى خافتة)
النهاية،

ملاحظات إخراجية مهمة:

الإيقاع: بطيء متأمل في البداية، يتسارع في السوق، ثم يتوازن في الذروة
الصوت: استخدام الصمت كعنصر درامي أساسي
التحولات: عبر الإضاءة لا الديكور
الأداء: الممثل يعتمد على العينين والنَفَس أكثر من الحركة
الزمن الكلي: 23–27 دقيقة حسب الإلقاء

***هذا النص، في الاصل قصة قصيرة للكاتب نفسه**

****كاتب ومخرج مسرحي عراقي.**

مطبوعات وصلتنا

- احمد ادم ، الاعمال الشعرية ، اتحاد الادباء والكتاب في العراق، 2026.
- عمران الخياط ، الادب الياباني في القرن العشرين، منشورات حامد المالكي، بغداد، 2021.
- طالب حسن ، منتصف الحلم بتوقيت بغداد وتنهدات الرماد (شعر) ، دار السرد ، بغداد، 2026.
- عبدالله حرز البيضاني ، الصبح يتنفس الجسد (قصص) ، اتحاد الادباء والكتاب في العراق، 2026.
- عواد علي، داعشيات شكسبير (مسرحيات)، اتحاد الادباء والكتاب في العراق، 2026.
- غازي موسى الخطيب، احداث وتقارير كتبت مع اوجاع كورونا، اصدار مكتبة الياسمين ، السماوة ، العراق، 2026.
- محمد كحط عبيد الربيعي، أوراق سمنان المهملة - وثيقة ادانة للحروب ومشعليها، دار الرواد المزدهرة، بغداد، 2026.